كتاب

منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب

تأليف
الشيخ الفاضل عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر
آل معمر غفر الله لهما آمين

من منشورات
دار ثقيف للنشر و التأليف
الطائف - المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م
الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م
الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م

حياة المؤلف

بقلم
حضرة صاحب السماحة العلامة الكبير الشيخ محمد بن
عبد اللطيف ابن الشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن شيخ
الاسلام الامام محمد بن عبد الوهاب .

هو الإمام العالم العلامة ، والقدوة الحجة الفهامة ، المجتهد المتفنن فى سائر العلوم والفنون ، شيخ الإسلام ، وإمام المهتدين الهداة الأعلام ، الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الإمام حمد بن ناصر بن معمر رحمهم الله ورضى عنهم ؛ ولد فى الدرعية عاصمة نجد ، ومركز الحركة العلمية فى ذلك الحين ، فى أوائل القرن الثالث عشر سنة ١٢٠٣ من الهجرة النبوية ، ونشأ فى حجر العلماء ، ورضع من أفاويق أهل الفضل الذين كانت تزخر بهم الدرعية ، ونجد فى تلك الفترة من الزمن ، والذين أعلوا منار الإسلام ، وأعادوا له نضرته وإشراقه ، فكان من شيوخه والده الشيخ حمد بن ناصر ، والشيخين العالمين الجليلين الإمامين : عبد الله ، وعلى ابنى شيخ الإسلام الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ، باعث التوحيد ، ومحي السنة ، وقامع البدعة ، ومجدد القرن الثانى عشر ؛ والشيخ العلامة المؤرخ المحقق الشيخ حسين بن غنام ؛ والشيخ أحمد بن رشيد الحنبلى ، وغيرهم من جهابذة العلم .

اقتبس الشيخ عبد العزيز من أنوار أولئك العلماء ، وقطف من ثمار فنونهم ، وتخرج فى العلوم الإسلامية والأدبية على أيديهم ، فكان أديباً بارعا ، وعالماً محققاً ، وفقيهاً مدققاً ، حاضر البديهة ، قوى العارضة ، فصيح اللسان ، بليغ القول ، مشاركا فى شتى العلوم الأصولية والفروعية ، ورعا ، زاهداً ، متقللا من الدنيا ، بعيداً عن مفاتنها وزخارفها ، له اليد الطولى ، والباع الواسع فى التصنيف والتأليف ، ونشر العلم ، وتخريج الكثير من

الطلاب، والرد على المعارضين ، وإفحام المخاصمين ، وسترى فى كتابه هذا مايدلك على كل ذلك إن شاء الله .

وله عدة مصنفات وفتاوى ، ورسائل ، وأشعار ؛ فمن أشهر مصنفاته وأجلها هذا الكتاب المسمى " منحة القريب المجيب ، فى الرد على عباد الصليب " ، ومن مصنفاته أيضاً : اختصار نظم ابن عبد القوى للمقنع ، تأليف العلامة موفق الدين بن قدامة ، ورشحه بمختصر المقنع للشيخ موسى الحجاوى ، فكان صدر البيت من نظم ابن عبد القوى ، وعجزه من مختصر المقنع .

أخذ عنه العلم ، وانتفع به ، وتخرج عليه كثير من العلماء والأدباء المشهورين لم يحضرنى الآن من أسمائهم - وأنا على سفر ، بعيداً عن الأهل والوطن ، وعن مكتبتى - الشيخ أحمد بن على بن مشرف .

وفى هذه الحقبة جرى على الديار النجدية ، والدولة السعودية الإسلامية ماقضى الله من تسليط المصريين ومحاربتهم للدولة السعودية ، بقيادة إبراهيم باشا بن محمد على باشا والى مصر ، من قِبَل الدولة العثمانية ، وكان أمر الله مفعولا ، فابتليت نجد وأهلها وعلماؤها أشد الابتلاء ، وامتحنوا فى دينهم ودنياهم أشد محنة ، فخربت الدرعية عاصمة الديار النجدية ، وهدمت القرى ، وشرد العباد ، وتشتت العلماء وقادة الدعوة الإسلامية ، وأخرجهم المصريون من أوطانهم ، ونفوهم إلى مصر وغيرها ، ورحل آل سعود ، وآل الشيخ إلى مصر ، ومنهم الشيخ العلامة الإمام عبد الرحمن بن حسن ، وفر الشيخ عبد العزيز بن معمر إلى البحرين ،

وكان لايزال شاباً ، ولم تنقطع صلته بآل الشيخ الذين بمصر ، فكان يكاتب الشيخ عبد الرحمن بن حسن بأشعار رائقة ، يتوجع فيها على ماحلّ بنجد من الدمار والخراب ، ويتذكر أيامها البيض التى كانت مزدهرة بالعلم والعلماء ، وعز الإسلام ، وقوة دعوة التوحيد ، وخذلان الشرك والبدع ، ويبكى على ما آل إليه أمرها من ذلة التوحيد وأهله ، ومن ذلك منظومة ضمنها عقيدة التوحيد ، أولها :

إليك إلـه العرش أشكو تضرعا * وأدعوك فى الضراء ربى لتسمعا

توجع فيها أشد التوجع لما كان من الكائنات على نجد وأهلها ، وماحلّ بالإسلام فيها من الفوادح ، وقاصمات الظهور .

وكانت الدول الإفرنجية قد مدت إصبعها فى بلاد العرب ، وفكرت فى أن تبسط نفوذها على تلك الربوع ، ومن ذلك بلاد البحرين ، كانت مثار خلاف بين الإنكليز والفرنسيين ، والدولة العثمانية ، والعجم ، كل تريد أن تبسط نفوذها عليها . وأرسلت كل واحدة مندوبا من قبلها ، فكان مندوب الإنكليز رجلا قسيساً اختارته انكلترا ليكون أبلغ إلى مقصودها بدهائه . وعظيم مكره ، وليعمل على بث الدعاية المسيحية ، وينشر فى تلك البلاد الشبهات والشكوك النصرانية . ليفتن الناس عن دينهم إن استطاع ، وتلك سياسة أوروبا فى كل الشرق الإسلامى ، أعظم ماتهتم له تشكيك الناس فى دينهم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ .

فعمل ذلك القسيس الإنكليزى كتابا أورد فيه شبهات نصرانية ،

يزعم فيها تصحيح الملة المسيحية الباطلة الخاسرة ، ودفعه إلى أمير البحرين وشيخها عبدالله بن خليفة ، وكان قد قبل أن يكون تحت الحماية الإنكليزية ، وكان بهذا الكتاب شكوك وشبهات كثيرة ظنها هذا القسيس تروج على أهل تلك الديار ، لزعمه أنهم جهلة بالدين ، ولا يحيطون من الإسلام بما يكشف أباطيله ، وطلب من الشيخ عبد الله بن خليفة أن يعرضه على المشايخ ، وعلماء البحرين ، ويردوا على مافيه ، أويقولوا رأيهم ، إن كانوا موافقين أومخالفين ، فدفعه الشيخ ابن خليفة إلى من كان عنده من علماء البحرين ، وطلب منهم أن يردوا على الكتاب ، فلما قرأوه ، وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد عليه ، فاعتذروا ، وقالوا : مانستطيع أن نرد على مافيه من الشبه ، ثم أرسله إلى علماء الأحسا ، فقالوا مثل ما قال علماء البحرين من إظهار العجز ، وقال بعض علماء الأحسا : ليس هذا النصرانى كفؤاً أن يجاب ، فحزن لذلك الشيخ ابن خليفة أشد الحزن ، واغتم به أشد الاغتمام ، فلما رأى من حوله ماهو فيه من الهم والحزن لعجز علماء البحرين والأحسا عن دفع شبه ذلك القسيس ، قال له أحدهم : إنه قد نزل بالبحرين شاب من طلبة العلم النجديين ، فأرى أن نعرضه عليه ، لعل الله أن يزيح عنا به هذه الغمة ، فأعطاه الكتاب ، وأوصله إلى الشيخ عبد العزيز ، وقص عليه أمره ، وأمر العلماء ، واغتمام الأمير لعجزهم ، واهتمامه بالرد على هذه الشبه . فتناوله الشيخ ، وأبد النظر فيه ، وقال : إن شاء الله يجيئكم دحض هذه الشبه بعد شهر إن شاء الله ، وما لبث الشيخ إلا أياما قليلة حتى أتم الرد ، وبعث به إلى الأمير ، ففرح به أشد الفرح ،

ودعا القنصل الإنكليزى ، وأعطاه الرد ، فلما طالعه القسيس عجب له ، واندهش جداً ، لما كان يظنه من عجز علماء البحرين ، وقال : هذا الرد لا يكون من هنا ، وإنما هو من البحر النجدى ، فقال له الأمير : نعم ، هو من أحد طلبة العلم النجديين ، فأغاظ هذا شيخ البحرين ، وأخذ يتهدد علماء البحرين ، ويعيرهم بعجزهم عما قام به طالب نجدى صغير .

توفى رحمه الله سنة أربع وأربعين ومائتين وألف ، من الهجرة النبوية . ورثاه كثير من الأدباء والعلماء ، منهم الشيخ أحمد بن مشرف رحمه الله ، إذ يقول :

أشمس الهدى غابت أم البدر أفل ... أم النجم أمسى لونه وهو حائل
أم الدين هد الخطب جانب طوده ... أم العلم قد أوهت بناه الزلازل؟
نعم أفلت شمس العلوم وبدرها ، ... لدُن غيبت حبر الزمان الجنادل
إمام الهدى عبد العزيز بن ناصر ، ... فكم نصر الإسلام منه رسائل
رثته علوم الدين إن غاب نجمه ، ... فأنجمها تبكى عليه ، أو أفل
وظلت ربوع العلم تهتف باسمه ، ... وتندبه للمشكلات مسائل
فمن بعده للمعضلات وحلها ، ... وكانت له فيها تشد الرواحل ؟
ومن للعدى يرمى بشهب علومه ، ... ومن للهدى يحمى ، وعنه يناضل
لقد صار فى الإسلام ثلم بموته ، ... وكلم ، فمن ذا بالعلاج يحاول ؟
وقد كان للإسلام حصناً ومفزعا ... إذا نزلت بالمسلمين النوازل
فأصبح مقصوداً لمن طلب الهدى ، ... وكل لنيل المعالى وسائل
لقد فقد العلم العزيز ونشره ... لدن فقدت عبد العزيز المحافل

هو البحر إن رمت العلوم وبحثها ... سوى أنه للبحر يوجد ساحل
إذا ما أتاه السائلون فعنده ... جواب من التحقيق شاف ونائل
وقد جهل الأقوام مقدار فضله . ... وعاش زماناً ذكره فيه خامل
فلا عجب ، فالكنز يجهل غالباً ، ... وهذا زمان تسمو فيه الأسافل
لقد جد فى علم الشريعة ناصباً ، ... إلا أنه بالجزم للحق نائل
وقد كان مخفوض الجناح تواضعاً ... بأحرف علم هنا فيه عوامل
أضيف إليه العلم النفيس لجرّه ... إلى كل خير ، فهو بالعلم عامل
وفعل المعالى أوجب رفع قدره ، ... كما يستحق الرفع فى النحو فاعل
ولكنه فى الفضل ماعنه نائب ، ... وليس له فى عقله من يعادل
فحسبك من حسن أن ما ذكرته ، ... وما طال من شيء فما فيه طائل
سقى روحه الرحمن هطال رحمة ، ... وعم الرضا من غيَّبته الجنادل
فأوصيك بالصبر الجميل وبالرضا ... فحكم المنايا للبرية عادل
فلو كان سهم الموت يخطىء واحداً ... لعاش الهداة الأكرمون الأفاضل
ولكنه حكم من الله نافذ ، ... وخطب عميم للبرية شامل

ورثاه غيره رحمه الله ، وعفا عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

مؤلف هذا الكتاب العلامة الشيخ عبد العزيز بن حميد بن ناصر آل معمر من أبرز علماء نجد في عصره ، ومطلع اطلاعا واسعا على مختلف المذاهب والنحل ، وعلى الديانات الاخر ، وبخاصة الديانة الموسوية ، والديانة المسيحية ·

ولما كان المؤلف ـ رحمه الله ـ عالما من علماء الاسلام ممن وفقهم الله جل جلاله لفهم دينه الحق فقد توفر له في بحثه العمق والسعة والشمول مع الحق الذي التزمه فيه ·

وايمان المؤلف بالحق هو الذي دفعه الى تاليف هذا الكتاب ، ولذا نجده ملتزما كل الالتزام في كل بحثه الحق لم يخرج عنه ·

وقد راى المؤلف الفاضل تجني بعض علماء النصارى على الاسلام دين الحق الذي ختم به كل الديانات السماوية الصحيحة السابقة ، كما ختم برسول الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام كل السابقين ، دين الاسلام الذي ارتضاه لعباده تصدى لتجنيهم دون أن يتجنى هو عليهم ، بل آثر العدل والانصاف في رد اباطيلهم التي قذفوا بها الاسلام ، وفندها تفنيدا بالحجة التي يؤمن بها كل منصف ولو كان غير مسلم ·

ودار ثقيف للنشر والتاليف اذ تنشر هذا الكتاب فان دافعها الى نشره هو الدافع نفسه الذي حمل المؤلف على التاليف ، الا وهو ابطال الباطل احقاقا للحق ، واحقاق الحق ازهاقا للباطل ·

واذا كان عصر المؤلف داعيا اياه على تاليف كتابه فان عصرنا هذا داع الى نشره ، لان مسيحيين معاصرين قد تجنوا على الاسلام بمثل ما تجنى سابقهم ·

فنشر كتاب « منحة القريب المجيب » في هذه الايام ضرورة ، لان فيه دحضا لاباطيلهم ، وتفنيدا لمفترياتهم ، دون أن يكون هناك أي تجن من قبل المؤلف على من يرد عليهم ، ودون أن يكون هناك أي تجن من الناشر ، لان الدفاع عن النفس شريعة قائمة في جميع العصور ، وما ظلم من رد عن نفسه الظلم ، وانما المعتدي هو الآثم الظلوم ·

رحم الله المؤلف وأجزل له المثوبة ، ووفقنا الى الخير ، وهدانا جميعا الى صراطه المستقيم ·

الطائف : غرة رجب ١٣٩٨ — الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً ، فصدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده وبددهم تبديداً ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً ، تفرد بالخلق والتصوير ، وبيده الأمر والتدبير ، وإليه القضاء والتقدير ، فلا يملك أحد من دونه قطميراً ؛ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيراً ؛ وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لاشريك له ، ولانظير له . ولاصاحبة له ، ولا ولد له تعالى الملك الجبار ؛ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ؛ تفرد بالربوبية فى قدمه ، وظهرت سمات العبودية على من سوى ذى الجلال والإكرام ، ﴿ ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ﴾ ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله على حين فترة من الرسل ، ودروس من السبل ، وقد مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، فهدى به من الضلالة ، وعلم به من الجهالة ، وبصّر به من العمى ، وأرشد به من الغىّ والارتياب ؛ ففتح برسالته أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلفاً ، فاستنارت لها الطرق وانفتحت الأبواب ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، ففتح القلوب

بالإيمان والقرآن ، وجاهد أعداء الله باليد والقلب واللسان ، ودعا إلى الله على بصيرة جميع العباد ، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلامها أىّ إشراق ، وتألفت به القلوب بعد شتاتها والافتراق ، وسارت دعوته مسير الشمس فى الأقطار ، وبلغ دينه القيم مابلغ الليل والنهار ، واستجابت القلوب لدعوته الحق طوعا وإذعانا ، وامتلأت بعد خوفها وكفرها أمناً وإيمانا ، فجزاه الله عن أمته خير الجزاء ، وصلى الله عليه صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء ، وعلى إخوانه من الرسل والأنبياء ، وعلى آل كل ، وأصحاب كل ، والأولياء .

وبعد : فقد سألنى بعض الإخوان ، أيدهم الله تعالى بروح منه ، وكتب فى قلوبهم الإيمان ، والفهم عنه ، أن أكتب جوابا عن أباطيل الكتاب الذى صنفه بعض الضالين ، من النصارى الجهلة الغالين ، وسماه "بمفتاح الخزائن ، ومصباح الدفائن" وضمن بعض فصوله الرد على المسلمين ، والاعتراض على نبوة سيد المرسلين ، وقد بث منه النصارى نسخاً كثيرة ليلبسوا الأمر على ضعفاء البصيرة ، ويلقوا عليهم الشكوك والشبهات ، بما لفقوه من أباطيل الترّهات ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ وقد وفى سبحانه بما وعد ، وأظهر دينه على رغم من كفر وجحد ، فأظهره بالحجة والبيان ، ونصره بالسيف والسنان ، وأيد أهله على من سواهم ، ونصرهم بالحجة على من ناواهم ، كما أظهرهم بالسيف على من

كانوا له يحاربون. وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وأيد رسوله وأتباعه بالحجج الصحيحة العلمية، والبراهين القاطعة العقلية والنقلية، بما لم يبق بعده للمخالف إلا محض العناد، وحينئذ فالدواء الشافى من هذا الداء سيف الجهاد، وكفى لمن جانب جانب الاعتساف، وسلك طريق العدل والإنصاف، ماتضمنه القرآن العربى المبين، من البينات والحجج والبراهين، فهو الشفاء النافع لمن استشفى، والكفاية التامة لمن به استكفى، وهو الهدى والنور، وشفاء وسوسة الصدور، وهو الكفيل بالانتصار على المبطلين، لمن كان به خبيراً، كما قال تعالى: ﴿ ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ فلا يأتى صاحب باطل بحجة إلا وفى القرآن مايبطلها ويلقيها من شاهق، كما قال تعالى: ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فاذا هو زاهق ﴾ وفى الحديث الذى رواه الترمذى، وغيره، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صفة القرآن: « فيه نبأ ماقبلكم، وخبر مابعدكم، وحكم مابينكم. وهو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله. هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لاتزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد. ولا تنقضى عجائبه. وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾ من قال به صدق. ومن عمل به أجر. ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ».

ولما كان الله تعالى قد أمر رسوله بإقامة الحجة على الكافرين بطريق الجدال، وشرع ذلك فى السور المكية والمدنية حتى بعد فرض القتال، كما قال تعالى: ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلـٰهنا وإلـٰهكم واحد، ونحن له مسلمون ﴾ وأمره بعد إقامة الحجة على النصارى بالمجادلة، أن يدعوهم إلى الملاعنة والمباهلة، فقال تعالى: ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من العلم، فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾.

فلم يزل صلى الله عليه وسلم فى جدال الكفار على اختلاف مللهم، وتباين نحلهم إلى حين وفاته، وكذلك أصحابه من بعده، ومن تبعهم من أئمة الدين وحماته، وبهذا الأمر قام الدين، واتضح منهاجه للعابدين، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة والبرهان، مسهلا طريق البلاغ إلى المكلفين بالسنة والقرآن، وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأتباعه، الذين بذلوا نفوسهم لله ابتغاء مرضاته. فعند ذلك رأيت الإجابة إلى الجواب أولى، فاستعنت بالله فنعم المعين، ونعم المولى، رجاء الدخول فى زمرة المجاهدين، والانتظام فى سلك أنصار الدين.

واعلم أن الكتاب الذى قصدنا الرد لباطله يشتمل على مقالتين :

المقالة الأولى منهما تنقسم إلى قسمين : الأول : فى صحة الشريعة المسيحية ؛ والثانى : فى إثبات صحة كتب العهد الجديد ، يعنى الأناجيل التى يعتمدها أهل النصرانية .

والمقالة الثانية : تنقسم أيضاً إلى قسمين : الأول : فى الرد على اليهود المكذبين ؛ والقسم الثانى : فى الرد على المسلمين ، وهذا القسم أرشدك الله لما يرضيه ، هو الذى قصدنا الرد عليه فيه ؛ وأما ماقبله من الأقسام فهو إما فى صحة رسالة المسيح ، وأن دينه دين صحيح ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، قبل التبديل والفسخ بشريعة خاتم النبيين ، وإما فى الرد على اليهود فى كفرهم بالإنجيل ، وقولهم بالزور فى المسيح ابن البتول ، وهذا أيضاً على الجملة صحيح مقبول ، لكن تلك الأقسام قد ضمنها النصرانى أيضاً باطلا كثيراً ، ومزج بها بهتاناً وزوراً .

وسيمر عليك إن شاء الله الرد عليه فى ذلك ضمن ما كتبناه .

وذلك القسم الذى نقضناه يشتمل على خمسة فصول من الكلام ، فجعلنا الرد عليها فى خمسة مقامات لكل فصل منها مقام .

وسميته "منحة القريب المجيب ، فى الرد على عباد الصليب" ومن الله نستمد الإعانة على ماأردناه ، والتوفيق لإصابة الغرض بما أوردناه ، فهو الذى يهدى إلى سواء السبيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

المقام الأول

قال النصرانى : فصل فى ابتداء ظهور دين الإسلام : معلوم

مشهور ، مما وجد مسطوراً فى كتب التواريخ ، وأخبار أحوال الزمان أن التقوى الصحيحة الخالصة التى شهرت أولا فى المسيحيين حين كانوا مبتلين بأشد البلايا ، ومظلومين فى غاية الظلم ، قد أخذت أن تنقص أولا فأولا ، بعد أن كان بواسطة قسطنطين ومن بعده من الملوك ، صار ذلك الاعتقاد ليس أمناً فقط ، بل ومكراً.

ثم ذكر أن سبب ذلك هو الاختلاف والفتن بين الأساقفة من أجل الرياسة وعلو المرتبة ، إذ قدموا الافتخار بالعلم على تقوى الله ، وجعلوا الدين حيلة ، وأن ذلك صار سبب اختلاف الأقوال والآراء ، قال : وإذا رأى عامة الناس ذلك لم يدروا مايختارون لأنفسهم ، يلومون الكتب المقدسة ، كأنها سبب تلك الفتنة ، وينفرون عنها كأنها سم زعاف ، وأما فغالب الأمر قد بدا الدين أن يُجعَل ليس فى طهارة النفس ، بل فى ظاهر السنن ، كما صار فى اليهودية ، وفى حفظ الأشياء التى مقصودها تهذيب الأبدان أكثر من صلاح الأنفس بها ، وفى السعى فى إثبات الدعاوى التى اختاروها ، والذى آل الأمر إليه أنه قد وجد فى جميع البلاد عدة من المسيحيين اسماً ، وأقل من القليل حقاً وفعلا ، إلى آخر كلامه الآتى .

ونقول ، وبالله التوفيق : حقيقة ماذكره : هو الاعتراف بتبديل النصارى دين المسيح عليه السلام ، وتغييرهم له ، وتفرقهم فيه فى تلك الأزمان القريبة من زمن المسيح عليه السلام ، فهو من الحجج على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها قد مضت سنة الله فى خلقه ببعثة

الرسل عند خفاء الحق ، وظهور الضلال ، إعذاراً ، وإنذاراً ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ فأرسل تبارك وتعالى الرسل فى بنى آدم جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، كلما درست رسالة رسول وخفيت آثارها ، بعث رسولا بتجديد الرسالة ، وإقامة الحجة ، إلى أن وصلت النبوة إلى بنى إسرائيل ، فبعث الله فيهم عبده ورسوله الكريم ، ونجيه المقرب الكليم ، موسى بن عمران ، عليه الصلاة والتسليم ، وأنزل عليه التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون . والأحبار ، فساسهم موسى عليه السلام بسياسة النبوة ، وشرع لهم شرائع الدين ، وحد لهم حدوده ؛ ثم كانت فيهم الأنبياء بعده تسوسهم بأحكام التوراة وشريعة موسى ، ثم حدثت فيهم الأحداث ، وتفرقوا فى الدين ، واتبعوا الأهواء ، وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً ، وأفسدوا فى الأرض ، وتعدوا حدود الله ، وغيروا دينه ، وقتلوا أنبياءه ، فسلط عليهم الأعداء مرة بعد أخرى ، فجاسوا خلال ديارهم ، وتبّروا ماعلوا تتبيراً ، وفى كل ذلك يبعث الله فيهم الأنبياء ، يجددون لهم مادرس من الدين ، ويقيمون ماغيروا ، إلى أن كان آخر أنبيائهم عبد الله ورسوله ، وكلمته عيسى ابن مريم عليهما السلام ، فجدد لهم الدين ، وبيّن معالمه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده . والتبرى من الأحداث والآراء الباطلة ، فعادوه وكذبوه ، ورموه بالعظائم ، وراموا قتله وصلبه ، فطهره الله ورفعه إليه ، فلم يصلوا إليه بسوء ، كما سيأتى تفصيل القصة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فلما رفع تفرق أتباعه بعده شيعاً ، فمنهم من آمن بما بعثه الله به ، وأنه عبد الله ورسوله وابن أمته ، ومنهم من غلا فيه ، وتجاوز به حد العبودية إلى منزلة الربوبية والإلـٰهية ، وقد حكى الله عنهم فى كتابه ثلاث مقالات من الكفر ، فقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ وقد اختلف العلماء فى هذه المقالات الثلاث التى ذكرها الله عن النصارى ، هل هى مقالات لثلاث طوائف منهم ، أو أنها مقالة لجميعهم ، أعنى كفرت النصارى على قولين ، والتحقيق الثانى ، كما سيأتى إيضاحه إن شاء الله .

واعلم أن النصارى من أجهل الناس بالعلم الصحيح ، وأضلهم فى أصول دينهم وفروعه ، وهم ـ وإن ادعوا أنهم على دين عيسى عليه السلام ، وأنهم أتباعه ، وعلى شريعته ـ فقد كذبوا وضلوا ضلالا بعيداً ، بل بدلوا دين عيسى وغيروه ، ولم يبق بأيديهم منه شىء ، وإنما اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل .

وسنذكر بعون الله ماذكر علماؤنا الذين هم أهل العلم الصحيح ، والعقل الرجيح ، والتميز بين صحيح النقل وسقيمه ، ومقبوله ومردوده ، مانقل إليهم من أمر هذه الأمة الضالة فى ابتداء أمرها ، ووصل إليهم علمه من ثقات المخبرين من مؤرخى أهل الكتاب وغيرهم ، ممن له تمام المعرفة بأيامهم واجتماعهم وافتراقهم ، ونبدأ بذكر حديث فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم تيمناً وتبركا .

قال الإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى : حدثنا إسحاق بن أبى حمزة أبو يعقوب الرازى ، قال : حدثنا السرى بن عبد ربه حدثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ابن مسعود ، قلت : لبيك يارسول الله ، قال : علمت أن بنى إسرائيل تفرقوا على اثنين وسبعين فرقة ، لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ، ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة ، فقتلت ، وصبرت ، ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة ، تدعو إلى دين الله ، ودين عيسى ابن مريم ، فقتلت وقطعت بالمناشير ، وحرقت بالنيران ، فصبرت ، ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال ، ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال ، فتعبدت وترهبت ، وهم الذين ذكرهم الله عز وجل بقوله : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ » ورواه ابن جرير ، وأبو يعلى من طريق أخرى .

وقال ابن كثير : روى عن قتادة قال : « اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم ، فامتروا فى عيسى حين رفع ، فقال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية ، فقال الثلاثة : كذبت ، ثم قال اثنان منهم للثالث : قل أنت فيه ، قال : هو ابن الله ، وهم النسطورية ، فقال الاثنان : كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه ، قال : هو ثالث ثلاثة : الله إلـه ، وهو إلـه ، وأمه إلـه ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى ،

فقال الرابع : كذبت ، هو عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل أتباع على ماقالوا ، فاقتتلوا ، فظهروا على المسلمين ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ قال قتادة : وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، وروى عن ابن عباس ، وعن عروة ابن الزبير عن بعض أهل العلم قريب من ذلك ، قال ابن كثير ، بعد أن ذكر مقالاتهم الثلاث : فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة ، ثم نبغ فيهم ملك من ملوك اليونان يقال له : قسطنطين ، فدخل فى دين النصرانية ، قيل : حيلة ليفسده ، فانه كان فيلسوفا ، وقيل : جهلا منه ، إلا أنه بدل دين المسيح وحرفه ، وزاد فيه ، ونقص ، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة ، بل هى الخيانة الحقيرة ، وصلوا له إلى المشرق ، وصور لهم الصور ، وبنى لهم الكنائس والمعابد والصوامع ، وزاد فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه ، فيما يزعمون ، وصار دين المسيح دين قسطنطين ، لأنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ، مايزيد على اثنى عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه ، وتبعه طائفة الملكية منهم .

وأخرج النسائى فى "سننه" وابن جرير فى "تفسيره" عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : «كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل ، وكان بينهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل ، فقيل لملوكهم : مانجد شتما أشد من شتم يشتمونا هؤلاء أنهم يقرأون ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ مع مايعيبونا به فى أعمالنا

فى قراءتهم ، فادعهم ، فليقرأوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما نؤمن ، فدعاهم فعرض عليهم القتل ، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل ، إلا ما بدلوا فيها ، فقالوا : ماتريدون إلى ذلك ، دعونا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانا ، ثم ارفعونا إليها ، ثم اعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ، ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة منهم : دعونا نسيح فى الأرض ، ونهيم ، ونشرب كما يشرب الوحش ، فان قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دوراً فى الفيافى ، ونحتفر الآبار ، ونحترث البقول ، ولا نرد عليكم ، ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا وله فيهم حميم . ففعلوا ذلك ، فأنزل الله ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ﴾ والآخرون قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، وهم على شركهم لاعلم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته ، وجاء رجل من سياحته ، وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ يعنى أجرين بإيمانهم بعيسى ، وبالتوراة والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقهم ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ الذين يتشبهون بكم ﴿ أن لا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ » .

وقد ذكر الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن القيم طرفا من شرح هذه الجملة ، وأن دين المسيح تناسخ واضمحل ، قال : ولم يبق بأيدى النصارى منه شىء ، بل ركبوا ديناً بين دين المسيح ، ودين الفلاسفة عباد الأصنام ، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوا فى النصرانية ، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة ، إلى الصور التى لا أصل لها ، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ، ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل ، إلى القول باتحاد الآب والابن وروح القدس . هذا ، ومعهم بقايا من دين المسيح ، كالختان ، والاغتسال من الجنابة ، وتعظيم السبت ، وتحريم الخنزير ، وتحريم ماحرمته التوراة ، إلا ما أحل لهم بنصّ الإنجيل ، ثم تناسخت الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير ، وأحلوا السبت ، وعوضوا منه يوم الأحد ، وتركوا الختان ، والاغتسال من الجنابة ، وكان المسيح يصلى إلى بيت المقدس ، فصلَّوْا هم إلى المشرق ، ولم يعظم المسيح صليباً قط ، فعظموا هم الصليب وعبدوه ، ولم يصم المسيح صومهم هذا أبداً ، ولا شرعه ، ولا أمر به ألبتة ، بل هم وضعوه على العدد ، ونقلوه إلى زمن الربيع ، فجعلوا مازادوا فيه من العدد عوضاً عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية ، وتعبدوا بالنجاسات ، وكان المسيح فى غاية الطهارة والطيب والنظافة ، وأبعد الخلق عن النجاسة ، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ، ومراغمتهم ، فغيروا دين المسيح ، وتقربوا إلى الفلاسفة عباد الأصنام ، بأن وافقوهم فى بعض الأمر ليرضوهم به ، وليستنصروا بذلك على اليهود .

ولما أخذ دين المسيح فى التغير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعاً ، ثم تفرقوا على الاختلاف والتلاعن ، يلعن بعضهم بعضاً ، حتى قال فيهم بعض العقلاء : لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون فى حقيقة ماهم عليه لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً ، حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك من الجزائر والبلاد ، وسائر الأقطار ، فجمع كل بَتْرَكٍ وأسقف ، وعالم ، فاختار منهم ثلاثمائة وثمانية عشر ، فقال : أنتم اليوم علماء النصرانية ، وأكابر النصارى ، فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية ، ومن خالفه لعنتموه وحرمتموه ، فقاموا وقعدوا ، وفكروا وقدروا ، واتفقوا على وضع الأمانة التى بأيديهم اليوم ، وذلك سنة خمس عشرة ، من ملك قسطنطين .

وكان سبب ذلك أن بَطريق الأسكندرية منع أريوس من دخول الكنيسة ولعنه ، فخرج أريوس إلى قسطنطين الملك مستعدياً عليه ، ومعه أسقفان ، فشكوه إليه ، وطلبوا منه مناظرته بين يدى الملك ، فاستحضره الملك ، وقال لأريوس : إشرح مقالتك ، فقال أريوس : أقر أن الأب كان إذ لم يكن الابن ، فكان كلمة له ، إلا أنه محدث مخلوق ، ثم فوض الأمر إلى ذلك الابن المسمى كلمة ، فكان هو خالق السموات والأرض ومابينهما ، كما قال فى إنجيله ، إذ يقول : وهب لى سلطاناً على السماء والأرض ، فكان هو الخالق لها بما أعطى من ذلك ، ثم إن تلك الكلمة بعد اتحدت من مريم العذراء ، ومن روح القدس ، فصار ذلك مسيحاً واحداً ، فالمسيح الآن معنيان : كلمة ، وجسد ، إلا أنهما جميعاً مخلوقان ،

فقال بطريق الأسكندرية : خبرنا أيما أوجب علينا عندك : عبادة من خلقنا ، أوعبادة من لم يخلقنا ؟ فقال أريوس : بل عبادة من خلقنا ، فقال : فعبادة الابن الذى خلقنا ، وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذى هو ليس بمخلوق ، بل تصير عبادة الأب الخالق كفراً ، وعبادة الابن إيماناً . فاستحسن الملك والحاضرون مقالته ، وأمرهم الملك أن يلعنوا أريوس ، ومن يقول بمقالته ، فلما انتصر البطريق ، قال للملك : استحضر البطارقة والأساقفة . حتى يكون لنا مجمع ، ونضع قصة نشرح فيها الدين ، ونوضحه للناس ، فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق ، فاجتمع عنده بعد سنة وشهرين ألفاً وثمانية وأربعون أسقفاً ، وكانوا مختلفى الآراء ، متباينين فى أديانهم ، فلما اجتمعوا كثر اللغط بينهم ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الاختلاف ، فتعجب الملك من شدة اختلافهم ، فأجرى عليهم الأنزال ، وأمرهم أن يتناظروا حتى يعلم الدين الصحيح مع من منهم . فطالت المناظرة بينهم ، فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً على رأى واحد ، فناظروا بقية الأساقفة ، وظهروا عليهم ، فعقد الملك لهؤلاء الثلاثمائة مجلساً خاصاً ، وجلس فى وسطه ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه ودفعه إليهم ، وقال لهم : قد سلطتكم على المملكة ، فاصنعوا مابدا لكم مما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم ، فباركوا عليه ، وقلدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذب عنه ، ودفعوا إليه الأمانة التى اتفقوا على وضعها . فلا يكون عندهم نصرانياً من لم يقرّ بها ، ولا يتم له قربان إلا بها . وهى هذه : " نؤمن بالله الواحد الأب ، خالق كل شىء ، صانع

مايرى ، وما لايرى ، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابنه الأحد ، بكر الخلائق كلها ، الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها ، وليس بمصنوع ، إلٰـه حق ، من إلٰـه حق ، من جوهر أبيه ، وهو الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شىء ، الذى من أجلنا معشر الناس ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً ، وحمل به ، ثم ولد من مريم البتول ، وأُلم ، وشجَّ ، وقتل ، وصلب ، ودفن ، وقام فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ؛ ونؤمن بروح القدس الواحد ، روح الحق الصادر من الأب ، والابن ، الذى يتكلم على ألسنة الأنبياء ، وبمعمودية واحدة ، لمغفرة الخطايا ، وبكنيسة واحدة جامعة رسولية ، وبقيامة أبداننا ، والحياة الدائمة إلى أبد الآبدين [1] " .

فهذا هو العقد الذى أجمع عليه الملكية والنسطورية واليعقوبية ، وهذه الأمانة هى الأمانة التى ألفها أولئك البتاركة والأساقفة والعلماء ، وجعلوها شعار النصرانية .

وكان رؤساء هذا المجمع : بَترك الأسكندرية ، وبَترك أنطاكية ، وبَترك بيت المقدس ، فافترقوا عليها ، وعلى لعن من خالفها ، والتبرى منه وتكفيره ، ثم ذهب أريوس يدعو إلى مقالته ، وينفر النصارى عن أولئك الثلاثمائة ، فجمع جمعاً عظيما ، وصار إلى بيت المقدس ، وخالف

(١) فى " إغاثة اللهفان " لابن القيم ، الذى نقل منه المؤلف هذا " ونؤمن بروح القدس الواحد ، روح الحق الذى يخرج من أبيه ، روح محبته ، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا . وبجماعة واحده قديسية ، جاثليقية ، وبقيامة أبداننا الخ"

بكثير من النصارى لأولئك المجمع ، فلما اجتمعوا قال أريوس : إن أولئك النفر تعدوا علىّ وظلمونى ، ولم ينصفونى فى الحجاج . وحرمونى ظلماً وعدواناً ، فوافقه كثير من الذين معه ، وقالوا : صدق . فوثبوا عليه فضربوه حتى كاد أن يقتل ، لولا أن ابن أخت الملك خلصه . وافترقوا على هذه الحال .

ثم كان لهم مجمع ثالث ، بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الأول ، اجتمع الوزراء والقواد إلى الملك ، وقالوا : إن مقالة الناس قد فسدت . وغلب عليهم مقالة أريوس ، فاكتب إلى جميع البتاركة والأساقفة . أن يجتمعوا ، ويوضحوا دين النصرانية ، فكتب الملك إلى سائر بلاده ، فاجتمع بقسطنطينية خمسمائة[1] وخمسون أسقفاً ، وكان مقدموهم بترك الأسكندرية ، وبترك أنطاكية ، وبترك بيت المقدس . فنظروا فى مقالة أريوس ، وكان من مقالته : أن روح القدس مخلوق مصنوع ، ليس بإلـٰه ، وليس روح الله ، فقال بترك الأسكندرية : ليس لروح القدس عندنا معنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئاً غير حياته ، فان قلنا : إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن روح الله مخلوقة ، وإذا قلنا : إن روح الله مخلوقة ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة ، فقد جعلناه غير حىّ ، ومن جعله غير حىّ ، فقد كفر ، ومن كفر فقد وجب عليه اللعن ، فلعنوا بأجمعهم أريوس وأشياخه وأتباعه ، والبتاركة الذين قالوا بمقالته ، وبينوا أن روح القدس خالق غير مخلوق ، إلـٰه حق من طبيعة الأب والابن ، جوهر واحد ،

---

(١) فى إغاثة اللهفان " مائة وخمسون "

وطبيعة واحدة ، وزادوا فى الأمانة التى وضعتها الثلاثمائة وثمانية عشر ، "ونؤمن بروح القدس الرب المحي، الصادر من الأب والابن ، الذى يمجد ويعبد مع الابن والأب" وكان فى الأمانة الأولى "بروح القدس" فقط ، وبينوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاث خواص ، وحدة فى تثليث وتثليث فى وحدة ، وزادوا ونقصوا فى الشريعة ، وأطلق بترك الأسكندرية للرهبان والأساقفة والبتاركة أكل اللحم ، وكانوا على مذهب "مانى" لايرون أكل ذوات الأرواح ، فانفض هذا المجمع ، وقد لعنوا فيه أكثر أساقفتهم وبتاركتهم ، ومضوا على تلك الأمانة.

ثم كان لهم مجمع رابع بعد إحدى وخمسين سنة من هذا المجمع على نسطورس ، وكان مذهبه : أن مريم ليست بوالدة الإله على الحقيقة ، ولكن ثمة اثنان : الإله الذى هو موجود من الأب ، والآخر إنسان الذى هو موجود من مريم ، وأن هذا الإنسان الذى نقول : إنه المسيح متوحد مع أب الإله ، وابن الإله ليس ابناً على الحقيقة ، ولكن على سبيل الموهبة والكرامة واتفاق الاسمين ، فبلغ ذلك بتاركة سائر البلاد ، فجرت بينهم مراسلات ، واتفقوا على تخطئته ، واجتمع منهم مائتا أسقف فى مدينة أفسيس ، وأرسلوا إلى نسطورس للمناظرة ، فامتنع ثلاث مرات ، فأوجبوا عليه الكفر ولعنوه ونفوه وحرموه ، وثبتوا أن مريم ولدت إلهاً ، وأن المسيح إله حق ، وإنسان معروف بطبيعتين ، متوحد فى الأقنوم . فلما لعنوا نسطورس غضب له بترك أنطاكية ، فجمع أساقفته الذين قدموا معه ، وناظرهم ، فقطعهم ، فتقاتلوا ، ووقع الحرب والشر بينهم ،

وتفاقم أمرهم ، فلم يزل الملك حتى أصلح بينهم ، فكتب أولئك صحيفة : بأن مريم القديسة ولدت إلٰهاً ، وهو ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة ، ومع الناس فى الناسوت ، وأنفذوا العن نسطورس . فلمانفى نسطورس سار إلى أرض مصر ، وأقام بأخميم سبع سنين ومات بها ، ودرست مقالته ، إلى أن أحياها ابن صرما مطران نصيبين ، وبثها فى بلاد المشرق ، فأكثر نصارى العراق والمشرق نسطورية ، وانفض ذلك المجمع أيضاً على لعن نسطورس ، ومن قال بقوله ، وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضلال ، وتفترق على اللعن ، فلا ينفض المجمع إلا وهم بين لاعن وملعون .

ثم كان لهم مجمع خامس ، وذلك أنه كان بقسطنطينية طبيب راهب ، يقال له : أطيسوس ، يقول : إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا فى الطبيعة ، وأن للمسيح قبل التجسد طبيعتين ، وبعد التجسد طبيعة واحدة ، وهذه مقالة اليعقوبية ، فرحل إليه أسقف دولته ، فناظره ، فقطعه ، ودحض حجته ، ثم صار إلى قسطنطينية فأخبر بتركها بالمناظرة وبانقطاعه ، فأرسل بترك الأسكندرية إليه ، فاستحضره ، وجمع جمعاً عظيما وسأله عن قوله ، فقال : إن قلنا : إن المسيح طبيعتان ، فقد قلنا بقول نسطورس ، ولكنا نقول : إن المسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحد ، لأنه من طبيعتين كانتا قبل التجسد ، فلما تجسد زالت الاثنينية ، وصار طبيعة واحدة ، وأقنوماً واحداً ، فقال له بترك القسطنطينية : إن كان المسيح طبيعة واحدة ، فالطبيعة القديمة هى الطبيعة المحدثة ، وإن كان القديم هو المحدث ، فالذى لم يزل هو الذى لم يكن ، ولو جاز أن يكون القديم هو

المحدث لكان القائم هو القاعد ، والحار هو البارد ، فأبى أن يرجع عن مقالته، فلعنوه، فاستعدى إلى الملك، وزعم أنهم ظلموه، وسأله أن يكتب إلى جميع البتاركة للمناظرة . فاستحضر الملك البتاركة والأساقفة من سائر البلاد إلى مدينة أفسيس ، فثبت بطريق الأسكندرية مقالة أوطيسوس ، وقطع بتاركة الأسكندرية ، وأنطاكية ، وبيت المقدس، وسائر البتاركة والأساقفة . وكتب إلى بترك رومية ، وإلى جميع البتاركة والأساقفة ، لحرمهم ومنعهم من القربان إن لم يقبلوا مقالة أوطيسوس، ففسدت الأمانة، وصارت المقالة مقالة أوطيسوس، وخاصة فى مصر والأسكندرية، وهو مذهب اليعقوبية، فافترق هذا المجمع الخامس ، وهم بين لاعن وملعون ، وضال ومضل، وقائل يقول : الصواب مع اللاعنين ، وقائل يقول : الحق مع الملعونين .

ثم كان لهم بعد ذلك مجمع سادس فى دولة مرقيون ، فانه اجتمع إليه الأساقفة من سائر البلاد ، فأعلموه ما كان من ظلم ذلك المجمع ، وقلة الإنصاف ، وأن مقالة أوطيسوس قد غلبت على الناس ، وأفسدت دين النصرانية . فأمر الملك باستحضار سائر البطارقة والأساقفة إلى حضرته ، فاجتمع عنده ستمائة وثلاثون أسقفاً . فنظروا فى مقالة أوطيسوس ، وبترك الأسكندرية ، التى قطعا بها جميع البتاركة . فأفسدوا مقالتيهما ، ولعنوهما . وأثبتوا أن المسيح إلـه وإنسان ، فهو مع الله فى اللاهوت ، ومعنا فى الناسوت . له طبيعتان تامتان ، فهو تام باللاهوت ، تام بالناسوت ، وهو مسيح واحد . وثبتوا أقوال الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، وقبلوا قولهم بأن الابن مع الله فى المكان ، وأنه إلـه حق من إلـه حق . ولعنوا أريوس ،

وقالوا : إن روح القدس إلـٰه ، وقالوا : إن الآب والابن وروح القدس واحد ، بطبيعة واحدة ، وأقانيم ثلاثة ، وثبتوا أقوال أهل المجمع الثالث ، وقالوا : إن مريم العذراء ولدت إلـٰهاً ربنا يسوع المسيح الذى هو مع الله فى الطبيعة ، ومعنا فى الناسوت ، وقالوا : إن المسيح طبيعتان ، وأقنوم واحد ، ولعنوا نسطورس ، وبترك الأسكندرية ، فانفض هذا المجمع وهم بين لاعن ، وملعون .

ثم كان لهم بعد هذا مجمع سابع فى أيام أنسطاس الملك ، وذلك أن سورس القسطنطينى جاء إلى الملك ، فقال : إن أصحاب ذلك المجمع الستمائة والثلاثين أخطأوا ، والصواب ما قاله أوطيسوس ، وبترك الأسكندرية ، فلا تقبل ممن سواهما ، واكتب إلى جميع بلادك أن يلعنوا الستمائة والثلاثين ، وأن يأخذوا الناس بطبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة ، وأقنوم واحد ، فأجابه الملك إلى ذلك ، فلما بلغ ذلك بترك بيت المقدس جمع الرهبان ، فلعنوا أنسطاس الملك ، وسورس ، ومن يقول بمقالتهما ، فبلغ ذلك الملك ، فغضب ، وبعث فنفى البترك إلى أيلة ، وبعث يوحنا بتركا على بيت المقدس ، لأنه كان قد ضمن للملك أن يلعن الستمائة والثلاثين ، فلما قدم إلى بيت المقدس اجتمع الرهبان ، وقالوا : إياك أن تقبل عن سورس ، ولكن اقبل عن الستمائة والثلاثين ، ونحن معك ، ففعل ، وخالف الملك ، فلما بلغه أرسل قائداً ، وأمره أن يأخذ يوحنا بلعنة أولئك ، فان لم يفعل أنزله عن الكرسى ونفاه ، فقدم القائد ، وطرح يوحنا فى الحبس ، فصار إليه الرهبان فى الحبس ، وأشاروا عليه بأن يضمن للقائد أن يفعل ذلك .

فاذا حضر فليقر بلعنة كل من لعنه الرهبان ، فاجتمع الرهبان ، فكانوا عشرة آلاف راهب ، فلعنوا أوطيسوس ونسطورس وسورس ، ومن لا يقبل من أولئك الستمائة والثلاثين ، ففزع رسول الملك من الرهبان ، وبلغ ذلك الملك ، فهمّ بنفى يوحنا ، فاجتمع الرهبان والأساقفة ، فكتبوا إلى الملك أنهم لا يقبلون مقالة سورس ، ولو أريقت دماؤهم ، وسألوه أن يكف أذاه عنهم ، وكتب بترك رومية إلى الملك يقبح فعله ، ويلعنه ، فانفض هذا المجمع على اللعنة أيضاً .

وكان لسورس تلميذ يقال له : يعقوب البراذعى ، لأنه كان يلبس من قطع براذع الدواب ويرقع بعضها ببعض ، وإليه تنسب اليعاقبة ، فأفسد أمانة القوم ، ثم هلك أنسطاس ، فولى بعده قسطنطين ، فرد كل من نفاه أنسطاس إلى موضعه ، وكتب إلى بيت المقدس بأمانته ، فاجتمع الرهبان وأظهروا كتابه ، وفرحوا به ، وأثبتوا قول الستمائة وثلاثين أسقفاً ، وغلبت اليعقوبية على الأسكندرية ، وقتلوا بتركا لهم يقال له : بولس ، وكان ملكانياً ، فولى الملك أسطيانوس ، فأرسل قائداً ، ومعه عسكر عظيم إلى الأسكندرية ، فدخل الكنيسة فى ثياب البترك ، وتقدم وقدس ، فرموه بالحجارة حتى كادوا يقتلونه ، فانصرف وتوارى عنهم ، ثم ظهر لهم بعد ثلاثة أيام ، وأظهر لهم أنه أتاه كتاب الملك ، وأمر الحرس أن يجمعوا الناس لسماعه ، فلم يبق أحد بالأسكندرية إلا حضر لسماعه ، وكان قد جعل بينه وبين جنده علامة إذا هو فعلها وضعوا السيوف فى الناس ، فصعد المنبر ، وقال : يا أهل الأسكندرية إن رجعتم إلى الحق ، وتركتم مقالة اليعاقبة ، وإلا لم تأمنوا أن يوجه الملك إليكم من يسفك دماءكم ،

فرموه بالحجارة حتى خاف على نفسه ، فأظهر العلامة ، فوضعوا السيوف على من بالكنيسة ، فقتل خلق لا يحصيهم إلا الله ، حتى خاض الجند فى الدماء وظهرت مقالة الملكانية بالاسكندرية .

ثم كان لهم بعد ذلك مجمع ثامن ، وذلك أن أسقف مَنْبِج كان يقول بالتناسخ ، وأنه ليس ثَمّ قيامة ولا بعث ، وكان أسقف الرّها ، وأسقف المصّيصة ، وأسقف ثالث يقولون : إن جسد المسيح خيال غير حقيقة ، فحشرهم الملك إلى قسطنطينية ، فقال لهم بتركها : إن كان جسده خيالا ، فيجب أن يكون فعله خيالا ، وقوله خيالا ، وكل جسد نعاينه لأحد من الناس أو فعل أو قول فهو كذلك ، وقال له : إن المسيح قد قام من الأموات ، وعلمنا أنه كذلك يقوم الناس يوم الدين ، واحتج بنصوص من الإنجيل ، كقوله : إن كل من فى القبور ، إذا سمعوا قول الله سبحانه يحيون ، فأوجب عليه اللعن ، وأمر الملك أن يكون لهم مجمع يلعنون فيه ، واستحضر بتاركة البلاد ، فاجتمع عنده مائة وأربعة وستون أسقفاً ، فلعنوا أسقف منبج وأسقف المصيصة ، وأثبتوا على أن جسد المسيح حقيقة لا خيال ، وأنه إلٰه تام ، وإنسان تام ، معروف بطبيعتين ، ومشيئتين ، وفعلين ، أقنوم واحد ، وأن الدنيا زائلة ، وأن القيامة كائنة ، وأن المسيح يأتى بمجد عظيم ، فيدين الأحياء والأموات ، كما قال الثلاثمائة وثمانية عشر الأوائل ، فتفرقوا على ذلك .

ثم كان لهم مجمع تاسع على عهد معاوية بن أبى سفيان ، تلاعنوا فيه ، وذلك أنه كان برومية راهب له تلميذان ، فجاء إلى قسطا الوالى ، فوبخه

على قبح مذهبه ، وشناعة كفره ، فأمر به قسطا ، فقطعت يداه ورجلاه ونزع لسانه ، وفعل بأحد التلميذين كذلك ، وضرب الآخر بالسياط ، ونفاه ، فبلغ ذلك ملك قسطنطينية ، فأرسل إليه أن يوجه إليه من أفاضل الأساقفة ليعلم وجه هذه الشبهة ، وما كان ابتداؤها ، ويعلم من يستحق اللعن ، فبعث إليه مائة وأربعين أسقفاً وثلاثمائة شماس ، فلما وصلوا إليه جمع الملك مائة وثمانية وخمسين أسقفاً ، فصاروا مائتين وثمانية وتسعين ، وأسقطوا الشمامسة ، وكان رئيس هذا المجمع بترك قسطنطينية ، وبترك أنطاكية ، فلعنوا من تقدم من القسيسين والبتاركة واحداً واحداً ، وجلسوا ، فلخصوا الأمانة ، وزادوا فيها ، ونقصوا ، فقالوا : " نؤمن أن الواحد من الناسوت الابن الوحيد الذى هو الكلمة الأزلية الدائم ، المستوى مع الأب الإلـه فى الجوهر ، الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين ، وفعلين ومشيئتين ، فى أقنوم واحد ، ووجه واحد ، تاما بلاهوته ، تاما بناسوته ، وشهدت بأن الإلـه الابن فى آخر الأيام اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة ، جسداً إنسانا ، بنفس ناطقة عقلية ، وذلك برحمة الله تعالى محب البشر ، ولم يلحقه اختلاط ، ولا فساد ، ولا فرقة ، ولا فصل ، ولكن هو واحد يعمل بما يشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته ، وما يشبه الإلـه أن يعمله فى طبيعته ، الذى هو الابن الوحيد ، والكلمة الأزلية المتجسدة التى صارت فى الحقيقة لحماً ، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن ينتقل من مجده ، أزلى ، وليست بمتغيرة ، ولكنها بفعلين ومشيئتين وطبيعتين : إلـهى ، وإنسى ، الذى بهما يكمل قول الحق ،

وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبها مشيئتين غير متضادتين ، ولا متصارعتين . ولكن مع المشيئة الإنسية ، المشيئة الإلٰهية القادرة على كل شيء " .

هذه أمانة هذا المجمع ، فوضعوها . ولعنوا من لعنود ، وبين المجمع الخامس الذى اجتمع فيه الستمائة والثلاثون ، وبين هذا المجمع مائه سنه .

ثم كان لهم مجمع عاشر ، وذلك لما مات الملك ، وولى ابنه بعده فاجتمع أهل المجمع السادس ، وزعموا أن اجتماعهم كان على الباطل . فجمع الملك مائة وثلاثين أسقفاً ، فثبتوا قول أهل المجامع الخمسة ، ولعنوا من لعنهم وخالفهم ، وانصرفوا بين لاعن وملعون .

فهذه عشرة مجامع كبار من مجامعهم ، مشهورة اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفاً من البتاركة والأساقفة والرهبان ، كلهم مابين لاعن وملعون .

فهذه حال المتقدمين ، مع قرب زمانهم من أيام المسيح ، ووجود أخباره فيهم ، والدولة دولتهم ، والكلمة كلمتهم ، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ماكانوا ، واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى ، وهم حيارى تائهون ضالون مضلون ، لايثبت لهم قدم ، ولا يستقرلهم قول فى إلٰههم ، بل كل منهم قد اتخذ إلٰهه هواه ، وصرح بالكفر والتبرى ممن اتبع سواه ، قد تفرقت بهم فى نبيهم وإلٰههم الأقاويل ، وهم كما قال الله تعالى : ﴿ قد ضلوا من قبل . وأضلوا كثيراً . وضلوا عن سواء السبيل ﴾ فلو سألت أهل البيت عن دينهم ومعتقدهم فى ربهم ونبيهم ، لأجابك الرجل

بجواب، وامرأته بجواب، وابنه بجواب، والخادم بجواب، فما ظنك بمن فى عصرنا هذا؟ وهم نخالة الماضين، وزبالة الغابرين، وثفالة المتحيرين، وقد طال عليهم الأمد، وبعد عهدهم بالمسيح ودينه، وهؤلاء هم الذين أوجبوا لأعداء الرسل من الفلاسفة والملاحدة أن يتمسكوا بما هم عليه، فانهم شرحوا لهم دينهم الذى جاء به المسيح على هذا الوجه.

ولا ريب أن هذا دين لايقبله عاقل، فتواصى أولئك بينهم أن يتمسكوا بما هم عليه، وساءت ظنونهم بالكتب والرسل، ورأوا أن ماهم عليه من الآراء أقرب إلى العقول من هذا الدين، وقال لهم هؤلاء الحيارى الضلال: إن هذا هو الحق الذى جاء به المسيح، فتركب من هذين الظنين الفاسدين إساءة الظن بالرسل، وإحسان الظن بما هم عليه.

قلت: وهذا القدر قد اعترف به النصرانى فى هذا الفصل الذى نتكلم عليه، حيث ذكر ماوقع من الاختلاف بين الأساقفة، وأن ذلك صار سبب وقوع عامة الناس فى الحيرة، حتى لايدرون مايختارون لأنفسهم، وينفرون عن الكتب المقدسة، كأنها سم زعاف.

ومعلوم أنه لايمكنه أن يدعى أن النصارى صلحوا بعد أولئك الذين وصفهم من أسلافهم الضلال التائهين، بل دينهم الذى هم عليه الآن هو دين أولئك الحيارى، بل إنهم زادوا عليهم بالضلال الكثير، واتبعوا أهواءهم، وجادلوا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فقد سجلوا على أنفسهم بمخالفة كتب الله، واعترفوا بذنبهم، فسحقاً لأصحاب السعير.

والمقصود : أنهم كما خالفوا فى دينهم منهج الرسل ، فقد عاندوا أيضاً صريح العقل ، قال ابن القيم : ولهذا قال بعض ملوك الهند ، وقد ذكرت له الملل الثلاث ، فقال : أما النصارى ، فان كان محاربوهم من أهل الملل يحاربونهم بحكم شرعى ، فانى أرى ذلك بحكم عقلى : وإن كنا لانرى بحكم عقولنا قتالا ، ولكن استثنى هؤلاء القوم من بين جميع العوالم ، لأنهم قصدوا مضادة العقل ، وناصبوه العداوة ، وحلوا ببيت الاستحالات وحادوا عن المسلك الذى انتهجه غيرهم من أهل الشرائع ، فشذوا عن جميع مناهج العالم الصالحة ، العقلية والشرعية واعتقدوا كل مستحيل ممكناً ، وبنوا على ذلك شريعة لاتؤدى ألبتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم ، إلا أنها تصير العاقل إذا تشرع بها أخرق ، والرشيد سفيهاً ، والمحسن مسيئاً ، لأن من كان أصل عقيدته التى نشأ عليها الإساءة إلى الخالق ، والنيل منه ، ووصفه بضد صفاته الحسنى ، فأخلق به أن يستسهل الإساءة إلى المخلوق ، مع مابلغنا عنهم من الجهل وضعف العقل ، وقلة الحياء ، وخساسة الهمة ، هذا ، وقد ظهر له من باطلهم وضلالهم غيض من فيض ، وكانوا إذ ذاك أقرب عهداً بالنبوة . قال أفلاطون ـ رئيس سدنة الهياكل بمصر ، وليس بأفلاطون تلميذ سقراط ، ذاك أقدم من هذا ـ : لما ظهر محمد بتهامة ، ورأينا أمره يعلو على الأمم المجاورة له ، رأينا أن نقصد أسقطر البابلى [١] ، لنعلم ماعنده ، ونأخذ برأيه . فلما اجتمعنا على الخروج من مصر ، رأينا أن نصير إلى أقراطيس معلمنا وحكيمنا لنودعه ، فلما دخلنا عليه ، ورأى

---

(١) فى إغاثة اللهفان "اصطمر" وفى نسخة منها "اصطفر"

جمعنا أيقن أن الهياكل قد خلت منا ، فغشى عليه حيناً غشية ظننا أنه فارق الحياة فيها ، فبكينا ، فأومأ إلينا أن كفوا عن البكاء ، فتصبرنا جهدنا حتى هدأ وفتح عينيه ، فقال : هذا ما كنت أنهاكم عنه ، وأحذركم منه ، إنكم قوم غيرتم فغير بكم ، أطعتم جهالا من ملوككم فخلطوا عليكم فى الأدعية ، فقصدتم البشر من التعظيم بما هو للخالق وحده ، فكنتم فى ذلك كمن أعطى القلم مدح الكاتب . وإنما حركة القلم بالكاتب .

ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين ، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة . أحدهما : الغلو فى المخلوق ، حتى جعلوه شريكا للخالق ، وجزءا منه ، إلـٰهاً آخر معه ، ونفوا أن يكون عبداً له ، والثانى : تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم ، حيث زعموا أن الله سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً نزل من العرش وكرسى عظمته ، ودخل فى فرج امرأة ، وأقام هناك تسعة أشهر ، يتخبط بين البول والدم والنجو ، قد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن ، ثم خرج من حيث دخل رضيعاً صغيراً ، يمص الثدى ، ولف فى القمط ، وأودع السرير يبكى ويجوع ويعطش ويبول ويتغوط ، ويحمل على الأيدى والعواتق ، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه ، وربطوا يديه ، وبصقوا فى وجهه ، وصفعوا قفاه ، وصلبوه جهراً بين لصين ، وألبسوه إكليلا من الشوك ، وسمروا يديه ورجليه ، وجرعوه أعظم الآلام ؛ هذا ، وهو الإلـٰه الحق الذى بيده أتقنت العوالم ، وهو المعبود المسجود له ، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم ، كما قال تعالى فيما حكاه عنه رسوله الذى ننزهه وننزه أخاه المسيح عن هذا الباطل الذى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق

الأرض وتخر الجبال هداً ، فقال : « شتمنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، وكذبنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، أما شتمه إياى فقوله : اتخذالله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفواً أحد ، وأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذه الأمة : " أهينوهم ولا تظلموهم ، فقد سبوا الله مسبة ماسبه إياها أحد من البشر " .

ولعمر الله إن عباد الأصنام ، مع أنهم أعداء الله على الحقيقة ، وأعداء رسله ، وأشد الكفار كفراً ، يأنفون أن يصفوا آلهتهم التى يعبدونها من دون الله ، وهى من الحجارة والحديد والخشب بمثل ماوصفت هذه الأمة رب العالمين ، وإلـه السموات والأرضين ، وكان الله فى قلوبهم أجل وأعظم من أن يصفوه بذلك أو بما يقاربه ، وإنما شرك القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة محدثة ، زعموا أنها تقربهم إليه زلفى ، لم يجعلوا شيئاً من آلهتهم كفواً له ، ولا نظيراً ، ولا ولداً ، ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة . وعذرهم فى ذلك أقبح من قولهم ، فان أصل معتقدهم أن أرواح الأنبياء كانت فى الجحيم فى سجن إبليس من عهد آدم إلى زمن المسيح ، فكان إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود معذبين مسجونين فى النار ، بسبب خطيئة آدم وأكله من الشجرة ، وكان كلما مات واحد من بنى آدم أخذه إبليس وسجنه بذنب أبيه ، ثم إن الله سبحانه لما أراد رحمتهم وخلاصهم من العذاب تحيل على إبليس بحيلة ، فنزل عن كرسى عظمته ، والتحم ببطن مريم حتى ولد ، وكبر وصار رجلا ، فمكن أعداءه اليهود من نفسه حتى

صلبوه وسمّروه وتوجوه بالشوك على رأسه ، نخلص أنبياءه ورسله ، وفداهم بنفسه ودمه ، فهرق دمه فى مرضاة جميع ولد آدم ، إذ كان ذنبه باقياً فى أعناق جميعهم ، نخلصهم منه بأن مكن أعداءه من صلبه وتسميره وصفعه ، إلا من أنكر صلبه ، أو شك فيه ، وقال : إن الإلـٰه يجل عن ذلك ، فهو فى سجن إبليس معذب حتى يقر بذلك ، وأن إلـٰهه صلب وصفع وسمر ، فنسبوا الإلـٰه الحق سبحانه إلى مايأنف أسقط الناس أن ينسبه إليه مملوكه وعبده ، وإلى مايأنف عباد الأصنام أن تنسب إليه أوثانهم ، وكذبوا الله سبحانه فى كونه تاب على آدم ، وغفر له خطيئته ، ونسبوه إلى أقبح الظلم ، حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه فى الجحيم بسبب خطيئة أبيهم ، ونسبوه إلى غاية العجز ، حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ، ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ، ففعلوا مافعلوا .

وبالجملة فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلـٰهها بما سبه به هذه الأمة ، كما قال عمر : "إنهم سبّوا الله مسبة ماسبه إياها أحد من البشر" وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى نصرانياً أغمض عينه عنه ، وقال : لاأستطيع أملأ عينى ممن سبّ إلـٰهه ومعبوده أقبح السبّ ، ولهذا قال عقلاء الملوك : إن جهاد هؤلاء واجب شرعاً وعقلا ، فانهم عار على بنى آدم ، مفسدون للعقول والشرائع ، انتهى .

وسيأتى شرح مذهبهم فى التثليث فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فصــــل

قال النصرانىّ : والذى آل الأمر إليه أنه قد وجد فى جميع البلاد عدة من المسيحيين اسماً ، وأقل من القليل حقاً وفعلا ، ولكن الله لم يكن يتغافل عن هذه الخطايا فى قومه ، بل من أقصى أطراف ، أفاض كالطوفان جنوداً لاتحصى عدداً إلى بلاد النصارى ، وإذا لم يتعظ الباقون بما لقوا من هؤلاء من القتل والشدائد ، ولم يعودوا للحق أذن بعدله أن يظهر محمد ، ويدعو الناس إلى الشريعة الجديدة ، التى مع أنها مخالفة لدين المسيح مضادة له ، لكنها فى ظاهر الألفاظ كانت تحاكى سيرة كثيرين من النصارى ، وكان أول المدعوين إلى هذه الشريعة العرب الذى على أيديهم فتحت فى مدة يسيرة من الزمان بلاد العرب والشام ومصر وبلاد الفرس ، ثم ملكت المغرب والأندلس أيضاً .

وأما دولة العرب فقد انتقلت إلى غيرهم من الأمم ، وبالخصوص إلى الأتراك الذين هم أمة ذات بأس وقوة فى الحرب ، وهم بعد طول محاربة المسلمين دعوا إلى العهد ، وقبلوا الشريعة الموافقة لأخلاقهم بغير امتناع ، ونقلوا حكم الدولة لأنفسهم ، ثم فتحت على أيديهم بلاد الروم ، وبإقبال سعادتهم فى الحروب وصلوا إلى حدود بلاد النمسا أيضاً .

ونقول ، وبالله التوفيق : إن ماذكره من قلة الدين قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم دليل ظاهر وحجة واضحة وبرهان قاطع على نبوته وصحة رسالته ، كما أشرنا إليه فيما تقدم ، وذلك أن سنة الله قد مضت بمقتضى حكمته ، وموجب رحمته أن يرسل رسله إلى الناس فى أوقات

فترات الرسالة ، وإعراض الناس عما جاءت به الرسل ، إعذاراً منه تعالى إلى الخلق ، ورحمة بمن أراد به خيراً .

فلما كانت الشرائع قد اندرست قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لتقادم عهدها . وطول زمانها ، واختلط بسبب ذلك الحق بالباطل ، والهدى بالضلال ، والصدق بالكذب ، وصار ذلك سبباً لإعراض الخلق عن العبادات ، وأن يقولوا : يا إلٰهنا قد عرفنا أنه لابد من عبادتك ، ولكننا لانعرف كيف عبادتك ، فلا بد أن يزيح الله عذرهم ببعثة الرسول إليهم ، ولهذا قال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير﴾ فخاطب سبحانه أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى هذه الآية بأنه بعث إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم على حين فترة من الرسل ، ودروس من السبل ، وتغير الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان ، والنيران والصلبان ، فكانت النعمة به أتم ، والحاجة إليه أعم ، فان الفساد قد عم البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد ، إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أحبار اليهود ، وعباد النصارى والصابئين .

وقد أخرج الإمام أحمد فى "مسنده" ، ومسلم فى "صحيحه" ، والنسائى فى "سننه" من غير وجه عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض ابن حمار المجاشعى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم : فقال فى خطبته : « إن ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل مال أنحلته عبادى حلال ، وأنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ،

وأنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أُنزل به سلطاناً ، وأن الله سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من بنى إسرائيل ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لايغسله الماء ، تقرأه نائماً ويقظاناً ، ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشاً ، فقلت : يارب إذاً يثلغوا رأسى ، فيدعوه خبزة ، فقال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نعزك ، وأنفق ، فسننفق عليك ، وابعث جنداً نبعث خمسة أمثاله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ؛ ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ؛ ورجل عفيف فقير ذو عيال . وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لازبر له ، الذين هم فيكم تبع ، لا يبتغون أهلا ولا مالا ؛ والخائن الذى لايخفى له طمع وإن دق إلا خانه ؛ والرجل لايصبح ولايمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » ؛ وذكر البخل ؛ والكذب ؛ والشنظير الفاحش .

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من بنى إسرائيل » ، وفى لفظ مسلم « إلا بقايا من أهل الكتاب » فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين الذى لانبى بعده ، بل هو المعقب لجميعهم ، فهدى الخلائق ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء ، ولهذا قال تعالى : ﴿أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير﴾ أى بشير بالخير ونذير من الشر ﴿فقد جاءكم بشير ونذير﴾ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿والله على كل شىء قدير﴾ .

فثبت بمقتضى هذه المقدمة التي قررناها، واعترف الخصم بصحة معناها، وهو حصول غربة الدين قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم، حتى عند النصارى الذين هم أقرب الناس عهداً بالكتب والرسل أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانت رحمة من الله لخلقه، هداهم بها بعد الضلالة، وبصّرهم بها من العمى، وأرشدهم بها من الغي، وأخرجهم بها من الظلمات إلى النور، وهذا هو اللائق بحكمته ورحمته، وما مضى فى خلقه من سابق سنته، لا ما يقول أعداؤه الكاذبون عليه، المكذبون رسوله، الزاعمون أنه كاذب عليه، متقوّل على الله ما لم ينزل إليه، فانه لا يليق بحكمة الرب الحكيم، ورحمة الملك القادر الرحيم أن يؤيد من هذا شأنه أعظم التأييد، ويمكّن له فى الأرض غاية التمكين، بل كان اللائق به أن يأخذه، ويجعله نكالا وعبرة للمعتبرين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ فأقام سبحانه فى هذه الآية البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقوّل عليه فيما قاله، وأنه لو تقوّل عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فان كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقوّل عليه وافترى، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب وخلاف الحق. فكيف يليق بأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين أن يقدره على ذلك؟! بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلا: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟!

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه بإقراره وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق ، كدلالة التصديق بالقول أو أظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها ؟! فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق ، كل آية على انفرادها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله ، فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ، ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ، الذى هو شر الخلق على الإطلاق ، فمن جوز ذلك على الله أن يفعل هذا بشر خلقه ، وأكذبهم عليه ، فما آمن بالله قطعاً ، ولا عرف الله وأنه رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة وحجا ، ومن فعل ذلك فقد أزرى على نفسه ، ونادى على جهله . وقد ذكر الإمام أبو عبدالله بن القيم مناظرة جرت له مع بعض علماء أهل الكتاب تتعلق بهذا المقام ، قال : قلت له بعد أن أفضى فى نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قلت له : إنكار نبوته يتضمن القدح فى رب العالمين ، وتنقصه بأقبح التنقص ، فكان الكلام معكم فى الرسول ، والكلام الآن فى تنزيه الرب تعالى ، فقال : كيف تقول مثال هذا الكلام ؟! فقلت له : بيانه علي ، فاسمع الآن ، أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا ، وإنما كان ملكا قاهراً قهر الناس بسيفه حتى دانوا له ، ومكث ثلاثا وعشرين سنة يكذب على الله ، ويقول : أوحى إلى ولم يوح إليه ، وأمرنى ولم

يأمره ، ونهانى ولم ينهه ، وقال الله كذا ، ولم يقل ذلك ، وأحل كذا ، وحرم كذا ، وأوجب كذا ، وكره كذا ، ولم يحل ذلك ، ولا حرمه ، ولا أوجبه ، ولا كرهه ، بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله ، وعلى أنبيائه ، وعلى رسله وملائكته ، ثم مكث من ذلك عشر سنين يستعرض عباده ، يسفك دماءهم ، ويأخذ أموالهم ، ويسترق نساءهم وأبناءهم ، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته ، وهو فى ذلك كله يقول : الله أمرنى بذلك ، ولم يأمره ، ومع ذلك فهو ساع فى تبديل أديان الرسل ، ونسخ شرائعهم ، وحلّ نواميسهم ، فهذه حاله عندكم ، فلا يخلو إما أن يكون الرب تعالى عالماً بذلك ، مطلعاً عليه من حاله ، يراه ويشاهده أو لا ، فان قلتم : إن ذلك جميعه غائب عن الله لم يعلمه قدحتم فى الرب تعالى ، ونسبتموه إلى الجهل المفرط ، إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم ، ولا علمه ، ولا رآه ، وإن قلتم : بل كان بعلمه ، واطلاعه ومشاهدته ، قيل لكم : فهل كان قادراً على أن يغير ذلك ، ويأخذ على يده ، ويحول بينه وبينه أم لا ؟ فان قلتم : ليس قادراً على ذلك نسبتموه إلى العجز المنافى للربوبية ، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إرادتهم ، وإن قلتم : بل كان قادراً ، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق ولم ينصر أولياءه ، وأتباع رسله ، نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة .

هذا لو كان مخلياً بينه وبين مافعله ، فكيف ! وهو فى ذلك كله ناصره ومؤيده ، ومجيب دعواته ، ومهلك من خالفه وكذبه ، ومصدقه بأنواع

التصديق كلها ، ومظهر الآيات على يديه التى لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم ، ولعجزوا عن ذلك ، وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر والتمكين والظهور والعلو وكثرة الأتباع أمراً خارجا عن العادة ، فظهر أن من أنكر كونه رسولا نبياً فقد سب الله تعالى ، وقدح فيه ، ونسبه إلى الجهل والعجز والسفه ؛ قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم فى الأرض وقتاً ما ، ثم قطع دابرهم ، وأبطل سنتهم ، ومحا آثارهم ووجودهم ، فان أولئك لم يدّعوا شيئاً من هذا ، ولا أُيدوا ونصروا ؛ وظهرت على أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالى بإقراره ، ولا بفعله ، ولا بقوله ، بل كان أمرهم بالضد من دين الرسول ، كفرعون ونمرود ، وأضرابهما ، ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين ، فان حاله كانت بضد حال الرسول ، ومن حكمة الله سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء فى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين ، فكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل ، والفرق بين هؤلاء وبينهم ، فبضدها تتبين الأشياء ، والضد يظهر حسنه الضد . فمعرفة أدلة الباطل وشبهه ، من أنواع أدلة الحق وبراهينه ، فلما سمع منى ذلك ، قال : معاذ الله ، لا نقول : إنه ملك ظالم ، بل نبي كريم ، من اتبعه فهو من السعداء ، وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمداً . قلت له : بطل كل ما تموهون به بعد هذا ، فانكم إذا أقررتم بأنه نبي صادق ، فلا بد من تصديقه فى جميع ما أخبر به ، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة أنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان به ،

وأخبر أن من لم يؤمن به فهو مخلد فى النار ، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب ، واستباح دماءهم ونساءهم وأبناءهم ، فان كان ذلك عدواناً منه وجوراً لم يكن نبياً ، وعاد الأمر إلى القدح فى الرب تعالى ، وإن كان ذلك بأمر الله ووحيه ، لم يسع مخالفته ، وترك اتباعه ، ولزم تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، انتهى .

وأما قول النصرانى : إنها - يعنى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم - مخالفة لدين المسيح ، مضادة له ، فهذا الإطلاق والعموم باطل ، فان دين المسيح ، بل وجميع أديان الرسل من أولهم إلى آخرهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم متفقة فى قواعد الدين ، وأصول الإيمان ، من توحيد الله تعالى ، ونفى الشريك له ، وتنزيهه عن النقائص المتضمن لنفى الصاحبة ، والولد ، وعلى إفراده سبحانه بالعبادة ، وتصديق جميع رسله ، والإيمان بملائكته وكتبه ، والإيمان باليوم الآخر ، والجنة والنار ، وغير ذلك من أصول الإيمان ، وقواعد الدين ، كما قال تعالى فى كتابه : ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾ وفى صحيح البخارى ، وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء إخوة العلات ، ديننا واحد » يعنى بذلك التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله ،

وضمنه كل كتاب أنزله ؛ وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى ، فقد يكون الشىء فى هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل فى الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وخفيفاً فيزاد بالشدة فى هذه دون هذه ، وذلك لما لله تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قول الله تعالى : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ يقول : السنن مختلفة ، فى التوراة شريعة ، وفى الإنجيل شريعة ، وفى القرآن شريعة ، يحل فيها مايشاء ، ويحرم مايشاء ، ليعلم من يطعه ممن يعصيه ، والدين الذى لا يقبل غيره التوحيد والإخلاص الذى جاءت به الرسل .

والمقصود أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم موافقة لدين المسيح فى التوحيد ، وأصول الديانات ، وإن خالفته فى بعض مادون ذلك من الشرائع ، لكنها مخالفة لما ابتدعه ضلاّل النصارى ، واخترعوه من قبل أنفسهم ، وبدلوا به دين المسيح من الغلو فى المخلوق حتى أنزلوه منزلة الخالق ، وادعوا أنه الله ، وأنه ابن الله ، تعالى الله وتقدس ، وتنزه عن قولهم علواً كبيراً ، وكذا مابدلوه من فروع دين المسيح عليه السلام ، كاستحلال الميتة والخنزير ، وإحداث البدع فى العبادات ، مما نسخوا به دين المسيح عليه السلام ، فبعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وإلى متابعة عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم ، وتصديقه فى بشارته بخاتم الرسل وسيدهم فى الدنيا والآخرة الذى هو أولى الناس به ، كما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أنا أولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة ، ليس بينى وبينه نبى ،

والأنبياء إخوة أبناء عَلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد » أخرجه البخارى ، ومسلم ؛ وإخوة العَـلات : أبناء أمهات شتى من رجل واحد .

وأما ماذكره النصرانى من وقوع الفتوحات على أيدى العرب ، ثم انتقال الدولة إلى غيرهم ففى ضمنه دليلان من أدلة الرسالة المحمدية ، وعلمان من أعلامها : الأول : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بتلك الفتوحات ، وبلوغ دينه إلى المشارق والمغارب ، وظهور أمته على فارس الروم ، فوقع ذلك على وفق ما أخبر ، كما سيأتى ذكر الأحاديث بذلك إن شاء الله تعالى ، فكان ذلك دليلا على صدقه ؛ الثانى : أنه صلى الله عليه وسلم أنذر بانتقال الأمر من قريش الذين هم سادة العرب وقادتها إذا وقع منهم الخلل فى إقامة الدين ، كما أخرج البخارى فى "صحيحه" ، وغيره عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه فى النار ، ما أقاموا الدين » وهذا يدل على أنهم إذا لم يقيموا الدين يخرج الأمر عنهم .

وأخرج الطبرانى عن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا إن الأمراء من قريش ما أقاموا ثلاثاً . . . » ، الحديث ، وأخرجه الطيالسى ، والبزار ، والبخارى فى " التاريخ " من طريق سعد بن إبراهيم عن أنس بلفظ : « ما إذا حكموا فعدلوا » ، الحديث . وله طرق متعددة .

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل ، وأبو يعلى الموصلى من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« يامعشر قريش إنكم أهل هذا الأمر مالم تحدثوا ، فاذا غيرتم بعث الله عليكم من يلحاكم كما يلحى القضيب » . قال الحافظ ابن حجر: ورجاله ثقات .

وأخرج الشافعى . والبيهقى من طريقه بسند صحيح إلى عطاء ابن يسار يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لقريش : « أنتم أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق . إلا أن تعدلوا عنه ، فتلحون كما تلحى هذه الجريدة » .

فقد دلت هذه الأحاديث ، وما ورد فى معناها من منطوق أو مفهوم على خروج الأمر عن قريش الذين هم أئمة العرب ، والعرب لهم تبع . وأن ذلك إنما يكون إذا وقع منهم التغيير ، ولم يستقيموا على السنن القويم ، وأنه يتقدم ذلك ماهددوا به من تسليط من يؤذيهم عليهم : قال ابن حجر : فوجد ذلك فى الدولة العباسية ، بغلبة مواليهم ، بحيث صاروا معهم كالصبي المحجور عليه ، يتمتع بلذاته ، ويباشر الأمور غيره ، ثم اشتد الخطب ، فغلب عليهم الديلم ، فضايقوهم فى كل شىء ، حتى لم يبق للخليفة إلا الخطبة ، واقتسم المتغلبون الممالك فى جميع الأقاليم ، ثم طرأ عليهم طائفة بعد طائفة ، حتى انتزع الأمر منهم فى جميع الأقطار ، ولم يبق للخليفة إلا مجرد الاسم فى بعض الأمصار ، انتهى .

وهذا لأن الذى نالته العرب من العز والظهور والغلبة إنما حصل لهم ببركة اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطاعتهم له ، كما قال الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ،

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » فلما كانت الخلفاء على الاستقامة والسداد فى أمر الدين كان لهم فى الأرض غاية التمكين تصديقاً لما أخبر به الصادق الأمين ، فلما غيروا بمخالفة بعض أمر النبى صلى الله عليه وسلم وقع بهم ماهددوا به ، حيث كانت نعم الله عليهم أعظم منها على غيرهم . وكان الواجب عليهم من شكرها بحسب ماخصوا به منها ، فكأن فى أول الأمر وآخره براهين ساطعة ، وأدلة قاطعة ، على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة وقوع ماأخبر به مطابقاً لخبره ، ومن جهة اقتران العز والظهور والسعادة باتباع سنته ، واقتران الذل والخذلان بترك أمره ومخالفته . فقد تضافرت حجج الله وبيناته على صدق هذا الرسول الكريم فى كل عصر على مر الدهور والأزمان ، ثم إن الفتوحات التى حصلت على أيدى غير العرب من الأمم الذين دخلوا فى الإسلام وانتموا إلى الملة ، وقاموا بجهاد الأعداء المضادين لها ، هى من آثار الوعد الصادق من التمكين لهذه الأمة الإسلامية فى الأرض ، وظهور دينهم على غيره من الأديان ، وانتصارهم على عبدة الأوثان والصلبان ، فليس فى خروج الأمر عن العرب فى بعض الأزمان ، وبعض الأقطار إلى غيرهم من هذه الأمة مايقتضى نقصاً فى الدين ، ووهناً فى الملة ، فان كل خير حصل لهذه الأمة من العرب وغير العرب ، فهو من بركة اتباع النبى صلى الله عليه وسلم والانتماء إلى ملته .

فصـــل

وأما قول النصرانى : وهم ـ يعنى الأتراك ـ بعد طول محاربة المسلمين دعوا إلى العهد وقبلوا الشريعة الموافقة لأخلاقهم بغير امتناع ، ونقلوا حكم الدولة لأنفسهم ، إلى آخره ، فهذا فيه نوعان من الخطأ :

الأول منهما مادل عليه كلامه من أن الأتراك الذين حاربوا المسلمين أولا هم الذين كانت لهم الدولة آخراً ، وهذا باطل وجهل بالدول وأخبارها ، فان الأتراك الذين حاربوا المسلمين فى الحوادث المشهورة ، هم التتار الذين خرجوا من أطراف بادية الصين ، فأفسدوا فى الأرض ، وأبادوا البلاد والعباد ، وكانت منهم الحادثة العظمى على بغداد سنة ٦٥٤ ، وبها زالت دولة بنى العباس من بغداد ، وكان رئيسهم جنكرخان ، ثم هولاكوا بعده ، ووصلوا إلى حلب ، وأطراف الشام ، فالتقوا هناك بالعسكر المصرى ، فهزمهم الله تعالى شر هزيمة فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ، قال السخاوى المؤرخ : ثم لم يزل لهم بقايا يخرجون ، إلى أن كان آخرهم تيمرلنك الأعرج ، الذى خرج سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة .

وبالجملة فلم يبق لهم على المسلمين سلطنة ، ولم تستقر لهم دولة ، وأما الأتراك الذين كانت لهم سلطنة على المسلمين ، فهم طوائف ، وأول حدوثهم فى دول الإسلام أيام المعتصم العباسى لكون السبى كثر فيهم إذ ذاك ، فاستكثر المعتصم منهم المماليك حتى كان أكثر عسكره منهم ، ثم غلبوا على الملك ، كما أشرنا إليه قريباً ، حتى قتلوا ابن سيدهم المتوكل بن المعتصم ، ثم خالطت المملكة بنو بويه ملوك الديلم ، ثم كانت الملوك

السامانية من الترك أيضاً ، ثم غلب على الممالك آل سبكتكين غلام معز الدولة ابن بويه الديلمى ، ثم آل سلجوق ، فامتدت مملكتهم من خراسان إلى العراق والشام والروم ، ثم كانت حادثة التتار التى زالت بها الخلافة من بغداد ، ثم كانت بقايا أتباع آل سلجوق بالشام ، ثم كان أتباع آل زنكى بنو أيوب الأكراد ، فاستكثر بنو أيوب من المماليك الأتراك فغلبوهم بالديار المصرية والشامية ، وكان من هؤلاء الأتراك السلطان الملك المظفر ـ قطز ـ الذى خرج بالعساكر المصرية إلى ملاقاة التتار بالشام فى الواقعة التى أشرنا إليها ، ثم كانت بعدهم الدولة الجاركسية ، وكانوا مماليك للأتراك المذكورين استكثروا منهم ، ثم غلبوهم على المملكة ، وهم الذين أخرجهم السلطان الغورى ، وكانوا أيضاً من الأتراك ، فهذه دولة الأتراك المشهورة فى الإسلام لم يكن ملكهم ودولتهم إلا بالطريق التى ذكرناها ، وأما التتار فهم ، وإن كان قد دخل فى الإسلام منهم من شاء الله ، فلم يبق لهم على المسلمين دولة ، ولم يستقر لهم سلطنة ، بل كان آخر أمرهم الدمار والبوار .

ومنشأ غلط النصرانى هو من جهة مايقال : إن سلاطين بنى عثمان كانوا فى الأصل من التتار ، كما هو أحد الأقوال فى نسبهم ، وهذا ، وإن كان هو الأصح فى نسبهم عند البعض ، لكن دولتهم لم تنشأ من جهة التتار ، ولا كان لهم بها تعلق ، وإنما كان ابتداؤها فى أطراف الروم مما يلى الشام ، وسبب ذلك أن السلطان عثمان ، وهو الذى ينسبون إليه ، كان هو وأبوه فى خدمة السلطان علاء الدين السلجوقى ، ملك تلك الناحية ، فترقت بهم الأحوال فى خدمته ، فتوفى السلطان السلجوقي ، وعثمان فى خدمته ، ومن

أعيان دولته ، ولم يكن بعد السلطان من أهل بيته من يقوم مقامه ، فاتفق العسكر على تولية عثمان وتقديمه ، فتم له الأمر ولأولاده من بعده ، فافتتحوا الديار الرومية ، واستقرت بها سلطنتهم ، ثم أخذوا ممالك الشام ومصر والحرمين من الجراكسة فيما بعد العشرين وتسعمائة .

النوع الثانى : قوله : وقبلوا الشريعة الموافقة لأخلاقهم بغير امتناع ، فتحت هذا الكلام تمويه باطل ، وهو خطأ ظاهر ، ثم هو مناقض لما يأتى من كلامه أن الشريعة الإسلامية متعلقة بالكلية بالسيف والقتال ، ولكنه لما سمع بدخول من دخل فى الإسلام من التتار بغير إكراه ولا قتال حاول أن يجعل ذلك ليس من باب الاختيار الذى دعاهم إليه ماعرفوه بعقولهم من صحة دين الإسلام وشرفه حتى اختاروه على دينهم ، وعلى اليهودية والنصرانية ، فأحال ذلك على موافقة أخلاقهم .

ومن المعلوم أن من نشأ على دين وجد عليه آباءه وأسلافه والمعظمين عنده ، فانه لايدعه ويؤثر غيره عليه ، إلا أن يحمله على ذلك رغبة أو رهبة ، أو يدله العقل على فضيلة مااختاره ، فأما خلقه الموافق لهواه ، فانه لايدعوه إلى اختيار دين غير دين آبائه ، لاسيما ، والدين الذى اختاره يتضمن من التكاليف الشاقة على الأنفس ماهو مضاد لهوى النفس ؛ ولا ريب أن الذين دخلوا فى الإسلام من أولئك التتار ، وقد كانوا أهل شوكة ودولة ، لم يكن لهم داع إلى ذلك من رغبة ، ولا رهبة ، وإنما دخلوا فى الإسلام لما رأوا من شرفه وفضله بعد مخالطة المسلمين ، وهذا يدل على معنى ماأشرنا إليه فيما تقدم ، ويأتى إيضاحه فيما بعد إن شاء الله من أن من الحكمة فى شرع الجهاد ليس إجبار الناس على

الدخول فى الإسلام بالظاهر دون الباطن ، وإنما سيف الجهاد منفذ للشريعة موصل لها إلى أسماع المكلفين حتى يصغوا إليها ، فيعلموا أنها الحق ، فيعملوا بها باطناً وظاهراً . ولما كان هؤلاء القوم خالطوا المسلمين، وسمعوا القرآن ، ورأوا محاسن الإسلام ، دعتهم عقولهم إلى استحسانه من غير داع آخر ، ولا رغبة ، ولا رهبة ، مع أن إسلام أكثرهم ضعيف من جهة تساهلهم فى فعل المأمورات ، وترك المحظورات ، كما ذكر ذلك العلماء بأحوالهم .

واعلم أن السنة النبوية قد أشارت إلى قتال الترك وفتنتهم ، فهو من الأعلام الظاهرة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر ، وحتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المجان المطرقة ، صغار الأعين ، ذلف الأنوف » ، أخرجه البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ؛ وفى رواية « حتى تقاتلوا الترك . صغار الأعين ، حمر الوجوه ، فطس الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة » ؛ وفى رواية للبخارى : « لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا خوزا ، وكرمان من الأعاجم ، حمر الوجوه ، فطس الأنوف ، صغار الأعين ، وجوههم كالمجان المطرقة ، نعالهم الشعر » ؛ وفى لفظ : « عراض الوجوه » ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بأن الترك ستغلب على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم ، وورد عنه فى حديثه : « أتركوا الترك ماتركوكم ، فان أول من يسلب أمتى ملكها بنو قنطور » ، فقد ظهر مصداق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم فى هذه

الواقعة كغيرها من الغيوب التى أطلعه الله عليها، فوقعت على وفق ما أخبر .

المقام الثانى : قال النصرانى : ـ فصل ـ فى الرد على المسلمين بحجة مأخوذة من الكتب المقدسة التى لليهود والنصارى ، وأنها لم تتغير ، من المشهور المجتمع عليه عند المسلمين ، وما قد شهد له محمد أن الله بعث موسى ويشوع الذى اسمه فى العربية عيسى ، وأن الذين دعوا الناس فى أول الأمر إلى قبول شريعة يشوع كانوا من أهل الصلاح ، ولكن مع ذلك توجد فى القرآن أخبار عدة مخالفة لما أتى به موسى وتلاميذ يشوع ، ومن جملة تلك الأخبار نقتصر على ما أوتى به فى أمر يشوع ، فأما الذى حقق رسله وتلاميذه بإجماع منهم كلهم أنه صلب ومات، وفى اليوم الثالث قام من بين الأموات ، وشاهده عدة من الناس ، وأما المسلمون يزعمون بخلاف ذلك أنه رفع إلى السماء خفية ، وأن المصلوب هو الشخص المشبه به ظنوه اليهود أنه هو ، وإنما يشوع فلم يصلب ، ولم يقتل ، ولا سبيل إلى فك هذا الاعتراض ، إلا أن يقولوا ، وهو قولهم : إن كتب موسى ، وتلاميذ يشوع لم تبق على ما كانت عليه أولا ، بل إنها تغيرت ، وقولهم هذا مما أبطلناه فيما تقدم ، وإنما لو قال أحد : إن القرآن قد تغير ؛ لأنكر المسلمون ذلك ، وقالوا : إن فى إنكارهم ذلك ما يكفى رداً على من يقول : إنه بدل مالم يكن له حجة يستدل بها على صحة قوله ، مع أنهم لا يمكنهم أن يستدلوا على صحة كتابهم بما يعادل دلالتنا على صحة كتابنا من حيث انتشار عدة نسخ منذ أول الأمر فى جميع الآفاق ، لا كحال كتابهم بلسان واحد ، بل بلغات عدة . وأنها محفوظة عند الفرق المختلفة ، هذا كلامه .

والجواب عنه من وجوه : الأول : أن هذا الاعتراض وأمثاله نظير اعتراض اليهود على نبوة عيسى عليه السلام واحتجاجهم بأشياء من التوراة التى بأيديهم ، كاعتراضهم فى إحلال السبت بأن فى التوراة الأمر بالتمسك بالسبت مادامت السموات والأرض ، وكاعتراضهم بما فى التوراة من وصف زمن المسيح مثل : أنه سيسكن الذئب مع الجمل ، والنمر مع الجدى ، والأسد مع الضأن ، وأن الطفل يلاعب الحية ، وأن جبل الله سيعلو على سائر الجبال ، وأن غير اليهود من الأمم سيأتون ويسجدون لله فيه ، إلى غير ذلك من اعتراضات اليهود على نبوة عيسى عليه السلام ، وليس عند النصارى جواب عن اعتراضهم ، إلا وعند المسلمين من الأجوبة عن اعتراض الطائفتين ماهو أظهر وأوضح . كما سيأتى ماتيسر من ذلك ، مما يتعلق بغرضنا إن شاء الله تعالى .

الوجه الثانى : أن المعجزات الظاهرة ، والأدلة القاطعة قد قامت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد ثبوت المعجزات فلا التفات إلى مثل هذه الاعتراضات ، كما قد أجاب به النصرانى عن شبهات اليهود ، فلا يبقى إلا التسليم لخبر من قامت المعجزة على صدقه ، فلما ثبت بالأدلة القاطعة صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى خبره عن الله ، علم قطعاً كذب كل خبر يخالف ماجاء به .

يوضح ذلك الوجه الثالث : وهو أن دعوى النصارى قتل المسيح ، وصلبه ، مستندة إلى أخبار من وضع الكتب التى بأيدى النصارى ، وهى غير موثوق بها ، لما سنبينه من أمرها ، ولأنها كانت فى أول الأمر

بأيدى عدد قليل لا يستبعد تواطؤهم على الكذب والتبديل، والتغيير. فلا يعارض بها خبر من جاء بالمعجزات التى لا مرية معها أنه أخبر بما أخبر به عن وحى من الله، وقد قال الله تعالى فى الكتاب الذى أنزل عليه، فيما ذمّ به اليهود: ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وأن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن. وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ وكان من خبر اليهود أنهم لما بعث الله عيسى بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات التى منها أنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمه الله بها. فأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه ورموه وأمه بالعظائم، كما قال تعالى فى الآية: ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: إنهم رموها بالزنا، وكذا قال غير واحد من السلف. وهو ظاهر من الآية، فجعلوها زانية قد حملت بولدها من ذلك. زاد بعضهم: وهى حائض. ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ أى هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب، وقد قتلناه. وهذا من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿ يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ أى ياذا الذى يدعى لنفسه ذلك إنك لمجنون.

والمقصود أن اليهود آذوا نبى الله عليه السلام بكل ممكن. حتى

جعل لا يساكنهم فى بلد ، بل كان يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام حتى كان آخر ذلك أن سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان . وكان رجلا مشركا من عبدة الكواكب من اليونان . وأنهوا إليه أن ببيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ، ويفسد على الملك رعاياه . فغضب الملك ، وكتب إلى نائب بيت المقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، ويصلبه ، ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه عن الناس ، فامتثل والى بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام ، وهو فى جماعة اثنا عشر ، أو ثلاثة عشر ، وقيل : سبعة عشر نفراً ، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ، إقبال السبت ، فحصروه . فلما أحس بهم ، وأنه لا محالة دخولهم إليه ، أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهى ، وهو رفيقى فى الجنة ؟ فابتدر لذلك شاب منهم ، فاستصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية . فكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو ، وألقى عليه شبه عيسى حتى كأنه هو . وفتحت روزنة فى سقف الباب ، وأخذت عيسى عليه السلام سِنة من النوم ، فرفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إنى متوفيك ، ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ﴾ فلما دخل أولئك النفر ، ورأوا ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى عليه السلام ، فأخذوه فى الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم قتلوه ، وتبجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك بجهلهم ، وقلة عقلهم ، ماعدا من كان فى بيت المسيح ، فانهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون ، فانهم ظنوا كما ظن

اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم ، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت . ويقال : إنه خاطبها . فالله أعلم ، وهذا كله امتحان من الله لعباده ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وقد وضح الله الأمر وجلاه . وبينه ، وأظهره فى القرآن الذى أنزله على رسوله المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات ، فقال تعالى ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين المطلع على السرائر والضمائر ، الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، العالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون : ﴿ وماقتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ﴾ أى رأوا شبهه ، فظنوا أنه إياه ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ يعنى من ادعى قتله من اليهود ، ومن سلمه لهم من جهلة النصارى ، كلهم فى شك من ذلك ، وحيرة ، وضلال ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج عيسى على أصحابه وفى البيت اثنى عشر رجلا من الحواريين ، يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماءاً ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال : أنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب . فقال : أنا ، فقال : أنت هو ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى . ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء ، وجاء الطلب من اليهود

فأخذوا الشبيه فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنى عشر مرة من بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان عبد الله ورسوله ، ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون ، وقالت طائفة : هو ابن الله كان فينا ما شاء ، ثم رفعه إليه ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، قاله الحافظ ابن كثير ، قال : ورواه النسائى عن أبى كريب عن أبى معاوية بنحوه ، وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ، وهو رفيقى فى الجنة ، وللقصة طرق كثيرة ملخص الصحيح منها ما قدمنا ، ثم قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ قال ابن عباس فى قوله : ﴿ قبل موته ﴾ قال : قبل موت عيسى ، قال العوفى عنه : عند نزول عيسى لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به ، وقيل : قبل موت الكتابى ، والصحيح القول الأول ، لأن المقصود من سياق الآية - كما قال ابن كثير - تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم ذلك من النصارى ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبيه ، وأنه رفعه إليه ، وأنه باق حى ، وأنه سينزل قبل يوم القيامة ، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة ، فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، أى لا يقبلها من أحد ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، وأخبرت

هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ أى بأعمالهم التى شاهدها منهم قبل رفعه وبعد نزوله إلى الأرض ، وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل عيسى ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقبض المال حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها » ثم قال أبو هريرة : اقرأوا ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته . ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ وروى الإمام أحمد فى "مسنده" وأبو داود فى "سننه" وغيرهما عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأنبياء إخوة العلات أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن نبى بينى وبينه ، وأنه نازل ، فاذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان مخضران ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقذف الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويهلك فى زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمنة فى الأرض ، ثم ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم ، فيمكث فى الأرض أربعين سنة ، فيتوفى ، ويصلى عليه المسلمون » والأحاديث فى هذا المعنى والأخبار بنزول عيسى كثيرة مقطوع بها ، وهذا كله معلوم من نعته عند أهل الكتاب ، لكن النصارى ظنوا أن نزوله ومجيئه مرة أخرى إنما يكون

يوم القيامة فغلطوا فى مجيئه الثانى، كما غلطوا فى مجيئه الأول، حيث ظنوا أنه الله، واليهود أنكروا مجيئه الأول، وظنوا أنه غير المبشر به، وصاروا ينتظرون غيره، وإنما بعث إليهم أولا فكذبوه، فجاء القرآن بالحق من أمره، وبقاء حياته فى السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت فيه أقوالهم، وخرجوا عن الحق. فتنقصه اليهود، ورموه بالعظائم، وأطراه النصارى فادعوا فيه الربوبية، تعالى الله عن قول هؤلاء وقول هؤلاء علواً كبيراً، والنصارى لما لم يؤمنوا بنزوله قبل يوم القيامة لم ينفصلوا عن شبهة اليهود المأخوذة من نعت زمان المسيح المذكور فى التوراة، كما أشرنا إليه قريباً، واضطروا إلى تأويل ذلك الوصف على المجاز البعيد الذى يعلم كل أحد أنه غير مراد.

قال شيخ الإسلام أبو العباس: والمسلمون، واليهود والنصارى متفقون على أن الأنبياء أنذرت بالمسيح الدجال، وعلى أن الأنبياء بشروا بالمسيح من ولد داود، ومتفقون على أن مسيح الضلالة له آيات. وعلى أن مسيح الهدى سيأتى أيضاً، ثم المسلمون، والنصارى متفقون على أنه عيسى. واليهود تنكر ذلك مع إقرارهم أنه من ولد داود، قالوا: لأنه تؤمن به الأمم كلها، والنصارى مقرون بأنه بعث، وأنه سيأتى. لكن يقولون: يوم القيامة ليجزى الناس بأعمالهم، وأما المسلمون فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء على وجهه، وهو موافق لما أخبر به خاتم الرسل فى الأحاديث المشار إليها.

الوجه الرابع : ماعترف به النصرانى فى المقالة الأولى من ـ كتابه ـ من حصول الاختلاف بين النصارى فى صحة بعض هذه الكتب التى هى عمدتهم فى الدين بزعمهم ، وأنهم فى أول الأمر شاكون فيها كرسالة بطرس الثانية ، ورسالتى يعقوب ويهودا ، والرسالتان المنسوبتان إلى يوحنا ، أى الرؤيا ، والرسالة إلى العبرانيين ، ولم يجب النصرانى عن هذا الإيراد إلا بأنها كانت مقبولة فى بعض الكنائس ، ثم بعد ذلك حصل اتفاق النصارى عليها ؛ ولا ريب عند كل ذى لب صحيح أن هذا يمنع الثقة بشىء من كتبهم حيث قبلوا ما كان مشكوكا فيه عند أوائلهم ، أو مردوداً مكذوباً ، ثم عمدوا إليه فألحقوه بإنجيل المسيح الذى زعموا أنه لم يغير ، ولم يبدل . فان مثل هذا لا يرتضيه ثقات المؤرخين أن يضعوا فى كتبهم مايكون مستنداً إلى الشك وعدم الثقة . فكيف بكتب الشريعة المنسوبة إلى الأنبياء ، المجعولة عمدة فى الدين ؟! فهذا أوضح دليل . وأظهر برهان على جهالة الأمة الضالة بالعلم الصحيح الموروث عن المسيح عليه السلام . بل قد التبس عليهم الصدق بالكذب ، والصحيح بالسقيم ، لأنه ليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عن دين الله تحريف الغالين . وانتحال المبطلين . كما لهذه الأمة الإسلامية من الأئمة العلماء . والسادة الأتقياء ، والبررة النجباء . من الجهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه ومنكره . ومتروكه ، ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين . وغير ذلك من أصناف الرجال ، كل ذلك

صيانة للجناب النبوى ، والمقام المحمدى ، خاتم الرسل ، وسيد البشر صلى الله عليه وسلم أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس عنه ، فضلا عن عنايتهم بنقل القرآن . وحفظه ، حتى لا يشك فى حرف من حروفه أنه من عند الله ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنة الفردوس مأواهم ، وقد فعل .

الوجه الخامس : إن هذه الكتب كما يدل عليه صريح كلام النصرانى لم تتلق إلا من صحف وجدت بأيدى النصارى ، لا كحال المسلمين فى تلقى القرآن من أفواه الثقات المتقنين ، قرناً بعد قرن ، حتى لم يقع اختلاف بينهم فى حرف واحد أنه من القرآن ، ولا كنقلهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخباره ، وسيرته ، وسيرة أصحابه ، حيث رووا ذلك كله بالأسانيد الصحيحة الموثوق برجالها المعروفين بالصدق والأمانة . وتمام الثقة . وميزوا الصحيح من المعلول ، والمجروح من المقبول ، كما قال أبو العباس الدغولى : سمعت محمد بن حاتم بن المظفر يقول : إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد ، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد ، إنما هى صحف فى أيديهم ، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم ، فليس عندهم تمييز بين مانزل من التوراة والإنجيل ، وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التى اتخذوها عن غير الثقات ، وهذه الأمة الشريفة زادها الله شرفاً بنبيها إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف فى زمانه بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم ، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ ، والأضبط فالأضبط ،

والأطول فالأطول مجالسة لمن فوقه ممن هو أقصر مجالسة ، ثم يكتبون الحديث الواحد من عشرين وجهاً فأكثر حتى هذبوه من الغلط والزلل ، وضبطوا حروفه ، وعدوه عداً . فهذا من فضل الله على هذه الأمة ، فنستودع الله تعالى شكر هذه النعمة وغيرها من نعمه .

قال أبو حاتم الرازى : لم يكن فى أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أئمة يحفظون آثار الرسل إلا فى هذه الأمة . فقال له رجل : ياأبا حاتم ربما رووا حديثاً لا أصل له ، فقال : علماؤهم يعرفون الصحيح من السقيم .

الوجه السادس : إن الاختلاف والتناقض والأخبار بأشياء على غير ماهى عليه واقع فى هذه الكتب ، فكان ذلك دليلا على التغيير والتبديل ، فان ما كان من عندالله لا يكون فيه اختلاف ولا تناقض ، ومن أمثلة ذلك ماوقع فى إنجيل متى ، وهو عند النصارى أصح الأناجيل وعمدتها ، فانه بعد أن ذكر فيه أن الذى دل اليهود على عيسى بما بذلوا له من الفضة ، ندم وطرح الفضة فى الهيكل عند اليهود ، ومضى وخنق نفسه ، وأن اليهود قالوا : هذه الفضة لاتحل لنا فابتاعوا بها حقل الفخار مقبرة للغرباء ، قال حينئذ : تم ماقيل فى أرميا النبى القائل : وأخذوا الثلاثين فضة ثمن المثمن الذى أثمنوه من بنى إسرائيل ، وجعلوها لحقل الفخار ، كما أمرنى به الرب ، انتهى .

وهذا المذكور لا وجود له فى صحيفة أرميا التى بأيدى اليهود ، كما حقق ذلك من له خبرة بكتبهم ، وحينئذ فلا يخلو إما أن يكون هذا الكلام لاوجود له فى صحيفة أرميا أصلا فيكون نسبته إليها من الزيادة فى إنجيل

متى ، أو أن يكون قد نقص وحذف من صحيفة أرميا ، فيكون من تحريف النقصان ، فقد ثبت التحريف إما فى العهد العتيق بالنقصان ، أو فى الجديد بالزيادة ، وهو المطلوب ، وعندهم مما يدل على التحريف أشياء كثيرة ، ولم ينفصلوا عن هذا الإيراد إلا باحتمال أن يكون ذلك من غلط الكاتب ، وحينئذ فنقول : إذا احتمل أن يكون من غلط الكاتب ، ولم يكن فى النصارى إذا ذاك من يبين الغلط ، وينفى التحريف ، ويصلح التصحيف دل على أنهم قبلوا من ذلك الكاتب ما ألقاه إليهم من هذه الكتب من غير علم بصحتها عمن نسبت إليه ، فسقطت الثقة بها .

يقرر ذلك الوجه السابع : وهو أن هذه الكتب لما لم تتلق إلا من الصحف التى وصفناها ، كما اعترف به الخصم ، وليست بيد من هو معلوم الثقة والأمانة ، ولم تنقل من طريق أهل التواتر الذى ينفى عنها تطرق التهمة ، لم يصح أن يستند إليها فى دين الله وشرعه ، فكيف يعارض بها ماجاء به صاحب المعجزات القاطعة الذى ظهرت أدلة صدقه أعظم من ظهور الشمس ، فقد علم يقيناً أن كل ماخالف خبر من دلت المعجزة على صدقه فهو كذب مردود .

وأما ما احتج به النصرانى من انتشار نسخ هذه الكتب فى الآفاق فهو غير مفيد للعلم بصحة أصلها ، لأنا نقول : لما خالف بعض مافيها خبر صاحب المعجزة علمنا أن التغيير قد حصل فيها قبل الانتشار المانع من حصول التواطؤ على الكذب ، وهذا بخلاف ماوقع فى نقل القرآن العزيز ، فان الله تعالى ، وله الحمد ، قيض له من أسباب الحفظ والضبط مالم يقع

نظيره لغيره من الكتب حتى حصل اليقين الذى لايخالجه شك ، ولا يرد عليه شبهة أن القرآن الذى تضمنه المصحف هو القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا مما يعترف به الموافق والمخالف ، والقول بخلاف ذلك قدح فى الضروريات ، لأنه من المعلوم بالتواتر الذى لامرية فيه أن الصحابة تلقوه عن نبيهم ، وكتبوه فى الصحف فى حياته ، وإن لم يكن إذ ذاك مجموعا فى مصحف واحد ، وأيضاً فقد حفظه كله عن ظهر قلب جماعة من الصحابة تلقوه من فم محمد صلى الله عليه وسلم من أوله إلى آخره ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه متوافرون . فألهم الله خليفة رسوله أبا بكر الصديق أن يجمع القرآن فى المصحف ، حداثة العهد بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه متوافرون ، فجمعوه بحضور علمائهم ، وسباقهم من المهاجرين والأنصار الذين عرفوا كل آية منه ، وكل سورة متى نزلت ، وفى أى شىء نزلت ، وتلقوه غضاً طرياً عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وأتقنوه علماً وعملا ، كما قال الأعمش : عن أبى وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يتجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ، وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوهن حتى يعملوا بما فيها من العلم ، قال : فتعلمت القرآن والعمل جميعاً .

والمقصود أن القرآن نقل بالتواتر عن محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر حتى لا يتطرق الشك إلى حرف واحد منه أنه من القرآن ، ولم يقيض

لمن قبلنا من حفظ الكتب وضبطها مايقارب ذلك، فانا قد دللنا على وقوع التحريف والتصحيف فى كتب النصارى بما لايمكنهم دفعه، فضلا عما اعترفوا به من الشك فى بعضها من أصله، وأما كتابنا فان أحداً لوحاول أن يغير حرفا أو نقطة منه لقال له أهل الدنيا: هذا كذاب، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير فى حرف منه لقال الصبيان كلهم: أخطأت أيها الشيخ، وصوابه كذا، ولم يتفق لشىء من الكتب مثل هذا الكتاب العزيز الذى صانه الله عن التحريف، وحفظه عن التغيير والتصحيف، مع أن دواعى الملحدة، واليهود والنصارى متوافرة على إفساده وإبطاله، وانقضى الآن ماينيف على ألف ومائتين وأربعين سنة من أول نزوله، وهو بحمد الله فى زيارة من الحفظ.

الوجه الثامن: إن دعوى النصارى قتل المسيح وصلبه يناقض دعواهم ربوبيته حتى صاروا ضحكة للسفهاء، ومثلة عند العقلاء فى جمعهم بين النقيضين، وقد قال أبو العلاء المعرى:

عجباً للمسيح بين النصارى وإلى أى والد نسبوه!
أسلموه إلى اليهود وقالوا: إنهم بعد قتله صلبوه
فان كان مايقولون حقاً فسلوهم فى أين كان أبوه
فان كان ساخطاً بأذاهم فاعبدوهم لأنهم غلبوه

هذا، وقد زعموا أن كتابهم الذى بأيديهم تضمن هذين الأمرين الباطلين واجتماعهما أفسد شىء ببديهة العقل، مع أن كلا منهما باطل

وضلال ، لحيث زعموا أن كتابهم تضمن هذا المحال علمنا قطعاً وقوع التغيير والتبديل فيه ، وأيضاً فدعوى إلـٰهية المخلوق محال فى العقل على انفرادها ، وأما عدم قتله وصلبه فانما علمناه بالسمع .

الوجه التاسع : إن القرآن جاء بموافقة التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأنبياء فى الخبر عن الله تعالى ، وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك تفصيلا وبيانا ، وبين الأدلة والبراهين على ذلك ، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التى بعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبين عقوبات الله لهم ، ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وهذا معنى كون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ وقال تعالى : ﴿ الۤمۤ الله لاإلـٰه إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، وذلك برهان عظيم على أنه من عند الله ، وأن الرسول الذى جاء به صادق ، فانه لما جاء بما يطابق ماجاء به مَن قبله من الرسل مع تباعد الزمان وشهادة أعدائه وإقرارهم بأنه لم يتلقه من بشر ، ولهذا يمتحنونه بأشياء كانوا يعلمون أنه لايخبر بها إلا نبى ، أو من قد أخذ عنه ، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد ألبتة . ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ، ومعارضته بمثل ماجاء به ، إذ من الممكن أن لو كان ماجاء به مأخوذاً عن بشرأن يأخذوا

هم عن ذلك البشر ، أو عن نظيره ، فيعارضوا ماجاء به ، وسيأتى مزيد لهذا المعنى ، فيما بعد إن شاء الله تعالى .

والمقصود أنه لما طابق الكتب المتقدمة ، وصدقها، وشهد بصحة ماأنزل الله فيها من غير مواطأة ، ولا اقتباس منها ، دل على أن الذى جاء به رسول صادق ، كما أن الذى جاء بها كذلك ، وأن مخرجها من مشكاة واحدة ، كما قال النجاشى ملك الحبشة ، وأحد علماء النصارى حين قرىء عليه القرآن : هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، يعنى فاذا كان موسى صادقا وكتابه حقاً فهذا كذلك ، حيث أخبر بما أخبر به من غير مواطأة ، ولا تساعد ، ولا تلقى عمن أخذ عنه ، ويكون ذلك دليلا على صدق الرسول الأول أيضاً .

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيختبر فيها بما يقطع معه بأنه صادق فى شهادته ، صدقا لا تتطرق إليه شبهة ، فيجىء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ، ولم يتواطأ معه ، فيخبر بمثل تلك الشهادة سواءاً ، مع القطع بأنه لم يجتمع به ، ولا تلقاها عن أحد اجتمع به ، فهذا يكفى فى صدقه إذا تجرد الإخبار ، فكيف إذا اقترن بأدلة قطع بها بأنه صادق أعظم من الدلالة التى اقترنت بخبر الأول ، فكيف إذا بشر به الأول ؟ فكيف إذا اقترن بالثانى من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول ، وأقوى منها ؟ وكثيراً مايتكرر هذا المعنى فى القرآن ، إذ فى ضمنه الاحتجاج على أهل الكتابين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الطريق ، وهو حجة أيضاً على غيرهم بطريق اللزوم ، لأنه لما جاء بمثل ما جاءوا به

من غير أن يتعلم منهم حرفا واحداً ، دل على أنه من عند الله ، وحتى لو أنكر رسالة من تقدم لكان فى مجيئه بمثل ما جاءوا به إثبات لرسالته ، ورسالة من تقدمه ، ودليل على صحة الكتابين ، وصدق الرسولين ، لاسيما والكتاب الثانى جاء على يد أمى لم يقرأ كتاباً ، ولاخطه بيمينه ، ولا عاشر أحداً من أهل الكتاب ، بل نشأ بين قوم أميين ، يشاهدون حاله حضراً وسفراً وإقامة ، فهذا من أكبر الأدلة على أن ماجاء به ليس من عند البشر ، ولا فى قدرهم ، فهو برهان أبين من الشمس ، فقد تضمن ماجاء به تصديق من تقدمه ، وتصديق من تقدمت البشارة به ، فتطابقت حجج الله وبيناته على يد أنبيائه ورسله . وانقطعت المعذرة ، وثبت الحق وقامت الحجة ، فلم يبق إلا العناد المحض ، والإعراض والصد ؛ وأما مخالفة القرآن بعض ماتضمنته تلك الكتب فهو غير قادح فى الدليل ، فانه لما جاء القرآن بما فيها من أصول دين الأنبياء والشرائع الكلية ، وغير ذلك من سائر ماتضمنته من حجج الله وبيناته ، كان ذلك دليلا على وقوع التغيير فيها والتبديل ، وعلمنا قطعاً أن ذلك واقع فى الجزء الذى خالف ماجاء به القرآن إما بزيادة ونقصان فى الألفاظ ، وإما بتحريف التأويل وإخراج اللفظ عن مدلوله . إما فى أصل لفظ لغة ذلك الكتاب أو فى الترجمة باللغة التى نقل إليها ، فالقرآن هو المهيمن على تلك الكتب ، الشاهد بصدقها ، وكذب ماحرف فيها .

الوجه العاشر : إن أهل الكتاب قد مزجوا أخبارهم بكتب أنبيائهم ، كما هو مشاهد فى الإنجيل الذى بيد النصارى . كقصة اليهود

مع المسيح ، وما زعمه النصارى من قتله وصلبه ودفنه ، ثم قيامه من بين الأموات ، وغير ذلك من الأخبار التى إنما هى محكية عن تلاميذ عيسى وأتباعه ، وقد خلطوها مع كتاب الله من غير تمييز بين ماهو عن الأنبياء عليهم السلام ، وبين غيره ، وأما كتابنا الذى تكفل الله بحفظه بقوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ فلم يقع فيه زيادة ولا نقص ، ولم يختلط كتاب الله بغيره ، بما قيض الله له من أسباب الحفظ على أيدى نقلته العلماء الأبرار ، والأتقياء الأخيار ، فقد كان من تمام اعتنائهم بحفظه أنهم تركوا تدوين أحاديث السنة وكتابتها حذر اختلاط شيء منها بالقرآن حتى انقرض العصر الأول وأمن هذا المحذور .

وإذا أردت أن تعلم سخافة علم النصارى ، وقلة معرفتهم ، فانظر إلى ما أورده هذا النصرانى من الانتصار لصحة كتبهم ، كقوله عند ذكر قتل المسيح وصلبه : وحيث أنا نصدق المؤرخين فيما أخبروا به عن الأمور التى جرت فى زمان طويل قبل ميلادهم ، معتمدين على اجتهادهم فى البحث عنها ، فبالحرى أن يصدق هذا المؤلف الذى يدعى أنه أخذ جميع ماقال من الذين شاهدوه عياناً ، انتهى .

فانظر إلى سخافة هذا الانتصار لتصحيح الكتب التى جعلوها عمدة للدين أن جعلها أسوة كتب المؤرخين التى يكتب مؤلفوها ماسمعوه من صحيح وسقيم ، فان العلم الحاصل بذلك لايفيد يقيناً ، وإنما يقبل من المؤرخين ما أخبروا به ، لكون ذلك لايتعلق به حكم دينى ، فتتلقى عنهم تلك الكتب للاطلاع على أحوال الزمان ، لالإثبات قواعد الدين ، وتصحيح

عقائد الملة وأحكام الشريعة، وبمثل هذه الحجة الواهية احتج على قبول الكتب التى هى من أناجيلهم، لم تنسب إلى شخص معين. حيث قال: ولأجل هذا نقبل عدة من كتب التواريخ من حيث أننا ننظر أن مؤلفيها - مع أنا نجهل أسماءهم - قد عاشوا فى ذلك الزمان، وشاهدوا الأمور التى أتوا بذكرها فى كتابهم، وكذلك أن الذين ألفوا الكتب التى نتكلم الآن عليها ادعوا لأنفسهم أنهم عاشوا فى الأزمنة الأولى، وأنهم منحوا من الله المواهب الرسولية، فيجب أن يقتنع بهذا، انتهى. وله فى الاحتجاج على صحة كتبهم من هذا النمط من الحجج الواهية مايكفى سماعه عن الاشتغال بردّه، وهو من أكبر الحجج عليهم فى ضد ماقصدوه، وقد نبهنا على مقاصدها فى هذا الفصل بما فيه مقنع لذوى الألباب.

والمقصود من هذا كله أن كتب اليهود والنصارى وما عندهم من العلم قد اختلط فيه الحق بالباطل، والصدق بالكذب، فلا نقبل منه إلا ماوافق الحق الذى بأيدينا، عمن شهدت بصدقه المعجزات والأدلة القاطعات. فما وافقه فهو الحق، وما خالفه فهو الباطل، وما أخبروا به مما لم يشهد له بصدق ولا كذب، فهذا لا يقدم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا على تصديقه، فلعله أن يكون باطلا، ولكن يؤمن به إيماناً مجملا معلقاً على شرط، وهو أن يكون منزلا لامبدلا، وقد أخرج البخارى فى " صحيحه " عن أبى هريرة قال: أكان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم، وقولوا:

آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ، ونحن له مسلمون » وفى حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، فان كان حقاً لم تكذبوهم ، وإن كان باطلا لم تصدقوهم » أخرجه الإمام أحمد ؛ وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فانهم لن يهدوكم ، وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل ؛ وروى البخارى عن ابن عباس ، قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب . وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، ألا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم ؟! لا والله مارأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

فصل

قال النصرانى : وأما المسلمون فانهم يدعون أن فى الفصل الرابع عشر من إنجيل يوحنا الذى فيه يوعد بإرسال فرقليط قد كان مسطوراً ماوصف به نبيهم ، وأن النصارى محوه وبدلوه ، وياليت شعرى هذا التغيير وقع فيما بعد ظهور نبيهم ، أو قبل ظهوره ؟ أما بعد ظهوره فما أمكن تغييره ، إذ وجدت إذ ذاك عدة نسخ فى جميع آفاق الأرض باللغات المختلفة ، وهذه النسخ كلها يوافق بعضها بعضاً فى ذلك الفصل ، لاخلاف بينها فيه ، وأما قبل ظهوره فلا كان لهم مايدعوهم إلى التغيير

والتبديل ، إذ لم يمكنهم بسابق علمهم أن يعرفوا ما كان محمداً مزمعاً أن يأتى به .

الجواب ، وبالله نستعين : إعلم أن فى الفصل المذكور منه ماهو موجود بأيدى النصارى إلا أن من الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والبشارة به ماهو من أوضح الأدلة ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وقبل ذلك فاعلم أن العلماء اختلفوا فى معنى التحريف الذى ذكر الله عن أهل الكتاب ، فقيل : إنهم كانوا يحرفون اللفظ بلفظ آخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ﴾ قال أبو العالية : عمدوا إلى ماأنزل الله فى كتابهم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فحرفوه عن مواضعه ؛ وتقدم قريباً كلام ابن عباس من رواية البخارى .

وروى ابن جرير عن كنانة العدوى عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ الآية ، قال : الويل جبل فى النار ، وهو الذى أنزل فى اليهود ، وهم الذين حرفوا التوراة زادوا فيها ماأحبوا ، ومحوا منها مايكرهون ، ومحوا اسم محمد من التوراة ، ولذلك غضب الله عليهم ، ورفع بعض التوراة ، وقال : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ﴾ قال ابن كثير : وهذا غريب جداً ، وقال السدى : كان أناس من اليهود كتبوا كتاباً عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه

من عند الله ، فيأخذون به ثمناً قليلا ، وكلام السدى هذا يدل على أن ذلك فى قوم مخصوصين ، كما قال الله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون ﴾ قال مجاهد ، والشعبى ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ يحرفونه ، وقيل : إن التحريف الذى ذكر الله عنهم هو تحريف المعنى بإلقاء الشبه الباطلة ، والتأويلات الفاسدة ، وجر اللفظ من معناه الحق إلى الباطل بوجوه من الحيل اللفظية ، كما يفعله أهل الأهواء والبدع من هذه الأمة بالآيات المخالفة لمذاهبهم ، وذلك أن النصوص التى فيها نعت النبى صلى الله عليه وسلم ليست ظاهرة لكل أحد ، بل هى مما يحتاج إلى التفسير والبيان من أهل العلم الذين هم أهل الخبرة بالكتاب ومعانيه ، قال وهب ابن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، وأما كتب الله فانها محفوظة لاتحول ، رواه ابن أبى حاتم ، قال ابن كثير : إن عنى وهب مابأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص ، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير ، وزيادات كثيرة ، ووهم فاحش ، وفهم كثير منهم ، بل جميعهم ، بل أكثرهم فاسد ، وأما إن عنى كتب الله التى هى كتبه عنده ، فتلك كما قال ، محفوظة لم يدخلها

شيء ، انتهى . قلت : لايخفى أن كلام وهب لاينفي وقوع الزيادة فيها ، كما لاينفي التغيير في التراجم باللغات التي نقلت إليها ، وإنما يدل على عدم تغيير ألفاظها الأصلية التي بها نزلت ، والله أعلم .

إذا عرفت ذلك فلا يلزم من وقوع التغيير في بعض ألفاظ نصوص الإنجيل قبل ظهور نبينا صلى الله عليه وسلم أن يكون المغير قد علم مايكون منه ، إذ يمكن أن يقع ذلك جهلا ممن أبرز هذه الكتب إلى النصارى ، فانه كما علمنا يقيناً أنهم زادوا فيها ، فلا يستبعد أن يكونوا نقصوا منها ، وإن لم يكن ذلك منهم عن تعمد ، حيث غلب عليهم الجهل والضلال وعدم التميز بين الصحيح والكذب ، وأما بعد مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم فالتغيير ممكن أيضاً ، حيث أن أمة الضلال قد بنوا دينهم على ماتهوى أنفسهم ، وكلهم متفقون على الكفر بخاتم الرسل ، إلا من هداه الله منهم من خيارهم الذين أسلموا فيمكن أن يكونوا غيروا نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، لاسيما وكتابهم ليس انتشاره كانتشار القرآن حتى يستحيل الاتفاق على تغييره ، فيحتمل أن يكون في تلك الأعصار عند جماعة محصورين فيمكن اتفاقهم على الكذب والتبديل ، ثم إن فيما بأيديهم من نعوته صلى الله عليه وسلم ونعوت أمته ، مما يذكر بعضه إن شاء الله مايكفي حجة على المعاند ، فانها أدلة قاطعة لامحيد عنها ، وقد قال الله تعالى في كتابه الذي أنزله على هذا النبي الكريم : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً

عندهم فىالتوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، والذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ولا ريب أنه لو لم يكن مكتوبا عندهم لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله ، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات ، والعاقل لايسعى فيما يوجب نقصان حاله ، وينفر الناس عن مقاله ، فلما قال لهم عليه السلام هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكوراً فى التوراة والإنجيل ، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته، ولكن أهل الكتاب كما قال الله تعالى : ﴿ يكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ و ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ وإلا فهم قاتلهم الله قد عرفوا محمداً صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، ووجدوه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

قال شيخ الإسلام أبو العباس : وقد ناظرنا غير واحد من أهل الكتاب ، وبينا لهم تلك الدلائل ، فأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف ، وصاروا يناظرون أهل دينهم ، ويبينون لهم ماعندهم من الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا من الحكمة فى إبقاء أهل الكتاب بالجزية ، إذ هم من الشواهد والدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعندهم من الشواهد على ماأخبر به من الإيمان بالله واليوم الآخر مايبين

أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بالدين الذى بعث الله به الرسل قبله .
وقد روى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن حمزة بن عبد الله بن سلام عن جده عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه لما سمع بمخرج النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، خرج فلقيه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أنت ابن سلام عالم يثرب ؟ قال : نعم ، قال : ناشدتك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد صفتى فى كتاب الله ؟ قال : أنسب ربك يا محمد فارتج النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبرئيل : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ قال له ابن سلام : أشهد أنك رسول الله ، وأن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان ، وإنى لأجد صفتك فى كتاب الله ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى تستقيم به الملة المعوجة ، حتى يقولوا : لا إلـٰه إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً » .

وأخرج البيهقى ، وأبو نعيم عن أم الدرداء امرأة أبى الدرداء رضى الله عنهما قالت : قلت لكعب : كيف تجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ؟ قال : كنا نجده موصوفا فيها : محمد رسول الله اسمه المتوكل ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق وأعطى المفاتيح ليبصّر الله به أعيناً عوراً ، ويسمع به آذاناً صماً ، ويقيم به السنة المعوجة حتى يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، يعين المظلوم ، ويمنعه من أن يستضعف .

وفى " صحيح البخارى " عن عطا بن يسار ، قال : لقيت عبدالله عمرو ابن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أجل . والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ . ولا صخاب فى الأسواق ، ولايجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو . أو يصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً .

وفى أثر رواه ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه اليمانى أن الله أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له : شعيا ، أن قم فى قومك بنى إسرائيل فانى منطق لسانك بوحى أو نعت أمياً من أميين ، أبعثه ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، أبعثه مبشراً ونذيراً ، لا يقول الخنا أفتح به أعيناً كمهاً . وآذناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، أسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى أمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة . وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعدالفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتته ، استنقذ به فئاما من الناس عظيمة من المهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قام الجارود فأسلم . وقال : والذى بعثك بالحق لقد وجدت وصفك فى الإنجيل ، ولقد بشر بك ابن البتول . أخرجه البيهقي .

ولنذكر من نصوص التوراة والإنجيل مما هو الآن موجود بأيدى اليهود والنصارى ، مما يدل على نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ونعوته وصفاته ماهو دليل على ماوراءه ، ومصداق ماتقدم ذكرنا له .

فمن الدلائل فى الإنجيل على ذلك ماورد فى الفصل الذى أشار إليه النصرانى ، وهو - الفصل الرابع عشر - من إنجيل يوحنا الذى يرويه عن المسيح عليه السلام ، قال فيه : " إن كنتم تحبونى فحافظوا على كلامى ، وأنا ألتمس الأب ، فيرسل إليكم فارقليط آخر ليمكث معكم إلى أبد الآبدين " فهذا من الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه يدل على أن الله سيبعث إليهم من يقوم مقامه ، وينوب عنه فى تبليغ رسالة ربه ، وسياسة خلقه منابه ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، فهل هذا إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف النصارى فى تفسير الفارقليط ، فقيل : هو الحامد ، وقيل : المخلص ، فان وافقناهم على أنه المخلص اقتضى أن المخلص رسول يأتى لخلاص العالم ، وذلك من غرضنا . لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر ، ويشهد له قول المسيح عليه السلام فى الإنجيل : " إنى جئت بخلاص العالم ، فاذا ثبت أن المسيح هو الذى وصف نفسه بأنه مخلص العالم ، وهو الذى سأل لهم فارقليط آخر ، ففى مقتضى اللفظ مايدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتى فارقليط آخر ، وإن وافقناهم على

القول بأنه الحامد ، فأى لفظ أقرب إلى أحمد ، ومحمد من هذا ، وهو موافق لقوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ .

قال ابن ظفر : وفى الإنجيل مما ترجموه مايدل على أن الفارقليط الرسول ، فانه قال : إن هذا الكلام الذى تسمعونه ليس هو لى ، بل الأب الذى أرسلنى بهذا الكلام لكم ، وأما الفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى باسمى ، فهو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ماقلته لكم ، فهل بعد هذا بيان ؟ أليس هذا صريحاً فى أن الفار قليط رسول يرسله الله ، وهو روح القدس ، وهو يصدق بالمسيح ، ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله ، وليس بإلـه ، وهو يعلم الخلق كل شىء ، ويذكرهم كل ماقاله المسيح عليه السلام لهم ، وكل ما أمرهم به من توحيد الله .

وأما قوله : أبى ، فهذه اللفظة مبدلة محرفة ، وليست منكرة الاستعمال عند أهل الكتابين إشارة إلى الرب سبحانه وتعالى ، لأنها عندهم لفظة تعظيم يخاطب بها المتعلم معلمه الذى يستمد منه العلم . ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالآباء الروحانية ، ولم يزل بنو إسرائيل و بنو عيصو يقولون : نحن أبناء الله لسوء فهمهم عن الله تعالى .

وأما قوله : يرسله أبى باسمى ، فهو إشارة إلى شهادة المصطفى صلى الله عليه وسلم بالصدق والرسالة ، وما تضمنه القرآن من مدحه وتبرئته مما افترى فى أمره .

قال فى المواهب : وفى " ترجمة أخرى للإنجيل فى وصف الفارقليط إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ، بل يتكلم بكل مايسمع ، يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث" ، وهو عند ابن ظفر بل بلفظ : فاذا جاء روح القدس ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل مايأتى ، وهو يمجدنى ، فقوله : ليس ينطق من عنده ، وفى الرواية الأخرى ، ولايقول : من تلقاء نفسه ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بكل مايأتى من الله الذى أرسله ، وهذا كما قال الله تعالى فى حقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ﴾ وقوله : وهو يمجدنى ، فلم يمجده حق تمجيده إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه وصفه بأنه رسول الله وبرأه ، وبرأ أمته عليهما السلام مما نسب إليهما ، قال ابن ظفر : ومن الذى وبخ العلماء على كتمان الحق ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، وبيع الدين بالثمن البخس ، ومن الذى أنذر بالحوادث ، وأخبر بالغيوب إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ ، انتهى .

وروح القدس من أسمائه عليه الصلاة والسلام ، وبكل منهما جاء الإنجيل . وكذلك روح الحق ، كما ذكره صاحب " المواهب " وقد سمى الله سبحانه الكتاب الذى أنزله عليه روحا ، فقال : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا . ماكنت تدرى ما الكتاب ، ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ وقد قيل فى تفسير الفارقليط : معناه روح الحق ، وفى " نهاية ابن الأثير ـ فى صفته عليه الصلاة والسلام " أن اسمه فى الكتب

السالفة فارقليط، أي يفرق بين الحق والباطل، قال: ومنه الحديث: «محمد فرق بين الناس» أي يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه، وللنصارى فى تفسير روح القدس من الكلام الباطل ماهو مقتضى كفرهم بالله وشركهم به، تعالى الله عما يشركون، فقد عرفت بما ذكرناه من النص الذى بأيديهم فى ذكر الفارقليط أنه من أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. لايحتمل وجهاً آخر، وبذلك تعلم أن إحالة النصرانى صفته صلى الله عليه وسلم التى ادعاها المسلمون فى الفصل الذى ذكره على ماقد محاه النصارى مغالطة، وتعمية عن الدلالة التى قررناها، وهذا من تمويههم على ضعفاء العقول، كما هو دأبهم فى كل نص فى صفته صلى الله عليه وسلم.

ومن الأدلة فى الإنجيل ماورد فى الفصل الثالث من إخبار الرسل، وهو أحد الأناجيل التى بأيدى النصارى مما يروونه عن المسيح عليه السلام، ولفظه: أن موسى قال: إن الرب إلـٰهكم، يقيم لكم نبياً من إخوتكم مثلى، له تسمعون فى كل مايكلمكم به، وتكون كل نفس لاتسمع ذلك النبي تستأصل من بين القوم. وهذا النص أيضاً فى سفر الاستثناء من التوراة، وهو صريح فى الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد حرفه اليهود والنصارى، وتأوّلوه على غير تأويله، فزعمت اليهود أن المراد به يوشع بن نون، وزعمت النصارى أن المراد به المسيح، ودعوى الكل واضحة البطلان، فانه قال: من إخوتكم. والخطاب لبنى إسرائيل، ولو كان المراد يوشع أو عيسى لكان من أنفسهم، لأنهم من بنى إسحاق، فدل على أن هذا النبي الموعود به ليس من أنفسهم، بل من إخوتهم.

وهو من بنى إسماعيل . وأيضاً فقد وصف هذا النبي بقوله : مثلى ، ولفظ هذا النص فى التوراة مما ترجموه أن الله تعالى قال لموسى : وسأقيم لهم نبياً مثلك من إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيقول لهم كل ماأمرت به . فهو صريح فى أن هذا النبي الموعود به مثل موسى ، وقد قال فى التوراة : لا يقوم فى بنى إسرائيل أحد مثل موسى ، وفى ترجمة أخرى مثل موسى لا يقوم فى بنى إسرائيل أبداً ، فتعين أن يكون المراد به محمداً صلى الله عليه وسلم ، لأنه كفؤ موسى عليه السلام ، فانه ماثله فى منصب الدعوة والتحدى بالمعجزة ، وشرع الأحكام ، وإجراء النسخ على الشرائع السالفة . وقوله تعالى : وأجعل كلامى فى فمه ، صريح فى أن المقصود به محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن معناه أوحى إليه بكلامى ، فينطق به على نحو ماسمعه ، ولا أنزل عليه صحفاً ، ولا ألواحا ، لأنه أمىّ لايحسن أن يقرأ المكتوب ؛ ويدل على فساد تأويل اليهود أيضاً أن يوشع ليس كفؤاً لموسى عليهما السلام ، بل كان خادماً له فى حياته ، ومؤكداً لدعوته بعد وفاته ، فكيف يصح أن يوصف بأنه مثل موسى ، وعلى فساد تأويل النصارى قوله : كل نفس لاتسمع ذلك النبي تستأصل من بين القوم ، فان الذى عليه النصارى أن لا يتعرض للنصرانى إذا انتقل عن دينه إلى غيره ، سواء إلى الإسلام ، أو اليهودية ، أو غير ذلك . وكذلك المرأة إذا زنت لايتعرضون لها ، ويزعمون أن شريعة المسيح ليس فيها إقامة الحدود ، والجهاد ليس مشروعا فى ملتهم ، بل هم به عصاة ، وهذا كله مناقض لهذا النص ، فدل على بطلان كون المراد به المسيح ، بل هو

مطابق لصفة محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته ، فان مخالفة بعض أوامره يوجب سفك الدم ، وإزهاق النفوس ، فتعين أنه هو المراد .

ومن ذلك ماورد فى رسالة يهودا من الإنجيل ، وهو فى صحيفة زكريا من كتب العهد العتيق الذى عند اليهود ، قال : إن الرب قد جاء أو سيجىء بربوات مقدسة ليقضى على جميع الناس ، ويوبخ المنافقين لجميع أعمالهم التى نافقوا بها ، وجميع الأقوال الصعبة التى تكلم بها عليه الخاطئون ؛ وهذا من الأدلة الواضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وزعمت النصارى أن المراد به المسيح ، وهو زعم باطل ، فانه لادلالة فيه على المسيح بوجه ، لأن هذا المنصوص عليه بالإتيان بالربوات المقدسة ، والقضاء على جميع الناس ، وتوبيخ المنافقين ، ينبغى أن يقوم بحد الحديد والبأس الشديد ، ولا دلالة فى شىء من هذه الصفات على المسيح عليه السلام ، لأنه لم يأت إلا فى زىّ يخالف هذا الوصف ، ولم يشرع له الجهاد فى ملته ، وأما دلالته على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فواضحة لاتحتاج إلى مزيد تأمل ، فانه هو المتصف بهذه الصفات ، كما فى الحديث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ، أخرجه الإمام أحمد فى "المسند" وهو الذى وثب بربوات العرب ، وقضى على جميع الناس بعموم رسالته ، ووبخ المنافقين ، وتوبيخه المنافقين ـ والله أعلم ـ يشتمل توبيخه المنافقين من

أتباعه ، ويشمل أيضاً توبيخه لليهود والنصارى ، فانهم يدعون أنهم يؤمنون بالكتب التى بأيديهم ،ويتبعون أنبياءهم ، وقد كذبوا فى ذلك ، بل نقضوا العهود والمواثيق ، وكذبوا بالحق المصدق لما فى أيديهم ، فجاء القرآن بتوبيخهم وعيبهم بالغضب والضلال واللعن ﴿ فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾ .

ومن ذلك ماورد فى الفصل الحادى والعشرين من إنجيل متى ، وهو أيضاً فى إنجيل مرقس ، قال : ثم طفق يضرب لهم الأمثال ، ويقول : اغترس رجل كَرْماً ، وحوطه بحائط ، وبحث فيه معصرة ، وبنى برجاً ، وأجّره للفلاحين ، وسافر ، ولما جاء الموسم أرسل إلى الفلاحين خادماً لينال من ثمرة الكرم شيئاً ، فأخذوه وضربوه ، وردوه خائباً ، فأرسل إليهم خادماً ثانياً فرجموه وشجوه وردوه محقراً ، ثم أرسل ثالثاً فقتلوه ، وكثيرين آخرين ضربوا بعضهم ، وقتلوا بعضاً ، وكان قد بقى له ابن وحيد هو محبوبه ، فأرسله إليهم آخر الأمر ، وقال : إنهم سيكرمون ابنى ، فقال الفلاحون فيما بينهم : إن هذا الوارث ، فهلموا بنا نقتله ، فيصير الميراث لنا ، فأخذوه وقتلوه ، وأخرجوه خارج الكرم ، فماذا يفعل رب الكرْم ؟ نعم إنه سيأتى ، ويهلك الفلاحين ، ويسلم الكرْم إلى آخرين ، ألم تقرأوا هذا المرقوم قوله : إن الحجرة التى رفض البناءون صارت رأس الزاوية ، هذا هو ماوقع عند الرب ، وهو فى نظركم عجيب .
فسياق هذا المثل من أظهر الأمثال المضروبة فى الإنجيل لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أول الفصل فى إنجيل مرقس ، وتقرير دلالته

أن الغارس هو البارى تعالى ، والمغرسة الدنيا ، والكرْم بنو آدم ، والحائط الناموس الذى جاءت به الرسل ، والمعصرة الأحكام الناموسية ، والفلاحون الذين بلغتهم الدعوة ، فالذى ضرب به المثل بالخادم الأول يناسب حال موسى عليه السلام ، والثانى يناسب حال يوشع بن نون ، والثالث يناسب حال بعض أكابر الأنبياء بعده ، والمجهولون هم المتوسطون من موسى إلى زمان عيسى عليهم السلام ، والابن الوحيد يناسب حال عيسى عليه السلام ، لأنه آخر أنبياء بنى إسرائيل ، والآخرون الذين يسلم إليهم الكرم هم العرب الذين بعث فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى قوله : ويسلم الكرْم إلى آخرين فضيلة عظيمة لهذه الأمة ، توافق قول الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وكما فى "مسند الإمام أحمد" و "جامع الترمذى" و "سنن ابن ماجه" و "مستدرك الحاكم" من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها ، وأكرمها على الله عز وجل » .

وأخرج الترمذى من حديث معاذ ، وأبى سعيد نحوه يوضح المعنى الذى قررناه ماختم به المثل من قوله : ألم تقرأوا هذا المرقوم ، إلى آخره ، فانه إشارة إلى ماورد فى الفصل الثامن والعشرين من صحيفة أشعيا عليه السلام ، ولفظه ـ كما فى بعض التراجم ـ أن تلك الحجرة التى رفض البناءون صارت رأس الزاوية ، هذا هو عمل الرب وهو فى أعيننا عجيب ، وقد ذهب النصارى إلى تأويل هذا النص فى شأن المسيح عليه السلام ،

وهى دعوى باطلة ، فان سياق الكلام يأباه ، والوصف يخالفه ، فان المسيح لم يكن فى بنى إسرائيل محتقراً ، ولا مرفوضاً من حيث كونه من بنى إسرائيل ، وإنما يدل دلالة ظاهرة على محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو من بنى إسماعيل ، وهم كانوا مرفوضين عند بنى إسرائيل ، مع كونهم إخوتهم ، ولا يرونهم أهلا للفضائل .

وسياق الكلام يدل على أن تلك الحجرة كانت مرفوضة فى زمان موسى والأنبياء بعده ، والنصارى لايدعون هذه الصفة فى المسيح فدل على ماقلناه ، وقيل : ماعبر عنه بالحجرة المرفوضة من أجل ماجرى لسارة مع إبراهيم عليهما السلام فى شأن إسماعيل وأمه من أجل غيرة سارة ، فنقلهما بأمر الله تعالى إلى مكة ، فالله أعلم .

ورأس الزاوية هو ملتقى الخطين ، فيكون هو الخاتم ، لأن الخطين يذهبان إلى حيثما يذهبان إليه ، فيكون ملتقاهما هو منتهاهما ، وهذا هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى ختم الله به رسله .

وفى معنى هذا المثل مارواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مثلى ومثل الأنبياء قبلى ، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » أخرجه البخارى ، ومسلم فى "صحيحيهما" وقوله : هذا ماوقع عند الرب ، وهو فى نظركم عجيب ، وفى بعض التراجم : هذا هو عمل الرب جواب سؤال مقدر تقديره هل يمكن أن تستقر

الحجرة المرفوضة فى رأس الزاوية ، أو هل يجوز أن يقوم من أولاد الجارية هاجر نبي ؟ فيكون الجواب : هذا هو عمل الرب ، ومما يزيد ذلك بيانا ماجاء فى التوراة من بيان ماعهد الله به إلى إبراهيم عليه السلام فى ابنه إسماعيل ، كما جاء فى ـ سفر التكوين ـ قال فيه : " وأما إسماعيل فانى قد سمعت دعاءك له ، وها أنا ذا قد باركت فيه ، وجعلته مثمراً ، وسأكثره تكثيراً ، وسيلد اثنى عشر ملكا ، وسأصيرهم أمة عظيمة " ، وقد ذهب اليهود والنصارى إلى أن المراد بالملوك الاثنى عشر ، أولاد إسماعيل الاثنى عشر ، وهو باطل لأنهم لم يتملكوا ، ولم يدّعوا الملكية ، ولكن هذا مطابق لما فى " الصحيحين " وغيرهما من حديث جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثنى عشر خليفة ، كلهم من قريش » ولاريب أن بنى إسماعيل إنما صاروا أمة عظيمة بحيث ارتفع شأنهم بين الأمم ، وظهرت فيهم الفضائل التى هى ثمرة البركة الموعودة من الله تعالى لإبراهيم إنما حصل ذلك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً فلو كان كما يدعى اليهود والنصارى لعنهم الله من أن العرب تابعوا متقولا على الله كاذباً عليه ، وحاربوا أولياء الله وأتباع رسله ، وانتهكوا حرماتهم هذه القرون المتطاولة ، لكان ذلك مناقضاً لذلك الوعد الجميل من الله لإبراهيم عليه السلام ، فقد ظهر أن هذا النص من أوضح الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الأدلة فى الإنجيل أيضاً ماجاء فى رسالة بولس إلى أهل رومية ، وهو أيضاً فى صحيفة أشعيا من العهد العتيق ، قال : سأدعوا الذين ليسوا

من شيعتي لي شيعة . والتي ليست بمحبوبتي لي محبوبة ، وقد ادعى النصارى أن ذلك في شان أتباع المسيح ، وادعوا أن رسالته عامة ، وهو خلاف ماتواتر عليه نص الإنجيل ، كما ورد في الفصل الخامس عشر من إنجيل متى ، قال " إني لم أُرسَل إلا لغنم بني إسرائيل الضالة " وفي الفصل العاشر منه أيضاً أن المسيح لما أرسل الحواريين للدعوة ، قال : سيروا إلى غنم بني إسرائيل الضالة ، إلى غير ذلك مما دل على أن رسالته مختصة ببني إسرائيل ، وهو موافق لما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

إذا عرفت هذا ، فلا ريب أن ذلك الوصف إنما ينطبق على العرب ، فانهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم من أجهل الخلق بالله ، وبما جاءت به الرسل ، لايعرفون كتاباً ، ولا يؤمنون بالرسل ، ولا يصدقون بالبعث ، فمقتضى هذا النص أن هؤلاء الغافلين الجهال بالله ، وما جاءت به رسله سيجعلهم الرب تعالى من شيعة الحق ، ويجعلهم له أهلا ، وينقلهم إلى القرب منه ، ويكونون له أحباباً ، ومما يوافق هذا النص ، ويوضح دلالته ، ماورد في الفصل العاشر من رسالة بولس إلى أهل رومية ، قال : إني سأعيركم بأمة أخرى ، وأغيظكم بأمة لافهم لها ، انتهى .

وهذا النص أيضاً في سفر الاستثناء من التوراة ، وقد ساقه بولس في جملة ماوعظ به اليهود حتى يرتدعوا عما كانوا عليه ، ويذكروا يوم يعيرهم الله بأمة أخرى ، ويغيظهم بأمة لافهم لها ، وهذا الوصف لاينطبق على غير العرب ألبتة ، وإن حمله النصارى على

من دخل فى النصرانية من اليونان والروم ، فهو باطل ، فان عند أولئك علوماً كثيرة ، وأفهاماً قوية ، بل هم أعلم من اليهود فى جميع العلوم العقلية بكثير ، وفيهم الحكماء الذين استنبطوا فنوناً كثيرة ودونوها ، وعرفت منهم ، وأما العرب فما كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم يتعاطون شيئاً من العلوم العقلية أو النقلية ، وغاية ماعندهم علم الشعر والبلاغة ، وإن كانوا قد منحوا من صحة الأذهان ، وقوة العقول فى أصل الجبلة مافاقوا غيرهم ، لكن غلبت عليهم الغفلة ، فاستولى عليهم الجهل ، فدل على أنهم المعنيون بهذا النص .

ومن هذا المعنى فى صفة هذه الأمة ماجاء من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى قال لعيسى ابن مريم : إنى باعث بعدك أمة إن أصابهم مايحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم مايكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ، ولا علم ، قال : يارب كيف ولا حلم ، ولا علم ، قال : أعطيهم من حلمى وعلمى » ، أخرجه البزار فى "مسنده" وغيره ، وأيضاً فلم يغظ اليهود أمة ، كما أغاظهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

ومن ذلك ماورد فى الفصل العاشر من رسالة بولس إلى أهل رومية من كتب النصارى ، وهو أيضاً فى صحيفة أشعيا من كتب اليهود إنى وجدت عند من لم يطلبنى ، وظهرت عند من لم يسأل عنى ، وقد تأول النصارى هذا النص فى اليونانيين الذين دخلوا فى النصرانية زمن الفترة ، وهو من جنس تحريفهم للنص قبله ، وإلا فهو صريح فى حق العرب ، كما أشرنا فى الذى قبله ، وأيضاً فاليونان لهم من الكلام فى الإلـٰهيات ،

والبحث عنها ماهو مشهور لكن بالطرق العقلية ، لم يأخذوا ذلك من جهة الأنبياء ، وأما العرب فكانوا فى غفلة عن ذلك ، سوى مابقى فى فطرهم من الإقرار بالله ، وأنه خالق كل شىء ، ومما يوضح دلالة هذا النص سياقه فى صحيفة أشعيا ، ولفظه : " إنى أُصبت عند من لم يسأل عنى ، ووُجدت عند من لم يطلبنى ، وقلت لأمة لم تدع باسمى : أنظرى إلى ، أنظرى إلى ، لأنى قد أظهرت يدى طول النهار إلى فئة طاغية ، سالكة فى سبيل سيء ، ممتثلة لأهوائها ، وفئة أى فئة تغيظنى أمام وجهى ، وتقرب قرابينها فى البساتين ، وتبخر فى مباخر الشياطين التى تسكن المقابر ، وتأكل لحم الخنازير ، ومرق النجاسة فى أوانيها " ، فمن قوله : أصبت ، إلى قوله : أنظرى إلىّ ، إشارة إلى صفة العرب ، وبعثه محمد صلى الله عليه وسلم فيهم بالهدى ، ودين الحق ؛ ومن قوله : لأنى ، إلى قوله : ممتثلة لأهوائها ، إشارة إلى اليهود ، وقد جاء القرآن من وصفهم بما يوافق هذا ، كوصفهم باتباع الأهواء ، وتركهم الحق على علم ، وغير ذلك من أخلاقهم الذميمة ، ومن قوله : وفئة ، إلى قوله : فى أوانيها ، إشارة ظاهرة فى حق النصارى متضمنة وصفهم بالضلال والجهل ، بما هو طبق صفتهم فى القرآن ، فقد تضمن هذا النص وصف الأمم الثلاث بمثل ماوصفهم القرآن ، وجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان دليلا من أدلة نبوته ، كما هو دليل على صدق من قبله ، حيث تطابق الوصفان من غير تواطؤ ولا اقتباس .

ومن ذلك ماورد فى الفصل الثالث عشر من إنجيل متى ، والثامن من إنجيل لوقا : " أنظروا إلى زارع خرج للزرع ، وبينما هو يزرع

سقط بعض البذر فى الطريق ، فجاءت الطيور فلقطته ، وسقط بعضه على الصخر حيث لم يكن التراب كثيراً ، وفى ساعته نبت ، لأنه لم يكن له فى الأرض عمق ، ولما طلعت الشمس احترق ويبس ، لأنه لم يكن له أصل ، وسقط بعضه فى الشوك ، فنما الشوك وخنقه ، وسقط بعضه فى الأرض الطيبة ، فأثمر مائة ضعف ، وبعضه ستين ، وبعضه ثلاثين ، فمن كانت له أذن سامعة فليسمع " .

وهذا المثل - والله أعلم - يتضمن وصف الأمم الثلاث بما يظهر للمتأمل ، والمقصود منه قوله : وسقط بعضه فى الأرض الطيبة ، إلى آخره ، فانه موافق لما أخبر الله به فى صفة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل ، كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ فذكر صفاتهم فى التوراة والإنجيل ، فكان فى هذا أعظم البراهين على صدق ماجاء بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وأن هؤلاء هم المذكورون فى الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم ، لا كما يقول الكفار عنهم أنهم متغلبون ، طالبوا ملك ودنيا ، ولهذا لما رآهم نصارى الشام ، وشاهدوا هديهم ، وسيرتهم ، وعدلهم وعلمهم ، ورحمتهم ، وزهدهم فى الدنيا ، ورغبتهم فى الآخرة قالوا : ماالذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، فكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة

وفضلهم من الرافضة أعدائهم ، والرافضة تصفهم بضد ماوصفهم الله به فى هذه الآية وغيرها .

فهذه عدة أدلة مما جاء به الإنجيل فى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر صفته ، وصفة أمته ، وقد ذكر العلماء كثيراً فى هذا المعنى اقتصرنا منها على ماقدمناه إيثاراً للاختصار .

فصـــــل

ومن الأدلة الواردة فى التوراة ماذكره غير واحد من العلماء : منهم ابن قتيبة فى "أعلام النبوة" : تجلى الله ، وفى رواية : جاء الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، فسينا هو الجبل الذى كلم الله فيه موسى عليه السلام ، وساعير هو الجبل الذى أرسل الله فيه عيسى عليه السلام ، وظهرت فيه نبوته ، وجبال فاران هو اسم عبرانى وليس ألفه الأولى همزة ، وهى جبال بنى هاشم التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث فى أحدها ، وفيه فاتحة الوحى ، قال ابن قتيبة : وليس بعد هذا غموض ، لأن مجىء الله من سينا إنزاله التوراة على موسى عليه السلام بطورسينا ، فيجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح عليه السلام ، والمسيح يسكن من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها سمى من اتبعه نصارى ، وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على عيسى عليه السلام ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من فاران بإنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وهى جبال مكة . وليس بين المسلمين وأهل الكتاب اختلاف أن فاران

هى مكة ، وإن ادعى مدع أنها غير مكة ، قلنا : أليس فى التوراة أن الله أسكن هاجر وإسماعيل فاران ، وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران ، والنبى الذى أنزل عليه كتاباً بعد المسيح عليه السلام .

قال شيخ الإسلام أبو العباس : وهذه الكتب نور الله وهداه ، ففى الأول جاء ، والثانى أشرق ، والثالث استعلن ، فمجىء التوراة كطلوع الفجر ، والإنجيل مثل إشراق الشمس ، والقرآن بمنزلة ظهور الشمس فى السماء ، فظهر به نور الله فى المشارق والمغارب أعظم مما ظهر بالكتابين ، ولهذا سماه الله تعالى سراجا منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً ، والخلق محتاجون إلى الأول أعظم من الثانى ، وهذه الثلاثة أقسم الله بها فى قوله : ﴿ والتين والزيتون ، وطور سنين ، وهذا البلد الأمين ﴾ فالأول الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح ؛ والثانى الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، والبلد الأمين مكة ، ولما كان مافى التوراة خبراً عنها أخبر بها على الترتيب الزمانى ، وأما القرآن فأقسم بها تعظيما لشأنها ، فأتى بها على وجه التدريج درجة بعد درجة ، فهو من باب الترقى إلى الأعلى مما دونه ، ومن ذلك ماجاء فى زبور داود عليه السلام فى مزمور أربعة وأربعين : فاضت النعمة من شفتيك ، من أجل هذا بارك الله لك إلى آخر الأبد ، تقلد أيها الجبار بالسيف ، فان شريعتك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك . وسهامك مسنونة ، وجميع الأمم يخرّون تحتك ، فهذا من أظهر الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالنعمة

التى فاضت بين شفتيه هو القول الذى يقوله ، وهو الكتاب الذى أنزل عليه ، والسنة التى سنها ، وليس يتقلد بالسيف من الأنبياء بعد داود إلا محمداً صلى الله عليهما وسلم ، وقرنت شرائعه بالهيبة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالرعب » وهو صريح أنه صاحب شريعة وسنة ، وأنها تقوم بسيفه ، وخاطبه بلفظ الجبار إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله ، وأنه يجبر الخلق بالسيف على الحق ، ويصرفهم عن الكفر جبراً ، بخلاف المستضعف ، فهو نبى الرحمة ، ونبي الملحمة ، وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم ، بخلاف من كان دليلا للطائفتين من النصارى أو عزيزاً على المؤمنين من اليهود ، بل مستكبر ، وجاء فى الزبور أيضاً فى صفاتهم يكبرون الله بأصوات مرتفعة ، ويسبحونه على مضاجعهم ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين .

قال شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية : وهذه الصفات إنما تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى آذانهم ، وعلى الأماكن العالية ، كما قال جابر : كنا إذا علونا كبرنا ، وإذا هبطنا سبحنا ، فوضعت الصلاة على ذلك ، وهم يكبرون بأصوات مرتفعة فى أعيادهم ، وفى أيام منى ، وعقيب الصلوات ، وعلى قرابينهم ، وعلى الصفا والمروة ، وغير ذلك ، وليس هذا لغيرهم ، فان موسى يجمعهم بالبوق ، والنصارى لهم ناقوس ، والسيوف ذات الشفرتين هى العربية التى فتح بها الصحابة وأتباعهم البلاد ، وقوله : يسبحونه على مضاجعهم ، أى يذكرون الله حتى فى هذه الحال ، ويصلون فى البيوت

على المضاجع ، بخلاف أهل الكتاب ، والصلاة أعظم التسبيح ، واليهود لايكبرون بأصوات مرتفعة ، ولا بايديهم سيوف ذات شفرتين ، بل هم مغلوبون مع الأمم ، والنصارى تعيب من يقاتل الكفار ، وفيهم من يجعله من معايب محمد وأمته .

ومن ذلك ما جاء فى كتاب أشعيا عليه السلام من البشارة به صلى الله عليه وسلم يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحيي القلوب الغلف ، وما أعطيه لايعطى أحد مشفح ، يحمد الله حمداً جديداً ، فمشفح : محمد بغير شك ، كما قال ابن القيم ، قال : واعتباره أنهم يقولون : شفحاً لاها ، إذا أرادوا أن يقولوا : الحمد لله ، وإن كان الحمد شفحاً ، فمشفح محمد .

والأدلة على نبوته صلى الله عليه وسلم من الكتب التى بأيدى اليهود والنصارى أكثر مما ذكرناه ، فلو أنهم تركوا الهوى ، واتبعوا الهدى ، وصدقوا كتب الله ، لعرفوا أن محمداً رسول الله ، وأن نعوته وصفاته وصفات أمته مسطرة فى الكتب التى بأيديهم ، وأنه لاعذر لهم فى إصرارهم على الكفر به ، ومخالفته ، ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ؛ على أنا لو لم نأت بهذه الأنباء والقصص من كتبهم ، ألم يك فيما أودع الله عز وجل القرآن دليل على ذلك ؟ وفى تركهم جحد ذلك وإنكاره ، وهو يقرعهم به دليل على اعترافهم له ، فانه يقول : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ويقول حكاية عن المسيح عليه السلام : ﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من

بعدى اسمه أحمد ﴾ ويقول : ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ ويقول : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ وكما قد كان صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه ، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج ، ثم يحيل ذلك على ماعندهم ، وما فى أيديهم ، ويقول : من علامة نبوتى وصدقى أنكم تجدونى عندكم مكتوباً ، وهم لايجدونه كما ذكر ، وليس ذلك مما يزيدهم عنه بعداً ، وقد كان غنياً عن أن يدعوهم بما ينفرهم ، ويستميلهم بما يوحشهم ، ولو أنهم وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من إتلاف النفوس والأموال ، وتخريب الديار ، وكم أسلم من علمائهم ، كعبد الله ابن سلام ، وابنى سعنة ، وابن يامين ، ومخيريق ، وكعب الأحبار ، وأشباههم من علماء اليهود ، وبحيرا ، ونسطورا ، وصاحب بصرى ، وأسقف الشام ، والجارود العبدى ، وسلمان الفارسى ، ونصارى الحبشة ، وأساقف نجران ، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى ، وكلهم قد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوى . فلولا أنهم يعلمون صدقه فيما قال ، ويجدون صفته فى الكتب التى بأيديهم ، وإلا لكان ذلك مما ينفرهم ويبعدهم عنه .

وقد اعترف بنبوته هرقل ، وصاحب دومة عالما النصارى ، ورئيساهم . والمقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وابن أخطب ، وأخوه ، وكعب بن أسد ، والزبير بن باطيا ، وغيرهم من علماء أهل الكتاب ممن حمله حب الرياسة والحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء ، والأخبار فى هذا كثيرة لاتنحصر ، وقد قال الحارث بن عوف لعيينة

ابن حصن ، ورآه جاداً فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يحصل على شيء : ألم أقل لك إنك توضع فى غير شيء ، والله ليظهرن محمد على مابين المشرق والمغرب ، يهود كانوا يخبروننا بهذا ، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول : إنا نحسد محمداً على النبوة ، حيث خرجت من بنى هارون ، وهو نبى مرسل ، ويهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذبحان : واحد بيثرب ، وآخر بخيابر ، قال الحارث : قلت لسلام : يملك الأرض جميعاً ؟ قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى ، وما أحب أن تعلم بقولى فيه .

ومن هذا استفتاح اليهود على مخالفيهم عند القتال بمجيئه ، كما قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ﴾ قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم ، قالوا : فينا والله ، وفيهم - يعنى اليهود الذين كانو جيرانهم - نزلت هذه القصة ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ﴾ إلى قوله : ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ﴾ قالوا : كنا قد علوناهم دهراً فى الجاهلية ، وكنا أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش

واتبعناه كفروا به ، يقول الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به . فلعنة الله على الكافرين ﴾ وقال ابن إسحاق : أخبرنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ماكانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداود بن سلمة : يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال بشر بن مشكم أخو بنى النظير : ماجاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكره ، فأنزل الله فى ذلك حين قولهم ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ﴾ الآية .

إذا عرفت ذلك فهو من أوضح الأدلة ، وأكبر الحجج على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم ماكانوا يستفتحون به إلا لما يعلمون من نعته وصفاته وزمانه ، فلما ظهر صلى الله عليه وسلم كفروا به حسداً وبغياً ، وجحدوا نبوته .

ولا ريب أن استفتاحهم به وجحد نبوته لايجتمعان ، فان كان استفتاحهم به لأنه نبى كان جحد نبوته محالا ، وإن كان جحد نبوته ، كما يزعمون حقاً ، كان استفتاحهم به باطلا ، وهذا مما لاجواب لأعداء الله عنه ألبتة ، سوى أن يقولوا : إن هذا الموجود ليس الذى كنا نستفتح به ، وهذا من أعظم الجحد والعناد ، فان الصفات والعلامات التى فيه طابقت ماكان عندهم مطابقة المعلوم لعلمه ، فإنكارهم أن يكون هو هذا جحد

باللسان، مع أن القلب يعرفه معرفة تامة، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ قال السدى: ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ يقول: بئسما باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، ولا حسد أعظم من هذا ﴿ فباءوا بغضب على غضب ﴾ قال ابن عباس: غضب بما كانوا ضيعوا من التوراة، وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إليهم، ثم قال: ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ لما كان كفرهم سببه البغى، ومنشأ ذلك الكبر قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ قال أبو عبدالله بن القيم فى هذه الآية: هذه حكاية مناظرة بين الرسول وبين اليهود، لما قال لهم: آمنوا بما أنزل الله، فأجابوه بأن قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ومرادهم التخصيص، أى نؤمن بالمنزل علينا دون غيره. فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين:

أحدهما: أنه إن كان إيمانكم به لأنه حق، فوجب عليكم أن تؤمنوا بما أنزل على محمد. لأنه حق مصدق لما معكم، وحكم الحق الإيمان به أين كان،

ومع من كان ، فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً ، أو الكفر الصراح ، ففى ضمن هذا الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ، ولا بالثانى ، وهذا الحكم فى كل من فرق الحق ، فآمن ببعضه ، وكفر ببعضه ، كمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض ، وكمن آمن ببعض الأنبياء ، وكفر ببعض لم ينفعه إيمانه حتى يؤمن بالجميع ، ونظير هذا التفريق تفريق من يرد آيات الصفات ، وأخبارها ، ويقبل آيات الأوامر والنواهى ، فان ذلك لا ينفعه ، لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض ، فان كانت الشبهة التى عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة ، فالشبهة التى عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أولى أن لا تكون نافعة ، وإن كانت هذه عذراً ، فشبهة من كذب ببعض الأنبياء مثلها . وكما أنه لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع الأنبياء ، ومن كفر بنبي من الأنبياء ، فهو كمن كفر بجميعهم ، فكذلك لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول ، فاذا آمن ببعضه ، ورد بعضه ، فهو كمن كفر به كله . فتأمل هذا الموضع ، واعتبر به الناس على اختلاف طرائقهم ، يتبين لك أن أكثر من يدعى الإيمان برىء من الإيمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الوجه الثانى : من النقض قوله : ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ ووجه النقض أنكم تزعمون أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ، وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم ، فلم قتلتموهم ، وفيما أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم ، فلا آمنتم بما أنزل إليكم ، ولا ما أنزل على محمد ، ثم كأنه توقع منهم الجواب : بأنّا لم نقتل من ثبتت نبوته ، ولم نكذبه . فأجيبوا على

تقدير هذا الجواب الباطل منهم، بأن موسى قد جاءكم بالبينات، وما لاريب معه فى صحة نبوته، ثم عبدتم العجل بعد غيبته عنكم، وأشركتم بالله، وكفرتم به، وقد علمتم نبوة موسى، وقيام البراهين على صدقه، فقال: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرة الأنبياء لخصومهم، انتهى.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد أخى بنى عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان سلمة من أصحاب بدر، قال: كان لنا جار من يهود فى بنى عبدالأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبدالأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سناً، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك، وأصحاب أوثان لايرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقال له: ويحك يافلان! أوتراها كائنة، إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة، ونار، ويجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذى يحلف به ولودّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطبقونه عليه، بأن ينجوا من تلك النار غداً، قالوا له: ويحك يافلان! فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، قالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إلى، وأنا من أحدثهم سناً فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: فوالله ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله، وهو حى بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغياً وحسداً، قال: فقلنا له: ويحك يافلان! ألست بالذى قلت لنا فيه ماقلت؟! قال: بلى، ولكن ليس به.

وأخرج ابن إسحاق أيضاً قصة الهيبان، وهو رجل من أهل الشام من اليهود قدم المدينة على بنى قريظة فى الجاهلية، وصف الراوى من فضله وأنهم كانوا يستقون به المطر، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت، قال: يامعشر اليهود ماترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير، إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: فقلنا: أنت أعلم، قال: فانى إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يامعشر يهود، فانه يبعث لسفك الدماء، وبسبى الذرارى والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاصر بنى قريظة، قال هؤلاء الفتية، وهم ثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة، وأسد بن عبيد، وكانوا شبابا أحداثاً: يابنى قريضة، والله إنه للنبى الذى كان عهد إليكم ابن الهيبان، قالوا: ليس به؟ قالوا: بلى، والله إنه لهو بصفته، فنزلوا، فأسلموا، فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم.

وأخرج الحاكم صاحب "المستدرك" والبيهقى فى "دلائل النبوة" من طريقه بسند لا بأس به، كما قال ابن كثير عن أبى أمامة الباهلى عن هشام بن العاص الأموى، قال: بعثت أنا ورجل أخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث، وأنه أرسل إليهما ليلا، قال: فدخلنا عليه فدعى بشىء كهيئة الربعة العظيمة، مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح، واستخرج حريرة سوداء، فنشرها فاذا فيها صورة حمراء، وإذا رجل ضخم العينين، عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه،

وإذا له ضفيرتان أحسن ماخلق الله . قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا . قال : هذا آدم عليه السلام . ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فاذا فيها صورة بيضاء ، وإذا رجل أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا نوح عليه السلام ، قال : ثم فتح بابا آخر وأخرج حريرة فيها صورة بيضاء ، وإذا فيها والله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، محمد رسول الله ، وبكينا ، قال : والله إنه قام قائماً ثم جلس . وقال : إنه لهو ، قلنا : نعم إنه لهو ، كأنك تنظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما والله إنه آخر النبيون ، ولكنى عجلته لأنظر ماعندكم ، الحديث ؛ وفيه ذكر صور الأنبياء : إبرهيم ، وموسى ، وعيسى ، وسليمان ، وغيرهم ، قال : فقلنا له : من أين لك هذه الصور ؟ قال : إن آدم سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكان فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس ، فدفعها إلى دانيال . ثم قال : أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكة ، وإنى كنت عبداً لأشركم ملكة حتى أموت ، ثم أجازنا فأحسن جوائزنا ، فسرحنا ، فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأينا ، وبما قال لنا ، وبما أجازنا ، قال : فبكى أبو بكر ، وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم .

وبالجملة : فالأخبار باعتراف كثير من اليهود والنصارى بنبوته

والإقرار بصدقه ممن قدمنا ذكرهم وغيرهم كثيرة مشهورة فى كتب الأحاديث والسير ، تركنا إيرادها قصد الاختصار .

المقام الثالث

قال النصرانى : فصل فى الترجيح بين المسيح وبين محمد ، ولنقيس الآن الخصال والأحوال المتعلقة بالشريعتين ، لننظر أيهما أشرف وأولى بأن تتبع . ووجه امتحان ذلك هو اعتبار كمال ذلك الشخص ، وتعقب أفعاله ، وتأمل سيرته وأكبر علاماتك اطراح اللذات البدنية ، والتهاون بها . فان هذا أول درجات أهل العلم ، فناهيك الأنبياء ، وبخاصة التى هى عار علينا ، كما ذكر أرسطو ، ولا سيما قذارة النكاح ، ولذلك فضح الله بها كل مدع ، ليتبين الحق للمحقين ، ولا يضلوا ، ولا يغلطوا ، وإنما يشوع فهو على مايعترف به المسلمون المسيح الموعود به فى التوراة ، وكتب الأنبياء ، ويسميه محمد بكلمة الله وروحه . ويقول : إنه لم يكن له أب من البشر ، وأما محمد فهو مولود على الطريق المعتاد به فى الطبيعة ، وكان يشوع ذا صلاح تام فى سيرته ، حتى لم يطعن فى عرضه بشىء ، أما محمد فهو صاحب الغزاة والقتال ، مغرماً بالنساء ، كثير النكاح ، وكان يشوع قد ارتفع إلى السماء ، وأما محمد ، فهو بقى محبوساً فى القبر ، فمن ذا الذى لا ينظر أيهما أولى بأن يتبع ، هذا كلامه .

فنقول ، وبالله التوفيق : لاريب أن النظر فى التفضيل إنما يكون بين شيئين متقاربين فى الفضل مع ثبوت الفضل فى كل منهما ، فيكون

النظر حينئذ نظر ترجيح ، بحسب كثرة الفضائل والمحاسن فى أحد الشقين ، ومعلوم أنه لا نسبة بوجه من الوجوه بين أنبياء الله ورسله ، وبين الكذبة على الله المتقولين ، ولا بين الشرائع التى شرعها الله تعالى ، وفرض فرائضها وحدودها على أكمل وجوه الحكمة والمصلحة ، وبين مخترعات المخلوقين ومبتدعاتهم ، إلا عند أهل الضلالة والجهالة ، كهؤلاء النصارى الذين اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل .

والمقصود أن نسبة الترجيح بين محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام وشريعتيهما دليل على اعترافه بفضل محمد صلى الله عليه وسلم وشريعته ، وهذا يلزم منه أن محمداً حق ، ودينه حق ، وإلا فأين النسبة بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، فهذا الطريق فى الترجيح إنما يتوجه مع الاعتراف بحقيقة كل من الشريعتين ، كأن يرجح المسلمون ماهو الحق من أفضلية محمد صلى الله عليه وسلم على من سواه من الرسل ، وشريعته على ماعداها من شرائع الأنبياء ، مع الإيمان بأن كلا منهما من عند الله ، وأن الله تعالى هو الذى فضل من شاء بما شاء ، ورفع بعض الرسل فوق بعض درجات ، ولكنه لما كانت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم شريعة باهرة ، وفضائلها ظاهرة ، لم يمكن الخصوم إلا الاعتراف بفضلها وفضل من جاء بها ، لما بهرهم من أنوار النبوة ؛ وبهتهم من عظمة نواميس هذه الشريعة الكاملة التى اختارها الله لخيرته من خلقه ، ولأمته خير أمة أخرجت للناس ، وجعلها حجة باقية إلى قيام الساعة ، لا يتطرق إليها النسخ ،

ولا يعتريها التبديل والتغيير الذى وقع فى الشرائع قبلها ، فلا تجتمع هذه على ضلالة ، بل لاتزال فيها طائفة على الحق ظاهرين لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله . وهم على ذلك . ولهذا المعنى الذى ذكرناه كان كل عاقل من اليهود والنصارى — كما قال شيخ الإسلام أبو العباس — يعترف بأن دين الإسلام حق ، وأن محمداً رسول الله ، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة ، بل كثير منهم يعترفون أن دين الإسلام خير من دينهم ، كما أطبقت على ذلك الفلاسفة ، كما قال ابن سينا ، وغيره : أجمع فلاسفة العالم على أنه لم يطرق العالم ناموس أعظم من هذا الناموس انتهى .

إذا عرف : هذا ، فالله سبحانه وتعالى اختار الأنبياء من ولدآدم ، وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، واختار الرسل منهم ، وهم ثلثمائة وثلاثة عشر على مادل عليه من عددهم حديث أبى ذر الذى رواه الإمام أحمد ، وابن حبان فى "صحيحه" ثم اختار منهم أولى العزم الخمسة ، وهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك . ومن نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم﴾ وذكرهم أيضاً فى سورة الشورى ، ثم اختارمنهم الخليلين : إبراهيم . ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، واختار منهما محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهو سيد ولد آدم ، وهوإمام الأنبياء إذا اجتمعوا . وخطيبهم إذا وفدوا ، وصاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة . وصاحب الوسيلة والفضيلة الذى بعثه الله

بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن مافرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقاً، وأولهم بعثاً، فهم كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يعنى، يوم الجمعة يومهم الذى اختلفوا فيه. فهدانا الله له. فالناس لنا فيه تبع، غداً لليهود، وبعدغد للنصارى»، وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا أول من تنشق عنه الأرض» وقال: «آتى باب الجنة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» وفضائله وفضائل أمته كثيرة دل عليها خبر صاحب المعجزات الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، ونطقت بها الكتب السالفة، وأخبر بها الأنبياء الأقدمون، ودل عليها استقراء سيرهم وأخبارهم، وهذه الجملة مجمع عليها بين المسلمين، وهى أن الله فضل بعض الرسل على بعض، وفضل على الجميع محمداً صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ وكذلك أجمعوا على محبتهم وموالاتهم والإيمان بهم كلهم، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، كحال أهل الكتاب الذين يدعون الإيمان ببعض الرسل، ويكفرون ببعض، ويعظمون بعضهم حتى يجعلوهم آلهة مع الله، وينتقصون بعضهم، كما فعل هذا النصرانى فيما تقدم

من كتابه ، حيث لم يقتصر على الطعن فى سيد المرسلين ، إذ كفره سابق على ذلك ، بل اعترض أيضاً على موسى كليم الرحمن ، ونسبه إلى الشك فيما جاءه من الحق ، وارتكاب مايستحق عليه اللوم ، مع اعترافه بأنه رسول الله ، فليعتبر الموقن بالله أى الفريقين أولى بالله وبرسله ، وقد أجمع المسلمون على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ، وفى تبليغ رسالاته . لاخلاف بينهم فى ذلك ، وإن وقع خلاف فيما دونه ، والذى عليه الجمهور من المتقدمين والمتأخرين أنهم معصومون أيضاً من الإقرار على الذنوب مطلقاً ، والمسألة طويلة الأذيال . فلا نطيل بذكرها .

والمقصود أن الله تعالى كما اختار الأنبياء على من سواهم اصطفى لهم من الأخلاق أزكاها ، واختار لهم أفضلها وأولاها . وجمع الفضائل التى فرقها فيهم لخاتمهم وسيدهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى فى خطابه له : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال ابن عباس ، وغيره : أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقاً لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادة زاكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخلاقا هى أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها . وهذه كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم المقتبسة من القرآن ، وهذا من أعظم آيات نبوته ، وأدلة رسالته ، ولما سئلت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلا وتبييناً ، وعلومه علوم القرآن ، وإراداته وأعماله مما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ، وحسن تعبيرها ، عن هذا كله بقولها : كان خلقه القرآن ، وفهم السائل عنها هذا المعنى . فاكتفى به ، واشتفى ، فهو صلى الله عليه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين . وقد خرج الإمام أحمد فى " مسنده " من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

واعلم أن خصال الفضل والكمال فى البشر نوعان ، كما قال بعض العلماء : أحدهما : ضرورى دنيوى اقتضته الجبلة ، وضرورة الحياة الدنيا ؛ والثانى : مكتسب دينى ، وهو مايحمد فاعله . ويقرب إلى الله زلنى ، ثم هى على قسمين : منها مايتخلص لأحد الوصفين ، ومنها مايتداخل ويتمازج ، فأما الضرورى المحض ، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب ، ككمال الخلقة ، وجمال الصورة ، وقوة العقل ، وصحة الفهم ، وفصاحة اللسان ، وقوة الحواس والأعضاء ، واعتدال الحركات ، وشرف النسب ، وعزة العشيرة ، وكرم الأرض ، ويلحق بذلك ماتدعو ضرورة الحياة إليه من غذائه ، ونومه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومنكحه ، وماله ، وجاهه ، وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ، ومعونة البدن على طريقها ، وكانت على قوانين الشريعة .

وأما الخصال المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية ، والآداب الشرعية ، من الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزهد ، والتواضع ، والعفو ، والعفة ، والجود ، والشجاعة ، والحياء ، والمروءة ، والصمت ، والتؤدة ، والوقار ، والرحمة ، وحسن الأدب ، والمعاشرة ، ونحوها من الخصال التى جماعها حسن الخلق ، وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله ، والدار الآخرة ، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة .

وإذا نظرت فى جميع هذه الخصال بنوعها وجدت نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم حائزاً لجميعها ، محيطاً بشتات محاسنها ، من غير خلاف بين نقلة الأخبار ، بل قد بلغ مبلغ القطع من طرق التواتر الذى لا يمكن القدح فيه ، كما نقلت أيضاً معجزاته صلى الله عليه وسلم النقل المتواتر الذى هو الطريق الذى علمت به نبوة عيسى وموسى ومعجزاتهما ، وما كان من أخبارهما ، فالذى عند المسلمين من العلم بنبيهم صلى الله عليه وسلم وشمائله ومعجزاته وسيرته قد حصل عندهم من طريق القطع ، فلا يمكن المعارض أن يقدح فى ذلك إلا بالقدح فى جميع ماجاء عن الأنبياء عليهم السلام .

وأما مافضله الله به من الفضائل التى لاتنال بالاكتساب ، ولا تحصل إلا بتخصص منزل الكتاب ، من فضيلة ختم الأنبياء ، ومن الخلة ، والمحبة ، والاصطفاء ، والإسراء ، والرؤية ، والقرب ، والدنو ، والوحى ، والشفاعة ، والوسيلة ، والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام

المحمود . والبراق . والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، والصلاة بالأنبياء ، والشهادة من الأنبياء والأمم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد ، والبشارة ، والنذارة ، والمكانة عند ذى العرش ، والأمانة . والهداية ، وكونه رحمة للعالمين . وإعطاء الرضى ، والسؤال ، والكوثر ، وسماع القول ، وإتمام النعمة ، والعفو عما تقدم وتأخر ، وشرح الصدر . ووضع الوزر . والتأييد بالملائكة . وإيتاء الكتاب والحكمة ، والسبع المثانى ، والقرآن العظيم . وتزكية الأمة ، والدعاء إلى الله . وصلاة الله والملائكة والحكم بين الناس بما أراه الله ، ووضع الإصر والأغلال عنهم ، إلى مالا يحويه كتاب ، ولا يحيط به إلا مانحه ذلك ومفضله به ، لا إله غيره ، إلى ما أعد له فى الدار الآخرة من منازل الكرامة ، ودرجات القدس ، ومراتب السعادة . والحسنى والزيادة ، فكل ذلك إنما علمناه من طريقه حيث بلغه عن الله مخبراً ومؤدياً لأمانته لامفتخراً ، وطريق إثباته أدلة الرسالة ، وأعلام النبوة ، إذ هو من علم الغيب الذى لايعلم إلا من طريق الوحى على ألسنة الرسل .

ولولا خوف الإطالة لذكرنا من تفاصيل ما أجملناه من أخلاقه الزاكية ماتنشرح به صدور أهل الإيمان ، وترغم به أنوف عبدة الصلبان ، ولكنا قد بنينا هذا الكتاب على الاختصار ، وقصدنا به تحصيل المراد من غير إكثار ، فمن أراد التفصيل لهذه الخصال السنية فعليه بمظانها من كتب الشمائل والسير النبوية ، ولكنا نذكر من ذلك مايختص ، وما تدعو ضرورة الحياة إليه مما يقال : إنه من باب اللذات البدنية ليتبين أنه

صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كما هو فى غيره على وفق الكمال البشرى المرضى من جميع الوجوه .

فاعلم أن الذى تدعو ضرورة الحياة إليه مما أشرنا إليه ، قيل : ثلاثة أقسام : قسم الفضل فى قلته ، وقسم الفضل فى كثرته ، وقسم تختلف الأحوال فيه . فأما ماالتمدح والكمال فى قلته اتفاقا عادة وشريعة . كالغذاء والنوم ، فلم تزل العلماء والحكماء والعرب تتمادح بقلتهما ، وتذم بكثرتهما ، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم . والحرص والشره ، وغلبة الشهوة ، وسبب لمضار فى الدنيا والدين ، وقلته دليل على القناعة ، وملك النفس ، وقمع الشهوة سبب لحفظ الصحة ، وصفاء الخاطر . وحدة الذهن ، كما أن كثرة النوم دليل على الضعف ، وقلة الذكاء والفطنة سبب للكسل ، والعجز ، وتضييع العمر فى غير نفع ، وقساوة القلب وغفلته وموته .

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم قد أخذ من هذين الفنين بأقل هذا مالا يدفع من سيرته ، وهو الذى أمر به ، وحض عليه ، وعلى ذلك كان أصحابه رضى الله عنهم ، والصدر الأول من أمته ، ولهذا قال العلماء : إن الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول ، وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم الخلف بعد القرون الفاضلة من أمته بأنه يظهر فيهم السمن : وروى الإمام أحمد ، والنسائى ، والترمذى ، وصححه الحاكم من حديث المقدام ابن معدى كرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « ماملأ ابن آدم وعاء شر من بطن ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ،

فان كان فاعلا لامحالة فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه»، وقال الترمذى : حديث حسن ، قال القرطبي : لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة ؛ وروى الطبرانى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إن أكثر الناس شبعاً فى الدنيا أطولهم جوعا فى الآخرة»، وعن أبى هريرة رضى‌الله عنه . قال: ماشبع آل محمد من طعام ثلاثة أيام تباعا حتى قبض، رواه البخارى، ومسلم فى "صحيحيهما" وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان يأتى علينا الشهر مانوقد فيه ناراً، إنما هو التمر والماء، إلا أن نؤتى باللحيم، أخرجه البخارى، ومسلم، وغيرهما؛ وفى رواية: ماشبع آل محمد من خبز البر ثلاثاً حتى مضى لسبيله، وفى أخرى: ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد إلا إحداهما تمر. وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما، قال: ذكر عمر ماأصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى من الجوع مايجد من الدقل مايملأ بطنه، أخرجه مسلم، وعن أنس رضى الله عنه قال : مشيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد سمعته، يقول: «ماأمسى عند آل محمد صاع تمر، ولا صاع حب، وإن عنده يومئذ لتسع نسوة» أخرجه البخارى، والنسائى، والترمذى، وفى "الصحيحين" عن عروة عن عائشة، قالت: أن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، وما أوقد فى أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، قال: فقلت: ياخالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، وقال أنس خادمه: ما أعلم أن رسول‌الله

صلى الله عليه وسلم رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه حتى لحق بالله ، رواه البخارى ؛ وعن عائشة أم المؤمنين قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندى شيء يأكله ذوكبد ، إلا شطر شعير فى رف لى . فأكلت منه حتى طال على ، فكلته ، ففنى ، رواه البخارى ، ومسلم ؛ ولهما أيضاً عنها ، قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير ، والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً ، وهى تدل دلالة واحدة على تقلله صلى الله عليه وسلم من تناول الطعام سوى ماتدعو إليه ضرورة البشرية.

وكذلك نومه صلى الله عليه وسلم كان قليلا ، شهدت بذلك الآثار الصحيحة ، وكان صلى الله عليه وسلم ينام أول الليل ويستيقظ فى أول النصف الثانى ، فيقوم ويتوضأ ، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج إليه ، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه ، تشريعاً للأمة ، ليقتدوا به ، ولا يكلفوا من العمل مالا يطيقون ، أو يشق عليهم مشقة تحملهم على السآمة من العمل ، وكان يحب من العمل ماداوم عليه صاحبه ، وإن قل ، وعلى ذلك حث أمته ، وكان ينهاهم عن التشديد على أنفسهم .

وفى السنن والمسانيد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «بعثت بالحنيفية السمحة» ، وكان يقول : «يسروا ولا تنفروا» وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنكم أمة أريد بكم اليسر» أخرجه الإمام أحمد ، وقال الله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وقد أنكر النبى صلى الله عليه وسلم على من عزم على التبتل والاختصاء ، وقيام الليل ، وصيام

النهار ، وقراءة القرآن كل ليلة ، كعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان ابن مظعون ، والمقداد وغيرهم . وقال : « لكنى أصوم وأفطر . وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .

وأما لباسه صلى الله عليه وسلم فهو كما قال القاضى عياض : كان قد اقتصر منه على ماتدعو ضرورته إليه ، فزهد فيما سواه . فكان يلبس ماوجد فيلبس فى غالب أحواله الشملة والكساء والأردية والأزر ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب . ويرفع لمن لم يحضر ، إذ المباهات فى الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة . بل هى من سمات النساء . والمحمود منها نقاوة الثوب ، والتوسط فى جنسه ، وكون ليس مثله غير مسقط لمروءة جنسه ، انتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم ينام على الفراش تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وفى " الصحيحين " أنه كان فراشه أدماً حشوه ليف ، وفى " الصحيح " أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المشربة فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير . وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة . فابتدرت عينا عمر بالبكاء . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مايبكيك ؟ فقال : يارسول الله إن كسرى ، وقيصر فما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه . فقال : أو فى شك أنت يا ابن الخطاب ؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » فكان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها ينفقها هكذا وهكذا فى عباد الله . ولم يدخر

لنفسه شيئاً لغد ؛ وخرج الترمذى ، وصححه عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نام على رمال حصير ، وقد أثر فى جنبه فقلت : يارسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه ؟ فقال : مالى وللدنيا ، ماأنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها .

ولما بنى صلى الله عليه وسلم مسجده ، ومساكن أزواجه قالوا : ألا نسقفه ؟ فقال : عريشاً كعريش موسى ، خشبات ، وثمام الأمر أعجل من ذلك ، فكان حاله صلى الله عليه وسلم فى مأكله ومشربه ولباسه ومساكنه حال مسافر يقنع فى مدة سفره بمثل زاد الراكب من الدنيا ، ولا يلتفت إلى فضولها ، وحسبك من تقلله منها ، وإعراضه عن زهرتها ، وقد سيقت إليه بحذافيرها ، وترادفت عليه فتوحها ، أن توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله ، كما تقدم الحديث بذلك ، وتقدم أيضاً قول عائشة رضى الله عنها : لقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير فى رف لى . وقالت أيضاً : ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً .

القسم الثانى : مااتفق على التمدح بكثرته والفخر بوفوره . كالنكاح والجاه . أما النكاح فمتفق عليه شرعا وعادة ، فانه دليل الكمال ، وصحة الذكورية ، ولم يزل التفاخر عادة معروفة ، والتمادح به سيرة ماضية ، وأما فى الشرع فسنة مأثورة من سنن المرسلين ، معلومة من سيرتهم عند

المتقدمين والمتأخرين، من الموافقين والمخالفين، وله مصالح عديدة، لأجلها شرعه الله تعالى، ومقاصده الأصلية ثلاثة: أحدها: حفظ النسل. ودوام النوع الإنسانى، إلى أن تتكامل العدة التى قدر الله تعالى بروزها إلى هذا العالم، وهذه مصلحة عظيمة دالة على فضيلة النكاح، والشرائع جاءت بتحصيل المصالح؛ الثانى: إخراج الماء الذى يضر احتقانه واحتباسه بجملة البدن، وهذا فيه من حفظ الصحة ماتقتضى الحكمة مشروعيته، واستحسانه من أجله؛ الثالث: قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة، وهذه هى الفائدة التى فى الجنة، إذ لاتناسل هناك يستفرغه الإنزال، لكن النصارى ينكرون النعيم الجسمانى فى الجنة، وما أخبرت به الأنبياء من المآكل والمشارب والملابس والمناكح، فحقيقة قولهم إنكار المعاد الذى أخبرت به الرسل، فقد كفروا بالله وبرسله وباليوم الآخر.

والمقصود التنبيه على فضيلة النكاح، وكان فضلاء الأطباء يرون أن الجماع أحد أسباب حفظ الصحة، وقد قالوا: إن المنى إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً رديئة: منها الوسواس، والجنون والصرع، وغير ذلك وقد يبرىء استعماله من هذه الأمراض كثيراً، فانه إذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كيفية رديئة توجب أمراضاً رديئة، ولذلك تدفعه الطبيعة إذا كثر عندها من غير جماع، وقال محمد بن زكريا: من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت قوى أعصابه، واشتدت مجاريها، وتقلص ذكره، قال: ورأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف، فبردت أبدانهم، وعسرت حركاتهم، ووقعت عليهم كآبة بلاسبب، وقلت شهواتهم وهضمهم، انتهى.

ومن منافعه غض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه فى دنياه وآخرته، وينفع المرأة، فمشروعيته للأنبياء، ومحبتهم له يحمل المقتدى بهم على تحصيله، فيترتب عليه ماذكرنا من المصالح وغيرها، فقد ظهر بما قررناه أن النكاح فضيلة يرغب فيها الأفاضل، ولا يقدح فى فضله إلا غبي جاهل، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعاهده ويحبه، ويقول: «حبب إلىّ من دنياكم النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»، وحث على التزويج أمته فقال: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم» وأنكر على النفر من أصحابه الذين قال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء، ولا أتزوج أبداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» أخرجه البخارى، ومسلم، وقال لعثمان بن مظعون: «أرغبة عن سنتى؟ قال: لا والله يارسول الله، ولكن سنتك أطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإنى أنام وأصلى، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله ياعثمان، فان لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم» أخرجه أبو داود. فحب النساء والنكاح من كمال الإنسان، ولو كان نقيصة أوقدحا فى الفضيلة لصان الله عنه أنبياءه ورسله الذين اصطفاهم على العالمين.

هذا خليل الله إبراهيم إمام الحنفاء كانت عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر وتسرى بها.

وهذا داود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده كان عنده تسع وتسعون امرأة ، فأحب تلك المرأة وتزوج بها فكمل المائة .

وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف فى الليلة على تسعين امرأة ، قال ابن عباس : كان فى ظهر سليمان ماء مائة رجل ، وكان له ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سرية ، وحكى النقاش وغيره سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية ، ذكره القاضى عياض ، ولكون النكاح بهذه المثابة من الفضيلة قال بعض العلماء : إن ثناء الله على يحي عليه السلام بأنه حصور ليس كما قال بعضهم : إنه كان هيوباً لاذكر معه ، قال عياض أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء ، وقالوا : هذا نقيصة وعيب ، ولا تليق بالأنبياء ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها ، كأنه حصر عنها ، وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل : ليس له شهوة فى النساء ، انتهى .

وأما ما أشار إليه النصرانى من ترك عيسى عليه السلام للتزويج : فليس فيه دلالة على أن ذلك أفضل ، لأنا قد بينا بالأدلة الواضحة شرعا وعقلا أفضلية التزويج ، وأن عدم القدرة على النكاح ليس فضيلة ، فالفضل فى كونها موجودة ، ثم يختلف حال الشخص ، فمن لم يتسع وقته للقيام بحقوق الزوجية فقمع نفسه إما بالمجاهدة كعيسى عليه السلام ، أو بكفاية من الله تعالى ، كيحي بن زكريا عليهما السلام ، فذلك فضيلة من هذا الوجه ، لكون التزويج شاغلا فى كثير من الأوقات ، حاطاً إلى الدنيا أو معرضاً لتضييع الحقوق الواجبة فيه ، ثم هو فى حق من قدر عليه وقام بالواجب

فيه، ولم يشغله عن ربه، درجة عليا، وهي درجة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم تشغله كثرة النساء عن عبادة ربه عز وجل، بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن، ونقلهن للأمة محاسنه الباطنة، بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كان من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إلى من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». فدل على أن حبه للنساء والطيب اللذين هما من دنيا غيره، واستعماله لذلك، ليس لدنياه بل لآخرته.

للفوائد التي ذكرناها في التزويج، وللقاء الملائكة في الطيب، ولغير ذلك، وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته، ولذلك ميز بين الحبين، وفصل بين الحالتين، فقال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة» فقد ساوى يحي وعيسى في كفاية فتنتهن، وزاد فضيلة في القيام بهن.

وأما الجاه فهو كما قال القاضي أبو الفضل محمود: عند العقلاء عادة، وبقدر جاهه تكون عظمته في القلوب، لكن آفاته كثيرة، فهو مضر لبعض الناس لعقبى الآخرة، فلذلك ذمه من ذمه ومدح ضده، وورد في الشرع مدح الخمول، وذم العلو في الأرض؛ وكان صلى الله عليه وسلم قد رزق من الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوة عند أهل الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخباره في ذلك معروفة، وقد كان يبهت ويفرَق لرؤيته من لم يره، كما روى عن قيلة أنها

لما رأته أرعدت من الفرَق ، فقال : يامسكينة عليك السكينة ، وفى حديث ابن مسعود أن رجلا قام بين يديه ، فأرعد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هون عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » وأما عظيم قدره بالنبوة ، وشريف منزلته بالرسالة ، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة فى الدنيا ، فأمر هو مبلغ النهاية ، ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم ، انتهى .

وكان صلى الله عليه وسلم على ماأعطاه الله من الجاه العريض ، ونفوذ الكلمة ، وعلو المنصب ، ورفعة الرتبة فى غاية التواضع لربه تعالى ، وكان ينهى أصحابه أن يقوموا له ، ويقول : « لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها » وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس ؛ وعن عائشة ، والحسن ، وأبى سعيد ، وغيرهم فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم يزيد على بعض ، كان فى بيته فى مهنة أهله يفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعلف ناضحه ، ويقمّ البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويحمل بضاعته من السوق ، وستأتى الإشارة إلى حمله واحتماله ، وعفوه بعد القدرة ، فيما بعد إن شاء الله .

القسم الثالث : وهو ماتختلف الحال فى التمدح به ، والتفاخر بسببه ، والتفضيل لأجله ، ككثرة المال ، فمتى كان صاحبه منفقاً له

فى مهماته ، مشترياً به المعالى ، والثناء الحسن ، والمنزلة فى القلوب ، كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا ، وإذا صرفه فى وجوه البر ، وقصد به وجه الله والدار الآخرة كان فضيلة عند الكل ، ومتى كان صاحبه ممسكا له عاد كثرة كالعدم ، وكان منقصة فى صاحبه ، يشبه خازن المال ولا مال له ، فانظر سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم فى المال تجده قد أوتى خزائن الأرض ومفاتيح البلاد ، وأحلت له الغنائم ، وفتح عليه صلى الله عليه وسلم بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب ، وما دانى ذلك من الشام والعراق ، وجُبيَ إليه من جزيتها وأخماسها وصدقاتها مالا يجبى للملوك إلا بعضه ، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشىء منه ، ولا أمسك منه درهما ، بل صرفه فى مصارفه ، وأغنى به غيره ، وقوى به المسلمين ، وقال عليه الصلاة والسلام : « مايسرنى أن لى أُحداً ذهباً يبيت عندى منه دينار ، إلا ديناراً أرصده لدين » .

وأتته دنانير فقسمها ، وبقيت منها ستة فدفعها لبعض نسوته ، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها ، وقال : « الآن استرحت » .

وبالجملة فتفاصيل أخلاقه الكريمة وأوصافه العظيمة تقصر دونها الأفهام ، وتكل عن تدوينها الأقلام ، وإنما أثبتنا فى هذا الفصل مااقتضاه الحال على سبيل الاختصار فى المقال ، جواباً عن قول المعترض ، وأكبر علاماتك اطراح اللذات البدنية بما فيه مقنع لذوى الفطن والعقول الزكية .

فصــــل

وأما قول النصرانى : إن يشوع هو على مايعترف به المسلمون المسيح الموعود به فى التوراة ، وكتب الأنبياء ، ويسميه محمد بكلمة الله وروحه ، ويقول : إنه لم يكن له أب من البشر ، وأما محمد فهو مولود على الطريق المعتاد فى الطبيعة ، فالجواب عنه ، ومن الله التأييد أن نقول : أما الثناء على عيسى عليه السلام وتنزيهه وتنزيه أمه عليهما السلام عن فرية المفترين ، وكذب الكاذبين ، فقد جاء بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، وذلك تصديق نص الإنجيل الذى قدمنا ذكره فى وصف الفارقليط ، حيث قال : وهو يمجدنى ، فلم يمجده تمجيده الحق إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه جاء بتنزيه أخيه المسيح عن فرية المكذبين له ، وفرية الغالين فيه ، وأتى فيه بالقول الحق ، والمذهب الوسط بين غلو النصارى وإطرائهم ، وبين تكذيب اليهود وجفائهم ، قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ، ومن الصالحين ، قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ قال : كذلك الله يخلق مايشاء ، إذا قضى أمراً فانما يقول له : كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إلـه واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات ومافى الأرض ، وكفى بالله وكيلا ، لن يستنكف

المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة معلومة ، وفى " الصحيحين " عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » فهذا مايعترف به المسلمون من أمر المسيح عليه السلام ، وأما كون ذلك يقتضى تفضيله على خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم ، فكلا ، ولما ، ولـكنه آية من آيات الله الدالة على قدرته على مايشاء ، حيث أوجده من أم بلا أب ، بل خلقه بكلمة كن ، كما قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ فالله تعالى خلق البشر على أربعة أنواع من الخلق ، فخلق آدم عليه السلام من تراب من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم حيث خلقها من ضلع آدم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلاأب ، وخلق سائر البشر من بين الأم والأب ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا التنويع فى الخلق دال على قدرة الخلاق ، وكمال ربوبيته ، وأنه ماشاء كان ، وأنه المستحق لأن يُعبد وحده لاشريك له ، وأن لايجعل له ند من خلقه ، تعالى الله عما يشركون ، وليس فى خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب مايقتضى تفضيله على إبراهيم إمام الحنفاء ، وخليل الرحمن ، ولا على موسى كليم الله ونجيه ، فضلا عن أن يدل على

تفضيله على خاتم الأنبياء وسيد الخلق . فى الدنيا والآخرة ، وكما أن تخصيص آدم بخلقه من تراب لا يقتضى تفضيله على غيره ، فكذلك عيسى عليه السلام . وأيضاً فخلق حواء عليها السلام من غير أم لا يقتضى تفضيلها على مريم بنت عمران ، وفاطمة بنت محمد . وأمها خديجة ، وعائشة ، وأسيه امرأة فرعون ، فقد جاءت الأحاديث بفضلهن على سائر النساء ، فعرفت أنه ليس فى ولادة محمد صلى الله عليه وسلم على الطريق المعتاد فى الطبيعة مايحط رتبته ، أو يقدح فى فضيلته ، أو يقتضى تفضيل مخلوق عليه ، فان الكل اشتركوا فى أن الله تعالى أوجدهم من العدم ، وخلقهم بعد أن لم يكونوا على مااقتضته حكمته ، ثم اختص من شاء منهم بما شاء ، وفضل بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، على وفق ماقضاه فى الأزل ، وجرى به قلم التقدير ، واقتضاه اختيار الرب تعالى واصطفاؤه ، كما قال تعالى : ﴿ وربك يخلق مايشاء ويختار ﴾ وأيضاً فعيسى عليه السلام حملت به أمه ، وتقلب فى رحمها ، ووضعته على الطريق المعتاد فى حمل النساء وولادتهن ، فهل كان ذلك نقصاً فى حقه . وحطاً لرتبته ، وإذا لم يكن كذلك تحقق أن ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم بين أبوين لانقص فيه ، إذ خصائص البشرية من خلقته من ضعف ، ثم حاجته إلى الطعام والشراب أمر لاينفك منه بشر . وهذا برهان قاطع على بطلان ربوبية المسيح وأمه ، كما نبه تعالى على ذلك فى قوله : ﴿ ماالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ فليس من تعظيم الأنبياء

الغلو فيهم ، ومجاوزة الحد برفعهم عن منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية والربوبية ، كما هو مذهب النصارى ، فانهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها ، بل غلوا فى اتباعه ، وادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم فى كل ماقالوه ، سواء كان حقاً أو باطلا ، أو ضلالا ورشاداً ، أو صدقاً أو كذباً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰـهاً واحداً لا إلٰـه إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ وفسر النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن أبى حاتم عبادتهم إياهم بأنهم كانوا يحلون لهم ماحرم الله ، فيستحلونه ، ويحرمون عليهم ماأحل الله ، فيحرمونه . وقال الله تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ومعنى الآية لاتجاوزوا الحد فى اتباع الحق ، ولا تطروا ابن مريم حتى تبالغوا فى تعظيمه ، حتى تخرجوه من حيز النبوة إلى مقام الإلٰـهية ، وهو نبى من الأنبياء ، فجعلتموه إلٰـها من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ، أى وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال ، وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم أمته من الغلو ، وأن يصنعوا مثل صنيعهم ، ففى "مسند الإمام أحمد - وصحيح البخارى" عن ابن عباس

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم. فانما أنا عبدالله ورسوله » ولفظ البخارى : فانما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله . وقال الإمام أحمد : ثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس أن رجلا قال : يامحمد ياسيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياأيها الناس عليكم بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله . والله ماأحب . أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » .

فصـــل

وأما ماوصف الله به المسيح فى قوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ فمعناه إنما هو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، قال له : كن فيكون ، فكان رسولا من رسله ، ومعنى قوله : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبرئيل عليه السلام ، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها ، فنزلت حتى ولجت الفرج ، فكانت بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله ، وروح منه ، لأنه لم يكن له أب تولد منه ، إنما هو ناشىء عن الكلمة التى قال الله بها : كن فكان ، والروح التى أرسل بها جبرئيل ، قال الله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ وقال عبد الرزاق

عن معمر عن قتادة : ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم،وروح منه﴾ هو قوله : كن فكان ، وعن بعض السلف قال : ليست الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، قال ابن كثير : وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير فى قوله : ﴿ ألقاها إلى مريم ﴾ أى علمها بها ، كما زعمه فى قوله : ﴿إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ ، أى يعلمك بكلمة منه ، ويجعل ذلك كقوله : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ بل الصحيح أنها الكلمة التى جاء بها جبرئيل إلى مريم ، فنفخ فيها باذن الله ، فكان عيسى عليه السلام ، انتهى .

فان قيل : الكونُ بكلمة كن ليس مختصاً بعيسى ، بل هو عام فى كل مخلوق ، كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أجيب بأنه لما كان السبب المتعارف مفقوداً فى حق عيسى ، وهو الأب كان اتصاف حدوثه بالكلمة أكمل وأتم ، فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة ، كما أن من ظهر عليه الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة : إنه نفس الجود ، ومحض الكرم ، وصريح الإقبال ، فكذا هٰهنا ، وأما " من " فى قوله : ﴿ وروح منه ﴾ فليست للتبعيض ، كما تقوله النصارى ، بل لابتداء الغاية ، كما فى قوله : ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ أى من خلقه ومن عنده ، فهو مخلوق من روح مخلوق ، وأضيفت الروح إلى الله عز جل على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله فى قوله : ﴿ هذه ناقة الله ﴾ وفى قوله : ﴿ وطهر بيتى للطائفين ﴾ وكما فى الحديث الصحيح : « وأدخل على ربى فى داره » أضافها إليه إضافة تشريف لها ، وهذا كله من قبيل

واحد ، ونمط واحد . قاله ابن كثير ، وقال غيره : قد جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا : إنه روح ، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب ، وإنما تكون عن نفخة جبرئيل ، لاجرم وصف بأنه روح ، وقيل : وصف بأنه روح ، لأنه كان سبباً لإحياء الخلق فى أديانهم ، ومن كان كذلك وصف بأنه روح ، كما قال تعالى فى صفة القرآن : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ وقيل : روح منه ، أى رحمة منه ، كما قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أى رحمة منه ، وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « إنما أنا رحمة مهداة » فلما كان عيسى عليه السلام رحمة من الله على الخلق من حيث أنه كان يرشدهم إلى مصالحهم فى دينهم ودنياهم لاجرم سماه روحاً منه ، قال ابن كثير : والأول أظهر ، يعنى أنه مخلوق من روح مخلوق ، وأن الإضافة للتشريف ، وتقدمت شواهده . فهذا مذهب الحق . واعتقاد المسلمين فى وصف المسيح . بأنه كلمة الله ، وروح منه .

وأما مذهب النصارى المبدلين فقد حكى الله عنهم فى كتابه ثلاث مقالات من الكفر . فقال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ وقال تعالى فى خطاب أهل الكتاب : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله

إلـه واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ فى آيات معلومة فى هذا المعنى .

قال شيخ الإسلام أبو العباس : واعلم أن من الناس من يزعم أن هذه الأقوال الثلاثة التى ذكرها الله تعالى عن النصارى هى قول الأصناف الثلاثة اليعقوبية ، وهم شرهم ، وهم السودان من الحبشة ، والقبط ، ثم الملكية ، وهم أهل الشمال من الشام والروم ، ثم النسطورية ، وهم نشأوا فى دولة الإسلام فى زمن المأمون ، وهم قليل ، فاليعقوبية تزعم أن اللاهوت والناسوت اتحدا وامتزجا كامتزاج الماء واللبن ، فهما جوهر واحد ، وأقنوم واحد ، وطبيعة واحدة ، فصار عين الناسوت عين اللاهوت ، وأن المصلوب هو عين اللاهوت ، والملكية تزعم أنهما صارا جوهراً واحداً له أقنومان ، وقيل : أقنوم واحد له جوهران ، والنسطورية يقولون : هما جوهران أقنومان ، وإنما اتحدا فى المشيئة ، وهذا قول من يقول بالاتحاد ، وأما القول بالحلول فمن المتكلمين كأبى المعالى من يذكر الخلاف فيه عن فرقهم الثلاث ، وذكر طوائف من المتكلمين ، كابن الزاغونى عنهم أنهم جميعاً يقولون بالاتحاد والحلول ، لكن الاتحاد بالمسيح والحلول فى مريم ، فقالوا : اتفقت طوائف النصارى على أن الله جوهر واحد له ثلاثة أقانيم ، وأن كل واحد من الأقانيم جوهر خاص يجمعها الجوهر العام ، وذكروا اختلافا بينهم ، ثم ذكروا اليعقوبية ، والنسطورية ، والملكية ، قال الناقلون عنهم : واختلفوا فى الكلمة الملقاة إلى مريم ، فقالت طائفة منهم : إن الكلمة حلت فى مريم حلول الممازجة ، كما يحل الماء فى اللبن

فيمازجه ويخالطه . وقالت طائفة منهم : إنما حلت فى مريم من غير ممازجة كما أن شخص الإنسان يحل فى المرآة ، وفى الأجسام الصقيلة عن غير ممازجة . وزعمت طائفة أن اللاهوت مع الناسوت كمثل الخاتم مع الشمع يؤثر فيه بالنقش ، ثم لا يبقى فيه شىء إلا أثر فيه ، ثم ذكر هؤلاء عنهم فى الاتحاد نحو ماحكى الأولون ، فقالوا : قد اختلف قولهم فى الاتحاد اختلافا متبايناً ، فزعم قوم منهم أن الاتحاد هو أن الكلمة التى هى الابن حلت جسد المسيح ، وهذا قول الأكثرين منهم ، وزعم قوم منهم أن الاتحاد هو الاختلاط والامتزاج ، وقال قوم من اليعقوبية : هو أن كلمة الله انقلبت لحماً ودماً بالاتحاد . وقال كثير من اليعقوبية والنسطورية : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اختلطا ، فامتزجا كاختلاط الماء بالخمر ، وقال قوم منهم : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح ، على معنى أنها حلته من غير مماسة ولا ممازجة ، كما نقول : إن الله فى السماء وعلى العرش من غير مماسة ولا ممازجة ، وقالت الملكية : الاتحاد هو الاثنين صارا واحداً ، وصارت الكثرة قلة ، فزعم بعض الناس أن الذين قالوا : هو المسيح ابن مريم هم الذين قالوا : اتحدا حتى صارا شيئاً واحداً ، والذين قالوا : هما جوهر واحد له طبيعتان يقولون : هو وولده بمنزلة الشعاع المتولد عن الشمس ، والذين قالوا : بجوهرين وطبيعتين وأقنومين مع الرب قالوا : ثالث ثلاثة ، وهذا الذى قاله هؤلاء ليس بشىء ، فإن الله أخبر أن النصارى يقولون : إنه ثالث ثلاثة . وأنهم يقولون : إنه الله . وإنهم يقولون : إنه ابن الله ، وقال لهم : لاتقولوا : ثلاثة ، مع إخباره أن النصارى افترقوا ،

وألقى بينهم العداوة والبغضاء . بقوله : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ وقد ذكر هذا أخباراً بتفرقهم إلى هذه الأصناف الثلاثة ، وغير ذلك ، وقد أخبر سبحانه عقب قولهم : ثالث ثلاثة بما يقتضى أن هؤلاء اتخذوا له ولداً . فقال : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إلٰه واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ﴾ وقد ذكر أيضاً مايقتضى أن قولهم : إن الله هو المسيح ابن مريم ، من الشرك ، فقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ﴾ فهذا يقتضى أن هذا القول من الشرك . وذلك لأنهم مع قولهم : إن الله هو المسيح ابن مريم لايخصونه بالمسيح ، بل يثبتون أن له وجوداً (١) ، وهو الأب ، وليس هو الكلمة التى فى المسيح ، فعبادتهم إياه معه إشراك ، وذلك مضموم إلى قولهم : إنه هو ، وقولهم : إنه ولده . وقد نزه الله تعالى نفسه عن هذا ، وهذا فى غير موضع من القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك . وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾ .

وأيضاً ، فهذه الأقوال لاتنطبق على ماذكر ، فان الذين يقولون : إنهما اتحدا وصارا شيئاً واحداً يقولون : أيضاً إنما اتحد به الكلمة التى

---

(١) فى نسخة موجوداً

هى الابن ، والذين يقولون : هما جوهر واحد له طبيعتان يقولون :
إن المسيح إلـٰه ، وأنه الله ، والذين يقولون : إنه حل فيه ، يقولون :
حلت فيه الكلمة التى هى الابن ، وهى الله أيضاً بوجه آخر ، كما سنذكره ؛
وأيضاً فقولهم : ثالث ثلاثة ليس المراد به الله واللاهوت الذى فى المسيح
وجسد المسيح ، فان أحداً من النصارى لايجعل لاهوت المسيح وناسوته
إلـٰهين ، ويفصل الناسوت عن اللاهوت ، بل سواء قال بالاتحاد أو بالحلول
فهو تابع للاهوت ، وأيضاً فقوله تعالى عن النصارى : ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾
و ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قد قيل : المراد به قول
النصارى باسم الأب والابن وروح القدس إلـٰه واحد . وهو قولهم
بالجوهر الواحد الذى له ثلاثة أقانيم ، أى ثلاث صفات وخواص ،
وقولهم إنه : هو الله وابن الله هو الاتحاد والحلول ، فعلى هذا تكون
تلك الآية على قولهم بتثليث الأقانيم ، وهاتان فى قولهم بالحلول والاتحاد ،
فالقرآن على هذا القول رد فى كل آية بعض قولهم . كما أنه على القول
الأول رد فى كل آية على صنف منهم ، وقيل : إن المراد بذلك جعلهم
المسيح إلـٰها ، وأمه إلـٰهاً مع الله ، كما ذكر الله ذلك فى قوله : ﴿وإذ قال
الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلـٰهين من دون
الله ، قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد
علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ،
ماقلت لهم إلا ماأمرتنى به : أن أعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم
شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم . وأنت على

كل شيء شهيد﴾ ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إلٰه إلا إلٰه واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾ فقوله : ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ﴾ عقب قوله : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ يدل على أن التثليث الذى ذكره الله عنهم اتخاذ المسيح ومريم إلٰهين ، وهذا واضح على قول من حكى عن النصارى أنهم يقولون بالحلول فى مريم ، والاتحاد بالمسيح ، وهو أقرب إلى تحقيق مذهبهم ، وعلى هذا فتكون كل آية مما ذكره الله فى أقوالهم تعم جميع طوائفهم ، وتعم أيضاً قولهم بتثليث الأقانيم ، وبالاتحاد والحلول ، فتعم أصنافهم ، وأصناف كفرهم ، ليس يختص كل آية بصنف ، كما قال من يزعم ذلك . ولا يختص آية بتثليث الأقانيم ، وآية بالحلول والاتحاد ، بل هو سبحانه ذكر فى كل آية كفرهم المشترك ، ولكن وصف كفرهم بثلاث صفات ، وكل صفة تستلزم الأخرى أنهم يقولون : المسيح هو الله ، ويقولون : هو ابن الله . ويقولون : إن الله ثالث ثلاثة . حيث اتخذوا المسيح وأمه إلٰهين من دون الله ، هذا بالاتحاد ، وهذا بالحلول . ويبين بذلك إثبات ثلاثة آلهة منفصلة غير الأقانيم . وذلك يتضمن جميع كفر النصارى ، وذلك أنهم يقولون : الإلٰه جوهر واحد له ثلاثة أقانيم ، وهذه الأقانيم يجعلونها تارة جواهر

وأشخاصاً ، وتارة صفات وخواص ، فيقولون : الوجود الذى هو الأب ، والابن الذى هو العلم ، وروح القدس التى هى الحياة عند متقدميهم ، والقدرة عند متأخريهم . لكن يقولون أيضاً : إن الوجود الذى هو الأب جوهر . والكلمة التى هى الابن جوهر ، وروح القدس ، أيضاً جوهر ، وأن المتحد بالمسيح هو جوهر الكلمة دون جوهر الأب ، وروح القدس ، وهذا مما لانزاع بينهم فيه .

قلت : وبيان هذا الاعتقاد بعبارة أخرى من كلام بعض المحققين أن النصارى اعتقدوا أن معبودهم جوهر ، أى أصل للأقانيم ، وذلك أن له عندهم ثلاثة أقانيم : أقنوم الوجود ، ويعبرون عنه بالأب ، وأقنوم العلم ، ويعبرون عنه بالابن والكلمة ، وأقنوم الحياة ، ويعبرون عنه بروح القدس ، ثم قالوا : مجموع الثلاثة إلـٰه واحد ، والأقنوم كلمة يونانية ، والمراد بها فى تلك اللغة أصل الشىء ، ويعنى بها النصارى الأصل الذى كانت عليه حقيقة إلـٰههم ، وقد طولبوا فى دليل الحصر فى الثلاثة ، فقالوا : لأن الخلق والإبداع لايتأتى إلا بها ، فقيل لهم : والإرادة ، والقدرة لايتأتى الخلق إلا بهما ، فيلزم الحكم بأن الأقانيم خمسة ، وهو باطل ، فكذا التثليث ، والله أعلم .

قال أبو العباس : ومن هـٰهنا قالوا كلهم : المسيح هو الله ، وقالوا كلهم : هو ابن الله ، لأنه من حيث أن الأب والابن ، وروح القدس ، إلـٰه واحد ، وقد اتحد بالمسيح . كان المسيح هو الله ، ومن حيث أن الأب جوهر ، والابن جوهر ، وروح القدس جوهر ، والذى اتحد به

هو جوهر الابن الذى هو الكلمة ، كان المسيح هو ابن الله عندهم ، ولا ريب أن هذين القولين ، وإن كان كل منهما متضمناً لكفرهم ، كما ذكره الله ، فانهما متناقضان ، إذ كونه هو ، ينافى كونه ابنه ، لكن النصارى يقولون هذا كلهم ، ويقولون هذا كلهم ، كما ذكر الله ذلك عنهم ، ولهذا كان قولهم معلوم التناقض فى بديهة العقول ، عند كل من تصوره ، فان هذه الأقانيم ، إذا كانت صفات أو خواصاً ، وقدر أن الموصوف له بكل صفة اسم ، كما مثلوه بقولهم : زيد الطبيب ، وزيد الحاسب ، وزيد الكاتب ، لكن لا يمكن أن بعض هذه الصفات يتحد بشىء دون الجوهر ، ولا أن بعض هذه يفارق بعضاً ، فلا يتصور مفارقة بعضها بعضاً ، ولا مفارقة شىء منها للموصوف ، حتى يقال المتحد بالمسيح بعض هذه الصفات . وهم لا يقولون ذلك أيضاً ، بل هم متفقون على أن المتحد به جوهر قائم بنفسه ، فإن لم يكن جوهر إلا جوهر الأب ، كان جوهر الأب هو المتحد ، وإن كان جوهر الابن غيره ، فهما جوهران منفصلان ، وهم لا يقولون بذلك ، والموصوف أيضاً لا يفارق صفاته ، كما لا تفارقه ، فلا يمكن أن يقال : اتحد الجوهر بالمسيح بأقنوم العلم ، دون الحياة ، إذ العلم والحياة لازمان للذات ، لا يتصور أن تفارقهما الذات ، وأن لا يفارقها واحد منهما .

ومن هنا قيل : النصارى غلطوا فى أول مسألة من الحساب الذى يعلمه كل أحد . وهو قولهم : الواحد ثلاثة ، وأما قول بعضهم : أحدىُّ الذات ، ثلاثى الصفات ، فهم لا يكتفون بذلك ، كما تقدم ، بل يقولون ، الثلاثة جوهراً ، والمتحد بالمسيح واحد منها دون الآخر ، وبهذا يتبين أن

كل من أراد أن يذكر قولهم على وجه يعقل ، فقد قال الباطل ، كقول المتكايسين منهم هذا ، كما تقول زيد الطبيب ، وزيد الحاسب ، وزيد الكاتب ، فهم ثلاثة رجال باعتبار الصفات ، وهم رجل واحد باعتبار الذات ، فانه يقال : من يقول هذا لايقول : بأن زيد الطبيب فعل كذا ، واتحد بكذا ، أو حل به دون زيد الحاسب والكاتب ، بل أى شيء فعله أو وصف به زيد الطبيب فى هذا المثال ، فهو الموصوف به زيد الحاسب الكاتب .

قلت : ونظير هذا المثل ماقاله بعضهم : إنك إذا فرضت مثلثاً متساوى الأضلاع ، كانت الأضلاع ثلاثة ، والمثلث واحد ، وكان للمثلث الواحد ثلاثة أضلاع ، وهذا من نمط ماقبله فى الفساد ، وذلك أن كل واحد من الأضلاع على انفراده ليس هو المثلث المفروض ، بل إن اعتبرت الأضلاع الثلاثة شيئاً واحداً انتفى التثليث ، لأن الواحد لايكون ثلاثة ، وإن اعتبر أحد الأضلاع على انفراده انتفت الوحدة ، فالجمع بينهما جمع بين النقيضين . والله أعلم .

قال : والنصارى يثبتون هذا المثلث فى الأقانيم مع قولهم : إن المتحد هو الواحد ، فيجعلون المسيح هو الله ، لأنهم يقولون الموصوف اتحد به ، ويجعلون المسيح هو ابن الله ، لأنهم يقولون : إنما اتحد به الجوهر الذى هو الكلمة ، أو إنما اتحد به الكلمة دون الأب الذى هو الوجود ، ودون روح القدس ، وهما أيضاً جوهران ، فقد تبين أن قول النصارى بهذا ، وبهذا جمع بين النقيضين ، وهو من أفسد شيء فى بداية العقول ، وكل منهما

كفر ،كما كفرهم الله ، وأما قولهم : ثالث ثلاثة ، فانهم مع ذلك يعبدون الأم التى هى والدة الإلـه عندهم ، وهذا كفر آخر مستقل بنفسه ، غير تثليث الأقانيم والاتحاد بالمسيح ، فالقرآن يتناول جمع أصناف كفرهم فى هذا الباب تناولا تاما ، انتهى .

فصـــل

وقد أقام الله تعالى أنواع الأدلة والبراهين على بطلان دعوى هؤلاء الجهلة الضلال ، واعتقادهم فى المسيح ، وبيّن ذلك فى كتابه العزيز فى مواضع كثيرة بطرق عقلية ، وحجج واضحة جلية ، فنذكر منها أنموذجا يدل على ماوراءه ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له مافى السموات والأرض ، كل له قانتون ، بديع السموات والأرض ، وإذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فاشتملت هاتان الآيتان على الرد عليهم : دعواهم الولد له ، ونزه نفسه عنه ، فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك ، ثم ذكر عدة حجج على استحالة اتخاذه الولد :

أحدها : كون مافى السموات والأرض ملكا له ، وهذا ينافى أن يكون فيهما ولد له ، لأن الولد بعض الوالد وشريكه ، فلا يكون مخلوقا له مملوكا ، لأن المملوك مربوب ، عبد من العبيد ، والابن نظير الأب ، فكيف يكون عبده ومخلوقه ومملوكه بعضه ، ونظيره ؟! فهذا من أبطل الباطل ، وأكد مضمون هذه الحجة بقوله : ﴿ كل له قانتون ﴾ فهذا تقرير لعبوديتهم له ، وأنهم مملوكون مربوبون ، ليس فيهم شريك ، ولا نظير ، ولا ولد ، فإثبات الولد له من أعظم الإشراك به ، فان الشرك

به جعل له شريكا من مخلوقاته ، مع اعترافه بأنه مملوكه ، كما كان المشركون من العرب يقولون فى تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فكانوا يجعلون ما أشركوا به مملوكا له عبداً مخلوقا ، والنصارى جعلوا له شريكا هو نظير ، وجزء من أجزائه ، كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته ، فقال تعالى : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً ﴾ فاذا كان له مافى السموات ومافى الأرض ، وهم عبيده قانتون مملوكون ، استحال أن يكون له منهم شريك ، وكل من أقر بأن لله مافى السموات ومافى الأرض يلزمه أن يقر بالتوحيد ، ولا بد .

الحجة الثانية : قوله ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه ، ولهذا قال فى سورة الأنعام ﴿ بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ﴾ أى من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد ، ووجه هذه الحجة أن من اخترع السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما ، وفطرهما وابتدعهما ، فهو قادر على اختراع ماهو دونهما ، ولا نسبة له إليهما ألبتة . فكيف يخرجون هذا الشخص عن قدرته وإبداعه ، ويجعلونه نظيراً وشريكا وجزءاً من الله ، بديع العالم العلوى والسفلى ، فاطره ومخترعه ، وباريه ، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى يقولوا : إنه ولده ؟ فمن نسب الولد لله فما عرف الرب . ولا آمن به ، ولاعبده ؛ فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه ، وبهذا الوجه قرر الاستدلال بهذه الحجة غير واحد من المفسرين .

قال ابن القيم : وإن شئت تقرير الاستدلال بوجه آخر ، وهو أن يقال : إذا كان نسبة السموات والأرض ومافيهما إليه إنما هى بالاختراع والخلق والإبداع ، أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود ، فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالنبوة ، وقدرته عل اختراع العالم ، وما فيه لم يزل ولم يحتج فيه إلى معاون ، ولا صاحب ، ولا شريك ، وإن شئت أن تقررها بوجه آخر ، فتقول : النسبة إليه بالبنوة مستلزمة حاجته وفقره إلى محل الولادة ، وذلك ينافى غناه وإفراده بإبداع السموات والأرض ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ فكمال قدرته ، وكمال غناه ، وكمال ربوبيته ، يحيل نسبة الولد إليه ، ونسبته إليه يقدح فى كمال ربوبيته ، وكمال غناه ، وكمال قدرته ، ولهذا كان نسبة الولد إليه مسبة له ، تبارك وتعالى ، كما فى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ، ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لاأقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله : إن لى ولداً ، فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً » أخرجاه فى "الصحيحين" واللفظ للبخارى ، وقال عمر بن الخطاب فى النصارى : "أذلوهم ولا تظلموهم ، فلقد سبوا الله مسبة ماسبه إياها أحد من البشر" ، وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ، ولا لآبائهم . كبرت كلمة تخرج من من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ وأخبر تعالى أن السموات كادت تنفطر من قولهم ، وتنشق الأرض منه ، وتخر الجبال هداً ، وما ذاك

إلا لتضمنه شتم الرب تعالى، والتنقص به، ونسبة مايمنع كمال ربوبيته، وقدرته، وغناه إليه.

الحجة الثالثة : قوله : ﴿ وإذا قضى أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وتفسير هذه الحجة أن من كانت قدرته كافية فى الإيجاد بمجرد أمره، وقوله : ﴿ كن ﴾ فأى حاجة به إلى الولد، وهو لايتكثر به من قلة، ولا يتعزز به من ذلة، ولا يستعين به من عجز، وإنما يحتاج إلى الولد من لايخلق، ولا إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، وهو المخلوق العاجز المحتاج، الذى لايقدر على تكوين ماأراد، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾ فى هذه الآية أربع حجج، تدل على استحالة نسبة الولد إليه. ومنافاتها كماله المقدس : الحجة الأولى : ماتضمنته قوله : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ ، وتقدم تقريرها قريباً ، الثانية : قوله : ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ والمعنى أنه يلزم من نسبة الولد إليه نسبة الصاحبة إليه أيضاً، وهو محال، فنسبة الولد كذلك، ووجه التلازم ظاهر، لأن الولد إنما يتولد من أصلين : فاعل ومحل قابل، يتصلان اتصالا خاصاً، فينفصل عن أحدهما جزء فى الآخر يكون منه الولد، والله تعالى ليس له صاحبة، فكيف يكون له ولد ؟.

قال ابن القيم : ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلـهاً ، وأنها والدة الإلـه عيسى، فيقول عوامهم : ياوالدة الإلـه اغفرى لى ، ويصرح بعضهم

بأنها زجة الرب ، ولاريب أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك إثبات إيلاد لايعقل ولايتوهم محال ، نخواص النصارى فى حيرة وضلال ، وعوامهم لايستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، والقوم فى هذا المذهب الخبيث أضل خلق الله ، فهم كما وصفهم الله بأنهم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ، وقال غيره : إن النصارى يقولون : إن الأب ولدت منه الكلمة . ومريم ولد منها الناسوت ، فاتحد الناسوت باللاهوت ، فكان المسيح ، فالمسيح عندهم إلـٰه تام ، وإنسان تام ، فلاهوته من الله ، وناسوته من مريم ، فهو أصلين لاهوت وناسوت ، فاذا كان أحد الأصلين أباه ، والآخر أمه ، فلم لاتكون أمه زوجة أبيه ، وإذا اتحد اللاهوت بناسوت المسيح مدة طويلة ، فلماذا يمتنع أن يجتمع اللاهوت بناسوت مريم مدة قصيرة ، وإذا جعل الناسوت الذى ولدته ابناً للاهوت ، فلأى شىء لاتجعل صاحبة وزوجة للاهوت ؟ تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً ؛

الحجة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وخلق كل شىء ﴾ وتقرير الحجة أنه قد ثبت بالبراهين القاطعة أنه تعالى خلق كل شيء ، فنسبة الولد إليه تنافى عموم خلقه ، فانه لوكان له ولد لم يكن مخلوقا له ، بل جزءاً منه ، وهذا ينافى كونه خالق كل شيء ، وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين قالوا بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة ، أو بغير واسطة . شرمن النصارى ، وأن من زعم أن العالم قديم ، فقد أخرجه عن كونه مخلوق لله ، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد ، قاله ابن القيم .

الحجة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ وتقرير الدلالة أنه تعالى لا يعلم له ولد ، فيستحيل نسبته إليه ، فانه لو كان له ولد لعلمه ، لأنه بكل شىء عليم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ فهذا نفى لما ادعوه من الشفعاء بنفى علم الرب بهم ، المستلزم لنفى المعلوم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ ، ﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم ﴾ وهاتان الآيتان ذكرهما الله تعالى بعد إكفاره النصارى فى قولهم : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ وقولهم : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وأبطل فيهما قولهم بعدة من الأدلة : الأول : التنبيه على أن المسيح عليه السلام رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبل ، جاء بآيات من الله ، كما أتوا بأمثالها ، فان الذى أبرىء الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى على يده هو الذى أحيا العصا ، وجعلها حية تسعى ، وفلق البحر على يد موسى ، إلى غير ذلك من آياته ، وهو الذى أخرج الناقة لصالح من صخرة صماء ، والذى خلق المسيح من غير ذكر ، هو الذى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، فكما لم يكن إتيانهم بالآيات دالا على آلهتهم ، فكذلك عيسى ؛ الثانى : إن من له أم فقد حدث بعد أن لم يكن ، وكل من كان كذلك كان مخلوقا ،

والمخلوق لايكون إلـٰها ؛ الثالث : أنهما كانا محتاجين لأنهما كانا يحتاجان إلى الطعام والشراب أشد الحاجة . والإلـٰه هو الذى يكون غنياً عن جميع الأشياء . فكيف يعقل أن يكون المسيح إلـٰها مع حاجته : الرابع : قال بعض العلماء : إن قوله : ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ كناية عن الحدث ، لأن من أكل الطعام ، فلا بد أن يحدث . فهذا أبلغ فى إبطال إلـٰهيته : الخامس : أن الإلـٰه لابد أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد . فلو كان المسيح إلـٰها لقدر على دفع الجوع عن نفسه بغير الطعام ، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلـٰها للعالمين ، ولما كانت هذه الحجج فى غاية الجلاء . ونهاية الظهور ، قال تعالى : ﴿أنظر كيف نبين لهم الآيات﴾ ، أى نظهرها ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أى ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء . أين يذهبون ، وبأى شيء يتمسكون ؛ السادس : أن اليهود كانوا يعادون المسيح ، ويقصدونه بالسوء ، فما قدر على الإضرار بهم ، وكان أنصاره يحتاجون إلى النفع ، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم . والعاجز عن الضر والنفع كيف يجوز أن يكون إلـٰهاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قل أفتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ : السابع : إن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه ، إلى غير ذلك من زعمهم ، ومن كان فى الضعف هكذا ، كيف يعقل أن يكون إلـٰهاً ؛ الثامن : أن إلـٰه العالم يجب أن يكون غنياً عن كل ماسواه ، وكل ماسواه يكون محتاجا إليه . فلو كان إلـٰهاً لامتنع أن يكون مشغولا بعبادة الله ، لأن الإلـٰه لايعبد

شيئاً ، إنما العبد هو الذى يعبد الإلـٰه ، فلما عرف بالتواتر كون عيسى مواظباً على الطاعات ، والعبادات دل على أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجا إلى تحصيل المنافع ، ودفع المضار ، وإذا كان كذلك كان عبداً كسائر العبيد ، ثم قال تعالى : ﴿ والله هو السميع العليم ﴾ أى فلم عدلتم عن السميع لأقوال العباد ﴿العليم﴾ بكل شيء إلى عبادة عبد من العباد لا يملك لنفسه ولو لغيره ضراً ولا نفعاً . وقد كان المسيح عليه السلام لم يسمع أقوال الذين تمالأوا عليه ، ولم يعلم بهم حتى وصلوا إليه ، فكيف تجعلونه إلـٰهاً مع الله ، تعالى الله عما يشركون ، ومن ذلك ما تضمنه صدر سورة آل عمران ، فانه كان سبب نزوله فى وفد نجران النصارى ، حين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يحاجون فى عيسى ، ويزعمون فيه مايزعمون من البنوة والإلـٰهية . فأنزل الله تعالى صدر السورة ، إلى آية المباهلة رداً عليهم ، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره ؛ فنذكر طرفا من قصتهم ، ثم نتبعه ببعض ما تضمنه صدر السورة من الحجة إن شاء الله تعالى .

قال ابن اسحاق فى " سيرته " المشهورة ، وغيره . قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، فى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذين لا يصدرون إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح ، والسيد ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة ، أحد بنى بكر بن وائل أسقفهم

وحبرهم ، وإمامهم ، وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ؛ ودرس كتبهم حتى حسن عمله فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ، وموّلوه وأخدموه . وبنوا له الكنائس ، وبسطوا له الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فلما وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً ، وإلى جنبه أخ له يقال له : كوز بن علقمة ، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كوز : تعس الأبعد . يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست ، قال : ولم يا أخى ؟! قال : والله إنه للنبى الذى كنا ننتظر ، فقال له كوز : وما منعك منه ، وأنت تعلم هذا ؟ قال : ماصنع بناهؤلاء القوم : شرفونا ، ومولونا ، وأكرمونا ، وقد أبو إلا خلافه ، فلو فعلت ، ترى منا (١) عوامنا كلما ترى ، فأضمَ عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك ، فهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغنى ، قال : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : قدموا على رسول الله صلى عليه وسلم المدينة ، فدخلوا عليه فى مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات ، جبب وأردية ، فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال : يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ : مارأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم ، فقاموا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهم فصلوا إلى المشرق » قال ابن إسحاق ، وكان من دين النصرانية على الملك مع الاختلاف من أمرهم يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ،

---

(١) فى نسخة " نزعوا منا "

ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصرانية ، فهم يحتجون فى قولهم : هو الله ، بأنه كان يحي الموتى ، ويبرىء الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً ، وذلك كله بأمر الله تبارك وتعالى ، وليجعله آية للناس ، ويحتجون فى قولهم : إنه ولد الله بأنهم يقولون : إنه لم يكن له أب يُعلم ، وقد تكلم فى المهد ، وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله ، ويحتجون فى قولهم : إنه ثالث ثلاثة ، بقول الله : فعلنا وأمرنا وقضينا ، فيقولون : لو كان واحداً ماقال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم ، ففى كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن ، فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسلما ، قالا قد أسلمنا ، قال : إنكما لم تسلما ، فأسلما ، قالا : بلى قد أسلمنا قبلك ، قال : كذبتما ، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، قالا : فمن أبوه يامحمد ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما ، فلم يجبهما ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم ، واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران ، إلى بضع وثمانين آية منها » ، ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها ، إلى أن قال : فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من الله عز وجل ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم أن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك ، فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ا وخلوا بالعاقب ، وكان ذا رأيهم ، فقالوا : ياعبد المسيح، ماترى ؟ فقال : والله يامعشر

النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم مالاعن قوم نبياً قط ، فنمى كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وأنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فان أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ياأبا القاسم قد رأينا أن لانلاعنك ، ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فانكم عندنا رضاً ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين ، قال : فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه ويساره ، فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فدعاه ، فقال : أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه ، قال عمر : فذهب بها أبى عبيدة ، وقد رويت هذه القصة بالأسانيد من وجوه أخر ، بأطول من هذا السياق ، أضربنا عن ذكرها خوف الإطالة .

وروى البخارى ، ومسلم « فى صحيحيهما » عن حذيفة رضى الله عنه ، قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لاتفعل ، فوالله إن كان نبياً فلاعناه لانفلح نحن ، ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ماسألتنا ،

وابعث معنا رجلا أميناً ، فقال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قم ياأبا عبيدة ابن الجراح ، فلما قام قال رسول الله عليه وسلم : « هذا أمين هذه الأمة » ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : لو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لايجدون أهلا ولا مالا ، رواه الإمام أحمد " فى مسنده " والبخارى " فى صحيحه " .

رجعنا إلى ماوعدنا به من التنبيه على بعض مافى صدر سورة آل عمران من الحجة على بطلان قول النصارى ، ومافى ضمنه من تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مما استنبطه العلماء من بعض أسرار هذه الآيات ، ومافيها من العلم ، وبسط الكلام على المواضع الدالة ، يستدعى طولا ، فلنقتصر على بعض مافى فاتحة السورة ، وخاتمة القصة ، قال الله تعالى : ﴿ ألـم الله لا إلـه إلا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه . وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام ، إن الله لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إلـٰه إلاهو العزيز الحكيم ، هو الذى أنزل عليه الكتاب منه آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، وأخرمتشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله ، إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، ومايذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

فنى مطلع هذه السورة الكريمة من إقامة البرهان على وحدانية الله تعالى ونفى الولد عنه ، وعلى بطلان ربوبية المسيح ، وعلى تحقيق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ماهو من الحجج القواطع لشبه المبطلين ، والأدلة المنادية بجهالة المجادلين ، وذلك أن أولئك النصارى الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل لهم : إما أن تجادلوه فى معرفة الإلٰه أو فى النبوة . فان كان النزاع فى معرفة الإلٰه ، وتقولون : إن المسيح ابن الله ، وتقولون : إنه الله ، وتقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، فالحق معه بالدلائل القطعية ، فانه قد ثبت بالبرهان أنه حى قيوم ، والحى القيوم يستحيل نسبة الولد والشريك إليه ، لأن ذلك يقدح فى حياته ، وقيُّوميته ، وإن كان النزاع فى النبوة فهذا أيضاً باطل ، لأن الطريق الذى عرفتم به أن الله أنزل التوراة والإنجيل على موسى وعيسى هو بعينه قائم فى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ذاك إلا ما اقترن به من الدلائل والمعجزات ، وهو حاصل هٰهنا ، فكيف يمكن منازعته فى صحة نبوته .

والحاصل أن هذه الآيات الكريمات تضمنت إقامة الحجة فى أصلين : الأول : فى الإلٰهيات ، والثانى فى النبوات ، وتقرير الأول أنه حى قيوم ، وماكان حياً قيوماً يمتنع أن يكون له ولد ، أو مشارك ، لأن الحى القيوم هو واجب الوجود لذاته وحياته وقيُّوميته ، لا ابتداء لها ولا انتهاء ، فهو الأول ، فلا شيء قبله ، والآخر ، فلا شيء بعده ، وأما ماعداه ، فانه ممكن الوجود لذاته ، حدث بتخليق الحى القيوم وإيجاده وتكوينه ، وماكان محدثا مخلوقا لايكون إلٰهاً .

وأيضاً فنسبة الولد إليه تنافى كمال حياته وقيّـوميته ، وذلك لأن الولد جزء الوالد ، وفرع عنه ، والولد حادث ، بعد أن لم يكن ، لأنه بالضرورة ، لابد أن يكون مسبوقاً بالأب ، فيلزم من ذلك حدوث الأب أيضاً بالضرورة للارتباط الذى بين الأب والابن من المشابهة ، وهذا هو التعطيل الصرف ، فثبت أن دعوى الولد لله تنافى ربوبيته للعالمين .

وأيضاً لما ثبت أن الإلـٰه يجب أن يكون حياً قيوماً ، وثبت أن عيسى لم يكن حياً قيوماً ، لأنه وُلد ، وكان يأكل ويشرب ويحدث ، والنصارى زعموا أنه قتل وصلب ، وما قدر على الدفع عن نفسه ، فثبت أنه ماكان حياً قيوماً ، وذلك يقتضى القطع والجزم بأنه ماكان إلـٰها ، فهذه الكلمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ الحى القيوم ﴾ جامعة لجميع وجوه الدلائل على بطلان قول النصارى بالتثليث .

وأما الأصل الثانى ، وهو إثبات النبوة ، فقد ذكر الله تعالى تقريره هٰهنا فى غاية الحسن ونهاية الجودة ، وذلك أنه قال : ﴿ نزل عليك الكتاب ﴾ وهذا يجرى مجرى الدعوى ، ثم إنه تعالى أتبع ذلك بأدلة مايدل (١) على صحتها .

الدليل الأول مادل عليه قوله الحق ، وقدقال المفسرون فيه أقوالا كلها مطابقة لوصف القرآن ، دالة على المقصود ، فقيل : وصفه بقوله بالحق . لأنه يحمل المكلف على ملازمة الطريق الحق فى العقائد والأعمال ، ويمنعه عن سلوك طريق الباطل ، وقيل : لأنه قول فصل ، وليس بالهزل ، وقيل : لأنه تعالى أنزله بالحق يجب له على خلقه من العبودية ، وشكر

(١) فى نسخة « تدل »

النعمة ، وإظهار الخضوع ، وما يجب لبعضهم على بعض ، من العدل والإنصاف فى المعاملات ، ولأنه أنزله يصدق بعضه بعضاً ، ولا يتناقض ، كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ﴾ وقال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وهذا كله من صفات القرآن ، فدل على أنه من عند الله .

الدليل الثانى : قوله تعالى : ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ والمعنى أنه مصدق لكتب الأنبياء عليهم السلام فيما أخبروا به عن الله تعالى ، فدل على أنه من عند الله من وجهين : الأول : أن الذى جاء به رجل أمى لم يقرأ شيئاً من الكتب . ولا أخذ عن أحد من العلماء ، ومع ذلك جاءت أخباره مطابقة لأخبار الأنبياء فيما تضمنه من القصص ، ومن الخبر عن الله ، وهذا برهان قاطع على أنه لم يعلم ذلك إلا بوحى من الله تعالى . الوجه الثانى : أن الله تعالى لم يبعث نبياً قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به ، وتنزيهه عما لايليق به ، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان ، والقرآن جاء بهذه المطالب على أكمل الوجوه وأحسنها ، فهو مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك ، فدل على أنه من عند الله .

الدليل الثالث : قوله تعالى : ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ﴾ وتقرير الدلالة أن يقال : وافقتمونا أيها اليهود والنصارى على أنه تعالى أنزل التوراة والإنجيل كتابين إلـهيين . وأنه تعالى قرن بإنزالهما المعجزة والدلالات الدالة على الفرق بينهما وبين أقوال الكاذبين ، فانه

لولا المعجزة لما حصل الفرق بين قول المحق وقول المبطل ، ثم إن تلك المعجزات والأدلة ، كما حصلت فى كون التوراة والإنجيل نازلين من عند الله ، فذلك أيضاً حاصل فى كون القرآن نازلا من عند الله ، وإن كان الطريق مشتركا ، فإما أن يكون الواجب تكذيب الكل ، كما هو قول البراهمة ومن ضاهاهم ، أو تصديق الكل ، كما هو قول المسلمين ، وهو الحق الواضح المبين ، فأما قبول البعض ، ورد البعض ، فذلك جهل وضلال ؛ ولما قرر تعالى هذه الدلالات القاطعات فى شأن الإلٰهيات والنبوات أتبع ذلك بالوعيد لمن أعرض عنها وكفر بها ، فقال تعالى : ﴿إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام﴾ .

واعلم أن النصارى لما ادعوا الإلٰهية فى المسيح تعلقوا فى دعواهم بشبهات أربع ، فلما قرر تعالى بطلان قولهم فى إلٰهية عيسى ، وفى التثليث بقوله : ﴿الله لا إلٰه إلا هو الحى القيوم﴾ أتبع ذلك بإبطال شبههم .

فالشبهة الأولى تتعلق بالعلم ، وهو أن المسيح عليه السلام كان يخبر بالغيوب ، قالوا : فوجب أن يكون إلٰهاً .

فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء﴾ وتقرير الجواب أنه لا يلزم من كونه عالماً ببعض المغيبات أن يكون إلٰهاً ، لأن ذلك إنما كان بوحى من الله إليه ، واطلاعه على ذلك دلالة على نبوته ، لكن عدم إحاطته ببعض المغيبات دليل قاطع على أنه ليس بإلٰه ، لأن الإلٰه هو الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فان الإلٰه هو الذى يكون خالقاً ، والخالق لا بد أن يكون عالماً بمخلوقه ،

وما ذاك إلا الله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ﴾ .

ومن المعلوم بالضرورة أن عيسى ماكان عالماً بجميع المعلومات والمغيبات ، كيف والنصارى يزعمون أنه أظهر الجزع من الموت ، فلو كان عالماً بالغيب كله لعلم أن القوم يريدون أخذه وقتله ، وأنه يتأذى بذلك ، ويتألم ، وكان يفر منهم قبل وصولهم ، فلما لم يعلم هذا الغيب ظهر أنه ماكان عالماً بجميع المعلومات والمغيبات ، والإلٰه هو الذى لايخفى عليه شىء من المعلومات ، فوجب القطع بأن عيسى ماكان إلٰهاً .

الشبهة الثانية : قالوا : لما ثبت أنه كان يحي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ، وجب أن يكون إلٰهاً ، فأجاب الله تعالى عنها بقوله : ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ ، والمعنى أن حصول الإحياء والإماتة ، على وفق قول عيسى فى بعض الأحوال لايدل على كونه إلٰهاً ، لأنا نقول : إن ذلك وقع باذن الله تعالى معجزة دالة على نبوته ، لكن عجزه عن الإحياء والإماته فى بعض الصور ، يدل على عدم إلٰهيته ، وذلك أن الإلٰه هو الذى يكون قادراً على أن يصور فى الأرحام من قطرة صغيرة من النطفة هذا التركيب العجيب ، والتأليف الغريب ، ومعلوم أن عيسى عليه السلام ماكان قادراً على خلق الإحياء والإماتة على هذا الوجه ، كيف ولو قدر على ذلك لأمات أولئك الذين زعم النصارى أنهم أخذوه وقتلوه ، فظهر أن حصول الإحياء والإماتة فى بعض الصور على وفق قوله لايدل

على كونه إلـٰهاً ، وأيضاً فعيسى عليه السلام صُور فى الأرحام ، وتقلب فيها ، كسنة الله فى غيره من ذرية آدم ، فعلم أنه معلوم[١] كسائر الخليقة ، فبطل أن يكون إلـٰهاً .

الشبهة الثالثة : إن النصارى يقولون : إنكم أيها المسلمون توافقونا على أنه ماكان له أب من البشر ، فوجب أن يكون ابناً لله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبير ، فأجاب الله تعالى عنها أيضاً بقوله : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ لأن هذا التصوير لما كان من الله تعالى ، فإن شاء صوره من نطفة الأب ، وإن شاء صوره ابتداءاً من غير الأب ، كيف وقد خلق تعالى آدم من تراب ، من غير أب ولا أم ، فلما كان مقتدراً على ماشاء من التصوير بطل ماتعلقوا به فى ذلك .

الشبهة الرابعة : أنه ورد فى بعض الروايات أن أولئك النصارى قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : ألست تقول : إن عيسى كلمة الله وروحه ؟ فهذا يدل على أنه ابن الله ، وفى بعض الروايات أنهم احتجوا على التثليث بقول الله تعالى : قضينا وأمرنا ونحوه ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ والمعنى كما قال محمد ابن إسحاق ﴿ منه آيات محكمات ﴾ فيهن حجة الرب وعصمة العباد ، ودفع الخصوم ، والباطل ، ليس لهن تصريف ، ولا تحريف عما وضعن عليه ، ﴿ وأخر متشابهات ﴾ لهن تصريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم فى الحلال والحرام أن لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق ،

---

(١) لعله "مخلوق"

يقول الله عز وجل : ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ ﴾ أى ميل عن الحق إلى الهوى ﴿ فيتبعون ماتشابه منه ﴾ أى ما تصرف ، ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، ليكون لهم حجة ، ولهم على ماقالوا شبهة ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أى اللبس ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ على ماركبوا من الضلالة فى قوله : خلقنا وقضينا ، يقول الله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾ فكيف يختلف ، وهو قول واحد ، من رب واحد ، ثم ردوا تأويل المتشابه على ماعرفوا من تأويل المحكمات التى لاتأويل لأحد فيها ، إلا تأويل واحد . فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدق بعضه بعضاً ، فنفذت به الحجة ، وظهر به العذر ، وانزاح به الباطل ، ودمغ به الكفر ، يقول الله تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، وهذا الكلام من ابن إسحاق من أحسن ماقيل فى الآية وأبينه .

وحاصل الجواب عن الشبهة أن النصارى تعلقوا بظاهر لفظ من القرآن يحتمل عدة معانى من الحقيقة والمجاز ، فهو من المتشابه الذى يجب رده إلى المحكم الذى لايحتمل غير معناه الظاهر لكل أحد ، فتعلقوا بقوله : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ﴾ وغفلوا عن قوله فى عيسى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ وقوله : ﴿ إنى عبد الله ﴾ وقوله : ﴿ أن أعبدوا الله ربى وربكم ﴾ فأخبر الله تعالى أن ذلك لما فى قلوبهم من الزيغ ، وهكذا من شابههم من هذه الأمة ، كما ثبت فى " الصحيحين " وغيرهما عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية ، قال : « فإذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » ،

هذا لفظ البخارى، وقدكان الذين أنكروا الحلول والاتحاد من النصارى الذين يصدقون بلفظ الأب والإبن وروح القدس، وأن تلك العبارة مأخوذة عن إنجيل المسيح يقولون مع ذلك: إن المسيح عبد مرسل كسائر الرسل فوافقوهم على اللفظ ولم يفسروا ذلك بما يقوله منازعوهم من الحلول والاتحاد، كما أن النسطورية يوافقونهم أيضاً على هذا اللفظ، وينازعونهم فى الاتحاد الذى يقوله اليعقوبية والملكية، فلما كانوا متفقين على اللفظ، متنازعين فى معناه، علم أنهم صدقوا باللفظ أوّلا لأجل اعتقادهم مجىء الشرع، ثم تنازعوا بعد ذلك فى تفسيره، كما يختلفون هم وسائر أهل الملل فى تفسير بعض الكلام الذى يعتقدون أنه منقول عن الأنبياء عليهم السلام، وكلما صح عنهم أنهم قالوه فهو حق، لأنهم لا يقولون إلا الحق، ولا بد له إذا كان صحيحاً عنهم من معنى صحيح يوافق اللفظ المحكم الذى لا يحتمل غير معناه الظاهر لكل أحد، فظهر بما قرر من قوله: ﴿ الحى القيوم ﴾ إشارة إلى مايدل على أن المسيح ليس بإلـه، ولا ابن للإلـه، وأن قوله: ﴿ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ جواب عن الشبهة المتعلقة بالعلم، وقوله: ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ جواب عن تمسكهم بقدرته على الإحياء والإماتة، وعن تمسكهم بأنه ما كان له أب من البشر، فيجب أن يكون ابناًلله، وأن قوله: ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾ الآية جواب عن تمسكهم بما ورد فى القرآن من الألفاظ المحتملة لعدة من المعانى، ومن تأمل ماذكرناه علم أنه ليس فى المسألة حجة، ولا شبهة،

ولاسؤال ، ولا جواب إلا وقد اشتملت عليه هذه الآيات ، فالحمد لله الذى أغنى عباده المؤمنين بكتابه ، وما أودعه من حججه وبيناته عن شقائق[1] المتكلمين ، وهذيانات المتهوكين ، فلقد عظمت نعمة الله على عبد أغناه بفهم كتابه عن الفقر إلى غيره ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون، ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

ثم ذكر تعالى أنواعاً من الحجج ، وشرح قصة مريم وعيسى عليهما السلام شرحاً جلياً ، متضمناً لأنواع من الأدلة على بطلان قول النصارى بما لا يتسع هذا المختصر لشرحه ، إلى أن قال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ وفى هذه الآية إبطال شبهه النصارى فى قولهم : لما لم يكن له أب من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، فبين تعالى أنه خلق آدم من تراب ، ولم يكن له أب ولا أم ، ولم يلزم من ذلك أن يكون ابناً لله ، فكذا القول فى عيسى ، وأيضاً فلما جاز أن يخلق الله آدم من التراب فلم لايجوز أن أن يخلق عيسى من دم مريم ؟ بل هذا أقرب إلى العقل ، فان تولد الحيوان من الدم الذى يجتمع فى رحم المرأة أقرب من تولده من التراب اليابس ، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه فى تنويع التخليق ، فيعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً .

(١) لعله عن شقاشق .

وبعد أن بين تعالى أنواع الأدلة القاطعة فى صدر السورة وأجاب عن شبه النصارى على أكمل الوجوه وأحسنها ، وكان من أنصف وطلب الحق علم أن البيان قد بلغ الغاية القصوى ، لاجرم قال تعالى بعد ذلك : ﴿فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ يعنى فبعد هذه الدلائل الواضحة ، والجوابات اللائحة ، فاقطع الجواب معهم ، وعاملهم بها تعامل به المعاند ، وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إليها فنكصوا ورجعوا إلى الصلح ، وأقروا بالصغار ، وبذلوا الجزية ، كما تقدم فى القصة ، فكان ذلك دليلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من وجهين : أحدهما : أنه عليه الصلاة والسلام خوفهم بنزول العذاب ، فلو لم يكن واثقاً بذلك لكان ذلك منه سعياً فى إظهار كذب نفسه ، لأن بتقدير أن يرغبوا فى المباهلة ، ثم لاينزل العذاب يكون ذلك تكذيباً له ، ومعلوم أنه كان صلى الله عليه وسلم من أعقل الناس ، بل هو أعقلهم على الإطلاق ، ولا يليق بالعاقل أن يعمل عملا يفضى إلى ظهور كذبه ، فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقاً بنزول العذاب عليهم لو فعلوا ؛ الثانى : أن القوم لما تركوا المباهلة ، وأعطوا الصغار من أنفسهم ، فلولا أنهم علموا من التواراة والإنجيل مايدل على نبوته لما أحجموا عن مباهلته ، ورضوا لأنفسهم بالذل والصغار ، بل قد تقدم فى القصة مايدل صريحاً على معرفتهم به ، وأنه النبي المبشر به فى كتب الأنبياء

فصـــل

ولا بأس بذكر مناظرة حكاها بعض العلماء جرت بينه وبين بعض النصارى ممن يدعى التحقيق والتعمق فى مذهبه ، قال : قال لى النصرانى : ما الدليل على نبوة محمد ؟ فقلت له : كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، نقل إلينا ظهور الخوارق على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن رددنا التواتر أو قبلناه ، لكن قلنا : إن المعجزة لاتدل على الصدق ، فحينئذ تبطل نبوة سائر الأنبياء ، وإن اعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق ، ثم أنها حاصلان فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ، وجب الاعتراف قطعاً بنبوته ضرورة أن عند الاستواء فى الدليل لابد من الاستواء فى حصول المدلول ، فقال النصرانى : إنى لاأقول فى عيسى أنه كان نبياً ، بل أقول كان إلـٰهاً ، فقلت له : هذا الذى تقوله باطل ، لأن الإلـٰه هو واجب الوجود لذاته ، وعيسى هو هذا الشخص البشرى الذى وجد بعد أن كان معدوماً ، وقتل على قولك بعد أن كان حياً ، فكان أولا طفلا ، ثم صار مترعرعا ، ثم صار شابا ، وكان يأكل ويشرب ، ويحدث ، وينام ، ويستيقظ ، وقد تقرر فى بداية العقول أن المحدث لايكون قديماً ، والمحتاج لايكون غنياً ، والممكن لايكون واجباً ، والمتغير لايكون دائماً ، هذا وجه .

والوجه الثانى فى إبطال هذه المقالة أنكم معترفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حياً على الخشبة ، وفعلوا معه من الإهانة والأذى ماتدعونه ، وأنه كان يحتال فى الهرب منهم ، وفى الاختفاء عنهم ، وحين

عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد ، فلوكان إلٰهاً أوكان الإلٰه حالا فيه أوكان جزء من الإلٰه حالا فيه ، فلم لم يدفعهم عن نفسه ، ولم يهلكهم بالكلية ؟ وأى حاجة به إلى إظهار الجزع والاحتيال فى الفرار منهم ؟ .

الوجه الثالث : وهو أنه إما أن يقال : بأن الإلٰه هو هذا الشخص الجسمانى المشاهد ، أو يقال : حل الإلٰه بكليته فيه أو حل بعض الإلٰه وجزء منه فيه ، والأقسام الثلاثة باطلة ، أما الأول : فلأن إلٰه العالم لو كان هو ذلك الجسم فحين قتلته اليهود كان ذلك قولا بأن اليهود قتلوا إلٰه العالم ، فكيف بقى العالم بغير إلٰه ؟ ثم إن أشد الناس ذلا ودناءة اليهود ، فالإلٰه الذى يقتله اليهود إلٰه فى غاية العجز ، وأما الثانى : وهو أن الإلٰه بكليته حل فى الجسم ، فهو أيضاً فاسد ، لأن الإلٰه إن لم يكن جسما ولا عرضاً امتنع حلوله فى الجسم ، وإن كان جسما فحينئذ يكون حلول فى الجسم عبارة عن اختلاط أجزائه بأجزاء ذلك الجسم ، وذلك يوجب وقوع التفرق فى أجزاء ذلك الإلٰه ، وإن كان عرضاً كان محتاجا إلى غيره ، وذلك محال فى حق الإلٰه ، وأما الثالث ، وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإلٰه ، وجزء من أجزائه ، فذلك أيضاً محال ، أن ذلك الجزء إن كان معتبراً فى الإلٰهية ، فعند انفصاله عن الإلٰه وجب أن لا يبقى الإلٰه إلٰها ، وإن لم يكن معتبراً فى تحقق الإلٰهية لم يكن جزءاً من الإلٰه ، فثبت فساد هذه الأقسام ، فكان قول النصارى باطلا .

الوجه الرابع : فى بطلان قول النصارى ما ثبت بالتواتر أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة فى العبادة والطاعة لله تعالى ، فلو كان إلٰهاً

لاستحال ذلك ، لأن الإلـٰه لا يعبد نفسه ، فهذه وجوه فى غاية الجلاء والظهور دالة على فساد قولهم . انتهى .

وبالجملة . فالأمر كما قال أبو عبد الله بن القيم : إن دين الأمة الصليبية بعد أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، بل قبله بنحو من ثلاثمائة سنة مبنى على معاندة العقول والشرائع . وتنقص إلـٰه العالمين ، ورميه بالعظائم ، فكل نصرانى لا يأخذ بحظه من هذه البلية ، فليس بنصرانى على الحقيقة ، أفليس هو الدين الذى أسسه أصحاب المجامع المتلاعنين ، على أن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، فياعجباً كيف يرضى العاقل أن يكون هذا مبلغ علمه ومنتهى عقله . أترى لم يكن فى هذه الأمة من يرجع إلى عقله وفطرته ، ويعلم أن هذا عين المحال . وإن ضربوا له الأمثال ، واستخرجوا له الأشباه ، فلا يذكرون مثالا . ولا شبهاً إلا وفيه بيان خطأهم وضلالهم ، كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت ، وامتزاجه به باتحاد النار والحديد ، وتمثيل بعضهم ذلك باختلاط الماء باللبن ، وتشبيه آخرين ذلك بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن . إلى غير ذلك من الأمثال والمقاييس التى تتضمن امتزاج حقيقتين واختلاطهما ، حتى صارا حقيقة أخرى ، تعالى الله عن كذبهم وإفكهم ؛ ولم يقنعهم هذا القول فى رب السموات والأرض ، حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم ذليلا مقهوراً ، وهو يحمل خشبته التى صلبوه عليها ، وأن اليهود يبصقون فى وجهه ويضربونه ، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات ، وتركوه مصلوباً حتى التصق شعره بجلده لما يبس دمه بحرارة الشمس ، ثم دفن وأقام تحت التراب ثلاثة أيام ، ثم قام بلاهوتيته من قبره ، هذا قول

جميعهم ، ليس فيهم من ينكر منه شيئاً ، فياللعقول ! كيف كان حال هذا العالم الأعلى والأسفل فى هذه الأيام الثلاثة ، ومن كان يدبر السموات والأرض ، ومن الذى خلف الرب سبحانه فى هذه المدة ، ومن كان الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض ، وهو مدفون فى قبره ، ويا عجباً ! هل دفنت الكلمة معه بعد أن قتلت وصلبت ، أم فارقته وخذلته ، أحوج ما كان إلى نصرها له ، كما خذله أبوه وقومه ، فان كانت فارقته وتجرد منها فليس هو حينئذ المسيح ، وإنما هو كغيره من آحاد الناس ، وكيف يصح مفارقتها له بعد أن اتحدت به ، ومازجت لحمه ودمه ، وأين ذهب الاتحاد والامتزاج ، وإن كانت لم تفارقه وقتلت وصلبت ودفنت معه ، فكيف وصل المخلوق إلى قتل الإلـٰه وصلبه ودفنه ؟ ويا عجباً ! أى قبر يسع إلـٰه السموات والأرض .

هذا ، وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون .

أعبَّاد المسيح لنا سؤال * نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإلـٰه بفعل قوم * أماتوه ، فما هذا الإلـٰه ؟
وهل لرضاه مانالوه منه ، * فبشراهم إذا نالوا رضاه ؟!
وإن سخط الذى فعلوه فيه * فقوتهم إذاً أوهت قواه
وهل بقى الوجود بلا إلـٰه * سميع يستجيب لمن دعاه ؟!
وهل خلت الطباق السبع لما * ثوى تحت التراب ، وقد علاه ؟!
وهل خلت العوالم من إلـٰه * يدبرها ، وقد شدت يداه ؟!
وكيف تخلت الأملاك عنه * بنصرهم ، وقد سمعوا بكاه ؟!

وكيف أطاقت الأخشاب حمل * إلـٰه الحق مشدوداً قفاه ؟!
وكيف دنى الحديد إليه حتى * يخالطه ، ويلحقه أذاه ؟!
وكيف تمكنت أيدى عداه * وطالت حين قد صفعوا قفاه؟!
وهل عاد المسيح إلى حياة * أم المحيي له رب سواه ؟!
ويا عجباً لقبر ضم رباً ! * وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسعاً من شهور * لدى الظلمات من حيض غذاه
وشق الفرج مولوداً صغيراً * ضعيفاً فاتحاً للثدى فاه
ويأكل ، ثم يشرب ، ثم يأتى * بلازم ذاك ، هل هذا إلـٰه ؟!
تعالى الله عن إفك النصارى * سيسأل كلهم عمن افتراه
فياعبد المسيح أفق ، فهذى * بدايته . وهذا منتهاه

فصل

وأما قول النصرانى : وكان يشوع ذا صلاح تام فى سيرته حتى لم يطعن فى عرضه بشيء ، أما محمد فهو صاحب الغزاة والقتال مغرما بالنساء والنكاح [1] .

فالجواب ، وبالله التوفيق : أما عيسى عليه السلام فهو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وهو أحد الخمسة أولى العزم من الرسل وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، وحاشا رسل الله وأنبيائه أن يطعن عليهم فى أعراضهم بشيء ، كيف ! وهم الذين اصطفاهم الله لرسالاته . وجعلهم سفراء بينه وبين عباده ،

(١) فى نسخة ''كثير النكاح''

فاعتقاد المسلمين فى المسيح كغيره من الرسل هو ماجاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهو إنزالهم المنزلة التى أنزلهم الله إياها ، فلا يغلون غلو النصارى ، ولا يجفون جفاء اليهود ، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم ، وأما فضائل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وصلاح سيرته ، وعظم أخلاقه ، وزهادته فى الدنيا ، وإعراضه عن زهرتها ، فقد قدمنا إشارة يسيرة إلى ذلك ، وهو غيض من فيض ، ونقطة من بحر ، لأنا قد بنينا كتابنا هذا على الاختصار ، والتنبيه على مقاصده بأدنى إشارة ، فلو تتبعت فضائله ، وفصلت شمائله ، وشرحت أخلاقه ، لكان ذلك فى مجلدات كثيرة ، فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون عليه دائماً إلى يوم الدين ، وأبد الآبدين .

وقوله : فهو صاحب الغزاة ، إلى آخره ، جوابه : أما النكاح ، ومحبة النساء فقد قدمنا فيه مايكفى ، وبينا أن ذلك من الفضائل لامن الرذائل ، ومن المناقب لامن المثالب ، وأنه من سنن الأنبياء والمرسلين ، ومن طريق عباد الله الصالحين ، فلا يتأتى الطعن بالنكاح وملابسة النساء إلا بتنقص الأنبياء والمرسلين ، كنوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وهارون ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم من أنبياء الله ورسله ، وكفى بذلك عماية قلب ، وسخافة عقل ، وسمة ضلالة ، وقبيح جهالة .

وأما اعتراضه بالغزو والقتال ، فهو اعتراض باطل من وجوه :

الأول : أن الغزو والقتال للأعداء فضيلة متنافس فيها على الجملة ، دالة على شرف النفس ، وعلو الهمة ، ولم يزل

التمادح به مشهوراً فى القديم والحديث . وإنما يذم ما كان منه ظلماً وعدواناً ، وليس كذلك قتال نبينا صلى الله عليه وسلم ، لما نبينه .

فى الوجه الثانى ، وهو : أن قتاله صلى الله عليه وسلم إنما هو عن أمر الله تعالى وشرعه لإقامة دين الله ، وإبطال عبادة من سواه من الأنداد والأصنام . وهذا من أعظم الفضائل وأكبر المناقب ، وأرفع الرتب ، وهو قتال الأنبياء وأتباعهم ، ولنبينا صلى الله عليه وسلم وأتباعه من هذه الفضيله أوفر حظ ، وأكمل نصيب .

الوجه الثالث : أن قتاله صلى الله عليه وسلم من أعلام نبوته وأدلة رسالته ، لأنه مطابق لما جاء من نعته فى كتب الأنبياء عليهم السلام ، كما قدمنا من نص الزبور فى قوله : تقلد أيها الجبار بالسيف ، فان شريعتك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك ، وسهامك مسنونة ؛ وفى النص الآخر فى صفته صلى الله عليه وسلم وصفة أمته : بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على أنه يبعث بالسيف والقتال . وتقدم فى قصة ابن الهيبان الحبر فى وصيته اليهود باتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، قوله : لا تسبقن عليه يامعشر اليهود . فانه يبعث بسفك الدماء وبسبي الذرارى والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه .

الوجه الرابع : أن القتال ليس مختصاً بشريعته صلى الله عليه وسلم فقد قاتل كثير من الأنبياء عليهم السلام بإذن الله لهم فى ذلك وأمره ، وقد أمر الله بنى إسرائيل بقتال الجبارين ، ودخول الأرض المقدسة مع موسى عليه السلام ، فلما عصوا أمر الله عاقبهم بالتيه أربعين سنة ، وبعد

خروجهم منه توجهوا لقتال الجبارين مع يوشع بن نون عليه السلام ، ففتح الله عليهم ، ولم يزل الجهاد والقتال مشهوراً فى بنى إسرائيل ، ومعهم الأنبياء ، كما قال الله تعالى : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله . وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ﴾ وأما كون القتال غير مشروع لعيسى عليه السلام ، فذلك لا يدل على أن تركه أفضل مطلقاً ، بل هذا من اختلاف الشرائع ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ .

الوجه الخامس : إن فى الجهاد من المصالح العظيمة ، والحكم الباهرة فيما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة ما لا يحصى : فمنها ما يترتب عليه من إعلاء كلمة الله ، وإقامة دينه ، وعزة أنصاره ؛ وإنفاذ أحكامه : وقد حصل به من ذلك على يد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه ما شتت شمل الكفر ، وفرق كلمة الإشراك ، ورغم أنف الشيطان اللعين ؛ ومنها إنقاذ الهالكين فى الكفر ، والضلالة ، وعبادة الأصنام والأنداد ، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . ومن طريق النار إلى سبيل الجنان ، ومن رق الشيطان إلى عبادة الرحمن . وقد أنقذ بهذه الأمة وجهادها من شاء الله من الأمم الهالكين . وفى هذا المعنى ما رواه البخارى فى " صحيحه " عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قول الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ قال : خير الناس للناس ، تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم ، حتى يدخلوا فى الإسلام ؛ ومنها ابتلاء الله تعالى عباده ، واختبارهم بتكليفهم القتال ، وبذلهم فى طاعته النفوس والأموال ، كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم

حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز ﴾ ومنها مايترتب على ذلك من عظيم المثوبات ، ورفعة الدرجات بما بذلوا من مهجهم وأموالهم فى طاعة الله ، ونصرة دينه ، فالمجاهدون أرفع الناس درجة فى الدنيا والآخرة .

الوجه السادس : أنه إذا كان قتاله صلى الله عليه وسلم عن أمر الله لثبوت رسالته ، فالاعتراض عليه فى شيء من أمره اعتراض على الله ، لأنه الذى شرع وأمر ، وهذا نظير اعتراض من يعترض من المكذبين للرسل على ذبح الحيوان للأكل ، بأن هذا تعذيب للحيوان لا يأذن الله فيه .

وإذا كانت شرائع الأنبياء جاءت بذبح بعض الحيوانات للأكل ، وقتل بعضها دفعاً للأذى ، مع أنه لا تكليف عليها ، ولا ذنب لها ، فكيف يكون الأمر فى قتال أعداء الله الكافرين به ، المكذبين رسله ، العابدين معه آلهة أخرى ، لا جرم أن قتالهم وغزوهم وجهادهم حتى يؤمنوا بالله ، ويتابعوا رسوله لفى غاية الصلاح ، ونهاية السداد ، وتمام الحكمة .

وبالجملة ففضائل الجهاد فى سبيل الله أكثر من أن يأتى عليها الوصف ، وما كان هذا شأنه فلا شك أن المتصف به قد حاز فضلا عظيما ، واقتنى خيراً كثيراً ، وأن مشروعيته فى هذه الملة من محاسنها ومحاسن من جاء بها ، وفضائل أتباعه الذين هم خير أمة أخرجت للناس .

فصـــل

وأما قول النصراني: وكان يشوع قد ارتفع إلى السماء ، وأما محمد فهو بقي محبوساً في القبر ، فجوابه: أن الله تعالى خص من شاء من رسله بما شاء من الخصائص ، وخص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بخصائص كثيرة لم يشركه فيها أحد من الأنبياء ، وشارك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في خصائص كثيرة ، بل قال بعض العلماء إنه ماخص نبي بشيء إلا كان لنبينا صلى الله عليه وسلم مثله ، زيادة مااختص به عن جميعهم ، وقد بسط العلماء ذلك بما يبين للمتأمل صحته ، ولسنا بصدد تفصيل ذلك خوف الإطالة ، فمن ذلك ماذكر من رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، فان نبينا صلى الله عليه وسلم قد أعطى ذلك ليلة المعراج إلى السموات ، وزاد في الترقي لمزيد الدرجات ، وحظي بسماع المناجاة ، ومشاهدة الكبرى من الآيات ، والوصول إلى ذلك المقام الذى سمع فيه صريف الأقلام ، وفرضت عليه هناك الصلوات ، وخلعت عليه خلع الكرامات ، وهذه فضيلة لم تجيء لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأيضاً فلو لم تجيء هذه الفضيلة لنبينا صلى الله عليه وسلم لم يكن عدمها دالا على فضيلة عيسى عليه السلام عليه . لأن لنبينا صلى الله عليه وسلم من الفضائل والخصائص ماهو مقتضى سيادته لولد آدم . فتخصيص المفضول بخصيصة للفاضل ليست للفضائل[١] أمر معلوم ، كما خص داود عليه السلام بإلانة الحديد ، وتأويب الجبال والطير معه . وسليمان بتسخير الجن والشياطين ،

---

(١) وفي نسخة «للفاضل»

وتسخير الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، والملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، وكرفع إدريس عليه السلام إلى السماء ، وأمثال ذلك ، وكل هذا لايدل على تفضيل هؤلاء الأنبياء عليهم السلام على الخمسة أولى العزم الذين هم أفضل الرسل . وإن لم تكن لهم تلك الخصائص ، فان الذى أوتوه من الفضائل والخصائص من وجوه أخر أعظم وأفضل ؛ وقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى ، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة ، فليصل حيث كان ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » . أخرجه البخارى . وغيره ؛ وفى رواية : « وبعثت إلى الناس كافة » وليس المراد حصر خصائصه صلى الله عليه وسلم فى هذه الخمس المذكورة ، فقد روى مسلم فى "صحيحه" عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » فذكر الخمس المذكورة فى حديث جابر ، وزاد خصلتين وهما : « أعطيت جوامع الكلم ، وختم بى النبيون » ، وله صلى الله عليه وسلم من مشاهير الخصائص غير هذا كتخصيص أمته بوضع الإصار ، وحط الأثقال التى كانت على من قبلهم ، ورفع تحميلهم مالا يطاق ، ورفع الخطأ والنسيان عنهم . وتسميته صلى الله عليه وسلم أحمد ، وإعطائه

مفاتيح خزائن الأرض ، وجعل أمته خير الأمم ، وغفران ذنبه ، ماتقدم ، وما تأخر . وبقاء معجزة القرآن الذى أنزل عليه إلى يوم القيامة ، وإعطائه الكوثر ، وإعطائه لواء الحمد يوم القيامة ، وأن آدم ومن دونه تحت لوائه ، وبعض العلماء عد خصائصه ستين خصلة ، وليس غرضنا استقصاء ذلك . فاكتفينا بالتنبيه عليه ، رداً لكلام المبطل ، ونقضاً لاعتراضه ، وطريق إثبات هذه الخصائص هو طريق إثبات المعجزات ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى

فصـــــل

وأما قول النصرانى : فمن ذا الذى لاينظر أيهما أولى أن يتبع ، فالجواب : أن من نظر لنفسه ونصحها ، ونظر بعين البصيرة والعقل الصحيح فى دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثرة فضائله ، وظهور معجزاته ، وشواهد نبوته ، وشهادة الله له بالصدق بما أيده به من عظيم الآيات لايعتريه شك ، ولا يخالجه ريب ، ولا يقف أدنى وقفة فى وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم ، والدخول فى دينه ، والسلوك على منهاجه ، وذلك هو حقيقة اتباع المسيح عليه السلام والإيمان به ، لأنه بشّر به ، وعهد إلى أتباعه بالإيمان به . ونصرته ، كما أخذ الله الميثاق بذلك على النبيين ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ، لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال على بن أبى

طالب ، وابن عمه عبد الله بن عباس : مابعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ الله عليه الميثاق ، لأن بُعثَ محمداً وهو حي ، ليؤمنن به ولينصرنه .

وأيضاً فالنظر فى أيهما أولى أن يتبع فاسد بعد ظهور دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ظهوراً أظهر من شمس الظهيرة ، وقد دعى الناس جميعاً إلى اتباعه ، وأخبر أنه رسول الله إليهم جميعاً ، وأن شرائع الأنبياء منسوخة بشرعه ، وأن من سمع به من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ، ثم لم يؤمن به فهو من أهل النار . وقد قال الله تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ فأجيبوا عن هذه الدعوى بقوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾ وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة . أما المنع فما تضمنه حرف ﴿ بل ﴾ من الإضراب ، أى ليس الأمر ، كما قالوا ، وأما المعارضة ففى قوله : ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أى نتبع ، أو اتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، وفى ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب ، مما دعوتهم إليه من اليهودية أو النصرانية ، لأن وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك ، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد ، فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية أو النصرانية ، فان الحنيفية والتوحيد دين جميع الرسل الذى لا يقبل الله من أحد سواه ؛ وهو الفطرة التى فطر الله عليها عباده ، فمن كان عليها فهو المهتدى ، لا من كان يهودياً أو نصرانياً ، فان الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال ، والتعظيم والمحبة ، والذل ، والتوحيد يتضمن إفراده لهذا الإقبال دون غيره ، فيعبد وحده ، ويحب وحده ، ويطاع وحده ،

ولا يجعل معه إلـٰـه آخر ، فمن أولى بالهداية ، صاحب هذه الملة ، أو ملة اليهودية والنصرانية ؟ ولم يبق بعد هذا للخصوم إلا أن يقولوا : فنحن على ملته أيضاً لم نخرج عنها ، وإبراهيم وبنوه كانوا هوداً أو نصارى ، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه ، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، فقال : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾ وقرر تعالى هذا الجواب فى سورة آل عمران فى قوله : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾ أو أن يقولوا : نحن وإن انتحلنا هذا الاسم ، فنحن على ملته ، فأجيبوا عن هذا بقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ﴾ فهذه للمؤمنين . ثم قال تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ أى فإن أتوا من الإيمان بمثل ماأتيتم به ، فهم على ملته [1] وهم مهتدون ، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته فى شيء . وإنما هم فى شقاق وعداوة ، لأن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وأن لا يفرق بين أحد منهم ، فيؤمن ببعضهم ، ويكفر ببعضهم ، فما لم يأت بهذا الإيمان فهم بريئون من ملة إبراهيم ، مشاقون لمن هو على

(١) فى نسخة " على ملة إبراهيم "

ملته ، ثم قال : ﴿فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم﴾ فهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، فانه أخبر بكفاية الله له شقاق اليهود والنصارى وعداوتهم ، فوقع كما أخبر ، ومكنه الله من ديارهم وأموالهم حتى صاروا أذلاء تحت أمره وأمر أتباعه ، فلله الحمد كما هو أهله .

فصـــل

قال النصرانى : ولنقيس أيضاً أفعال كل منهما . فان يشوع قد أبرأ الأكمه والأبرص ، وأنهض المقعدين ، وأحيا الموتى ، وأما محمد فهو لم يأت بالمعجزات ، بل بالسيف ، ولكن نقلت عنه المعجزات أيضاً ولكنها أى معجزات ، وإنما كانت إما مما أمكن فعله بحيلة مما تقوم به القوة البشرية ، أو مما لم يكن عليه شهود ، أو من المحال يستفظعه العقل ، مثل ماحكى عن انشقاق القمر ، وهى كلها على حالة لا يعتمد عليها ، وإذ قد أشكل الأمر فالواجب أن يفزع إلى الشريعة التى شهاداتها المدلة على أنها مرضاة لله أقوى فى باب اليقين .

الجواب . وبالله نستعين : ليس الأمر مشكلا ، بل هو بحمد الله واضح جلى ، ودلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وشواهد رسالته أظهر من كل دلالة ، وأوضح من كل معجزة ، وأكثر من كل شاهد اقترن برسالة غيره من المرسلين ، فقول النصرانى : إنه لم يأت بالمعجزات جحد عناد ، اقتضاه الكفر ، واتباع الهوى ، وإلا فقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أتى بالمعجزات والأدلة القاطعات التى لاعذر لأحد فى الإعراض بعدها .

هذا مع ماتجدونه مكتوباً عندهم من صفته فى التوراة والإنجيل ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ ثم هذا النصرانى حين أنكر الحق والرسالة بقى فى الحيرة والضلالة . وزعم أن الأمر مشكل ، فصار منتهى قصده ، ونهاية رشده . أن وقف حيراناً فى ظلمة الإشكال ، وسقط فى هوة الجهالة والضلال ، ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ وأهل الأرض كلهم فى ظلمات الجهل والغى ، إلا من أشرق عليه نور النبوة ، كما فى "مسند الإمام أحمد ـ وغيره" من حديث ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور شيئاً اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلهذا أقول جف القلم على علم الله ، ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور ، ومن لم يجبهم بقى فى الضيق والظلمة التى خلق فيها . وهى ظلمة الطبع ، وظلمة الجهل . وظلمة الهوى ، وظلمة الغفلة عن نفسه ، وكمالها وما تسعد به فى معاشها ، ومعادها ، فهذه كلها ظلمات خلق فيها العبد ، فبعث الله رسله لإخراجه منها إلى نور العلم ، والمعرفة والإيمان والهدى الذى لاسعادة للنفس ألبتة إلا به ، فمن أخطأه هذا النور أخطاه حظه وكماله وسعادته ، وصار يتقلب فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

واعلم أن الله تعالى أيد الأنبياء بالمعجزات دلالة على صدقهم فى دعوى الرسالة ، فيجب تصديقهم فى جميع ماجاءوا به ، لأن المعجزة مع

التحدى من النبى قائم مقام قول الله تعالى : صدق عبدى فأطيعوه واتبعوه ، وشاهد على صدقه فيما يقوله ، ولما كان كلامنا مع من يثبت معجزات الأنبياء ، وأنها تدل على صدقهم اكتفينا بهذه الإشارة فى هذا المقام ، وليست أدلة الرسالة منحصرة فى المعجزة ، بل لها أدلة كثيرة . يعرف بها صدق الرسول غير المعجزات ، كما سيأتى إيضاحه إن شاء الله تعالى .

واعلم أن المعجزة على قسمين : قسم هو من نوع قدرة البشر ، فعجزوا عنه ، فتعجيزهم عنه فعل الله ، دل على صدق نبيه ، كصرفهم عن تمنى الموت ، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على قول من قال بالصرفة ، وهو قول مرجوح ، كما سيأتى أن القرآن فى نفسه معجز لا يستطيعه البشر ، وقسم هو خارج عن قدرتهم ، فلم يقدروا على الإتيان بمثله ، كإحياء الموتى ، وقلب العصا حية ، وإخراج ناقة من صخرة ، وكلام شجرة ، ونبع الماء من بين الأصابع ، وانشقاق القمر ، مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله تعالى .

وكانت معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، ودلائل نبوته ، وبراهين صدقه من هـٰذين النوعين معاً ، سوى مااقترن بهما من أدلة أخر .

وبالجملة فمعجزاته وأدلة رسالته لايحيط بها ضبط ، فان القرآن ، وهو معجزة من معجزاته ، قد احتوى من الإعجاز على مالا يحصى كثرة . حتى بلغها العلماء إلى ألوف كثيرة ، قالوا : وأقصر السور ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة ، ثم فيها نفسها معجزات ، وقد فصلوا ذلك وبينوه .

فصـــــل

ومعجزة القرآن هى المعجزة العظيمة، والآية الباقية مابقيت الدنيا، ولا يشك الموافق والمخالف فى مجىء محمد صلى الله عليه وسلم به، وظهوره من قبله، وإن أنكر هذا معاند جاحد، فهو كإنكار وجود محمد صلى الله عليه وسلم فى الدنيا، وإنما جاء اعتراض الجاحدين فى إعجازه وظهور الحجة به.

ومن المعلوم بالضرورة أنه صلى الله عليه وسلم تحدى العرب بما فيه من الإعجاز، ودعاهم، إلى معارضته. وأن يأتو بسورة من مثله، فعجزوا عن معارضته، وأحجموا عن مساجلته، وهم كما قال بعض العلماء فى وصفهم: كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم مالا يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان، يأتون من ذلك على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهاً فى المقامات، وشدة الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها، فما راعهم، إلا رسول كريم، بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وهم أفصح

ما كانوا فى هذا الباب مجالا ، وأشهر فى الخطابة رجالا ، صارخاً بهم فى كل حين ، ومقرعا لهم بضعاً وعشرين عاما ، على رءوس الملإ أجمعين : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾ . ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ﴾ ﴿ قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فلم يزل صلى الله عليه وسلم يقرعهم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويذم آلهتهم وآباءهم ، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجمون عن مماثلته ، مخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والاغتراء بالافتراء ، وقولهم : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ و ﴿ سحر مستمر ﴾ و ﴿ إفك افتراه ﴾ و ﴿ أساطير الأولين ﴾ ، والمباهتة والرضى بالدنية ، كقولهم ﴿ قلوبنا غلف ﴾ و ﴿ فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ و ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ والادّعاء مع العجز بقولهم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وقد قال الله : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ فما فعلوا وما قدروا ، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة ، كشف عوراه لجميعهم ، وسلبهم الله ماألفوه من فصيح كلامهم ، وإلا فلم يخف على أهل الميز

منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، انتهى ملخصاً.

وقد جاء فى الأخبار من اعتراف عقلائهم وفصحائهم بالعجز عن معارضته عند سماعه جمل كثيرة، فى قصة عقبة بن ربيعة حين قرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ حـم، فصلت ﴾ ورجع عتبة إلى قريش قال لهم: إنى والله قد سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر ولا السحر، ولا الكهانة يامعشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ، أجابنى بشيء، والله ماهو بسحر ولا شعر ولا كهانة، إنه قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حـم تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ حتى بلغ: ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب، رواه البيهقى، وغيره فى خبر طويل، وفى حديث إسلام أبى ذر، ووصف أخاه أنيساً، فقال: والله ماسمعت بأشعر من أخى أنيس، لقد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبى ذر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال: قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر، فلم يلتئم، ولا يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، وأنه لصادق، وأنهم لكاذبون، رواه مسلم، والبيهقى؛ وعن عكرمة فى قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش فى الفصاحة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ علىّ فقرأ عليه: ﴿ إن الله يأمر بالعدل

والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ قال : أعد ، فأعاد صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، ومايقول هذا بشر ، ثم قال لقومه : والله مافيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ، وما يعلى ؛ وفى خبره الآخر حين جمع قريشاً عند حضور الموسم ، وقال : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً ، فقالوا : نقول : كاهن . فقال : والله ماهو بكاهن ، ماهو بزمزمته ، ولا سجعه ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : والله ماهو بمجنون ، ولا بخنقه ، ولا بوسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ماهو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهجزه ، وقريضه ، ومبسوطه ، ومقبوضه ماهو بشاعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ماهو بساحر ، ولا نفثه ، ولاعقده ، قالوا : فما نقول ، قال : ما أنتم قائلون من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل ، إلى آخر القصة ، رواه ابن إسحاق ، والبيهقى ، وما أحسن ماقيل : إن هذا القرآن لو وجد مكتوباً فى مصحف فى فلاة من الأرض ، ولم يعلم من وضعه هناك ، لشهدت العقول السليمة ، أنه منزل من عند الله ، وأن البشر لاقدرة لهم على تأليف ذلك ، فكيف إذا جاء على يد أصدق الخلق ، وأبرّهم ، وأتقاهم ، وقال : إنه كلام الله ، وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، فكيف يبقى مع هذا شك .

واعلم أن وجوه الإعجاز فى القرآن كثيرة ، وبينها بعض العلماء بما حاصله أنه ينحصر مقصود إعجازه فى أمور أربعة ، وعدها بعضهم أكثر من ذلك ، ويرجع إلى ماقلناه .

الأول : مافيه من الإيجاز والبلاغة ، وحسن التركيب ، بحيث وصل فى كل منها إلى الرتبة العليا لفظاً ومعنى ، ولهذا اعترف عقلاؤهم وفصحاؤهم أنه لايقوله بشر ، وذكر أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلا يقرأ ﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ﴾ فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته . وسمع آخر رجلا يقرأ ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ﴾ فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على [1] هذا الكلام ، والأخبار عنهم بمثل هذا كثيرة ، ولما سمع نصرانى قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ، ويخشى الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون ﴾ قال : جمعت هذه الآية ما أنزل على عيسى من أمر الدنيا والآخرة ، ولقد رام بعض سخفاء العقول محاكاة بعض قصار المفصل ، فأتى من الهذيان بالعجب العجاب ، كقول مسيلمة الكذاب اللعين : ياضفدع كم تنقين ، أعلاك فى الماء ، وأسفلك فى الطين . لا الماء تكدرين ، ولا الشراب تمنعين : فلما سمع أبو بكر الصديق هذا الكلام ، قال : إنه كلام لم يخرج من إلٍّ ، قيل : "الإلُّ" ـ بالكسر ـ هو الله تعالى ، وقيل : "الإلّ" بالأصل الجيد ، أى لم يجىء من الأصل الذى جاء منه القرآن ، ولما سمع مسيلمة ﴿ والنازعات ﴾ قال : والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ،

---

(١) فى نسخة ,, مثل ،،

والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقما ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، وقال : معارضاً - لسورة الكوثر - إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، إن مبغضك رجل كافر ، كقول الآخر ، ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين شراسيف وحشا ، وقال آخر : الفيل ، وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وثيل ، وشفر طويل ، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل ، وهذا كلام فيه من السخافة مالا خفاء به على من لا يعلم فضلا عمن يعلم .

ثم جاء جماعة من المتأخرين ممن انتهت إليهم الرياسة فى الفصاحة ، فتعرضوا لمعارضته ، كابن المقنع ، والمعرى ، والمتبنى ، ونظراء لهم ، فلم يأتوا إلا بما تمجه الاسماع ، وتنبوا عنه الطباع ، ونادى عليهم بالخزى والانقطاع ، وصيرهم مثلة وسخرية ، وضحكة ، إلى أن تاب أكثرهم ، وأظهر ندمه ونسكه .

الثانى : أنه مع كونه من جنس كلام العرب قد جاء فى نظمه وأسلوبه مخالفاً لسائر فنونه من النظم والنثر ، والخطب والشعر ، والرجز والسجع ، لحير عقولهم ، حتى لم يهتدوا إلى مثل شيء منه ، إذ لا مثال له يحتذى عليه ، ولا إمام يرجع عند الاشتباه إليه ؛ وقد حكى عن غير واحد ممن تصدى لمعارضته أنه اعترته روعة وهيبة ، كفته عن ذلك ، كما حكى عن يحي بن حكم الغزال ، وكان بليغ الأندلس فى زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا ،

فنظر فى سورة الإخلاص ليحذوا على مثالها ، وينسج بزعمه على منوالها ، فاعترته منه خشية حملته على التوبة والإنابة ، وحكى أيضاً أن ابن المقنع ، وكان أفصح أهل زمانه ، طلب ذلك ورامه ، ونظم كلاماً ، وجعله مفصلا . وسماه سوراً ، فاجتاز يوماً بصبى يقرأ فى مكتب ﴿ وقيل : ياأرض ابلعى ماءك . وياسماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين﴾ فرجع ومحى ماعمل ، وقال أشهد أن هذا لايعارض أبداً ، وما هو من كلام البشر .

الثالث : تأثيره فى النفوس والقلوب ، بحيث تجد من اللذة والحلاوة عند سماعه ما لاتجد عند سماع غيره ، ولذلك كان قارئه لايمله ، وسامعه لايمجه ، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة وطلاوة .

قال القاضى عياض : وأما غيره من الكلام ، ولو بلغ من الحسن والبلاغة مابلغ ، يمل مع الترديد . ويعادى إذا عيد ، وكتابنا يستلذ به فى الخلوات ، ويؤنس بتلاوته فى الأزمات . وسواه من الكتب لايوجد فيها ذلك حتى أحدث لها أصحابها لحونا وطرقا ، يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها ، ولهذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه لايخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عبره ، ولا تفنى عجائبه ، هو الفصل ليس بالهزل ، لاتشبع منه العلماء . ولا تزيغ به الأهواء .

الرابع : مافيه من الإحاطة بعلوم الأولين والآخرين . والإخبار بالغيوب الماضية والآتية ، وجمعه لعلوم كثيرة لم تتعاطى العرب الكلام

فيها . ففيه من الإخبار بالغيوب الآتية شيء كثير ، فوقع على ما أخبر ، كقوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ وقوله : ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ وقوله : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ والآيات فى هذا كثيرة ، وفيه أيضاً من أخبار الأمم السالفة ، والقرون الخالية مما لم يكن يعلم القصة الواحدة منه إلا الفرد من أحبار أهل الكتاب ، فيأتى به على وجهه ، ويعترف العالم بذلك بصحته وصدقه ، كقصص الأنبياء . مع قومهم ، وخبر موسى والخضر ، ويوسف وإخوته ، وأصحاب الكهف ، وذى القرنين ، ولقمان ، وأشباه ذلك من الأنبياء ، قال القاضى عياض : ولم يحك عن واحد من اليهود والنصارى على شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه ، وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم ، وكثرة سؤالهم له عليه الصلاة والسلام ، وتعنتهم إياه عن أخبار أنبيائهم ، وأسرارعلومهم وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ، مثل سؤالهم عن الروح ، وذى القرنين ، وأصحاب الكهف ، وعيسى ، وحكم الرجم ، وما حرم إسرائيل على نفسه ، وغير ذلك من أمورهم التى نزل فيها القرآن ، فأجابهم بما أوحى إليه من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه ، بل أكثرهم صرح بصدق نبوته ، وصدق مقالته ، واعترف بعناده ، وحسدهم إياه ، كأهل نجران ، وابن صوريا ، وابنى أخطب وغيرهم ، انتهى .

ولا يرد على هذا ماقدمناه من خبر عيسى ، وما فى القرآن من مخالفة ماعند النصارى ، وفى أنه ماقتل وما صلب ، لأن الذى عندهم من خبر قتله وصلبه لا يدعون أنه من أخبار الأنبياء ، وإنما يعزونه إلى تلاميذ عيسى ،

وأنهم نقلوا ذلك عمن شاهده ، وهم ليسوا بأنبياء . ولا معصومين عن الخطأ ، هذا لو صح أن هذه الكتب محفوظة عنهم ، وأنى يعلم ذلك ! بل فيها من الكتاب والتغيير ما أقمنا برهانه فيما تقدم ، ولله الحمد .

وأما مافى القرآن من العلوم والمعارف ، سوى ماتقدم مما لم تعهده العرب عامة ، ولا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، قبل نبوته ، فشيء هو مبلغ النهاية ، كما قال الله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شيء ﴾ وقال : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ومن تأمل ماتكلم به الأولون والآخرون فى أصول الدين ، والعلوم الإلـهية ، وأمور المعاد والنبوات ، والأخلاق والسياسات ، والعبادات ، وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ، ونجاتها ، لم يجد عن الأولين والآخرين من أهل النبوات ، ومن أهل الرأى ، كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ماجاء به القرآن ، ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها ، وكتابها إلى نبى آخر . وكتاب آخر ، فضلا عن أن تحتاج إلى المحدثين الملهمين ، أو إلى أرباب النظر ، والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فان يكن فى أمتى أحد فعمر » ، فعلق ذلك تعليقاً فى أمته ، مع جزمه به فيمن تقدم ، لأن الأمم قبلنا كانوا محتاجين إلى المحدث ، كما كانوا محتاجين إلى نبى بعد نبى ، وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأغناهم الله برسولهم ، وكتابهم

عن كل ماسواه ، حتى أن المحدث منهم كعمر إنما يؤخذ عنه ماوافق الكتاب والسنة ، وإذا حدث شيء فى قلبه لم يكن له أن يقبله حتى يعرضه على الكتاب والسنة ، فلا يقبله إلا إذا وافقهما .

وهذا باب واسع فى فضائل القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم على ماسواه .

هذا ، وهو صلى الله عليه وسلم رجل أمى لايخط كتاباً ولا يقرؤه ، ولد فى قوم أميين ، ونشأ بين أظهرهم ، فى بلد ليس به عالم يعرف أخبار الماضين ، ولا خرج فى سفر ضارباً إلى عالِم ، فيعكف عنده ، فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل وعلم الأولين والآخرين ، والسابقين واللاحقين .

وهذا أدل دليل على أنه أمر جاءه من عند الله ، ولهذا احتج عليهم بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ﴾ ؛ وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها ، أى هذا الكلام ليس من قبلى ، ولا من عندى ، ولا أقدر أن أفتريه على الله ، ولو كان ذلك مقدوراً لى لكان مقدوراً لمن هو من أهل العلم والكتابة ، ومخالطة العلماء ، والتعلم منهم ، ولكن الله بعثنى به ، ولو شاء سبحانه لم ينزله على ، ولم ييسره بلسانى ولا لسان غيرى ، ولكنه أوحاه إلى ، وأذن لى فى تلاوته عليكم ، ولا أدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به ، فلو كان كذباً وافتراءً ، كما تقولون لأمكن غيرى أن يتلوه عليكم ، وتدرون به من جهته ، لأن الكذب لايعجز عنه البشر ،

وأنتم لم تدروا بهذا ، ولم تسمعوه إلا منى ، ولم تسمعوه من بشر غيرى ، ثم أجاب عن سؤال مقدر ، وهو أنه تعلمه من غيره ، وافتراه من تلقاء نفسه ، فقال : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ أى تعلمون حالى ، ولا يخفى عليكم سيرتى ومدخلى ومخرجى وصدقى وأمانتى ، وتعلمون أنى ماطالعت كتاباً ، ولا تتلمذت لأستاذ ، ولا تعلمت من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة من عمرى جئتكم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة فى الأصول والأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وقد عجز عن معارضته الفصحاء والبلغاء والعلماء ، فكل ذى عقل سليم يعرف أن هذا لايحصل إلا بالوحى من الله تعالى ، ولما كان علم ذلك ضرورياً ، وكان إنكار المعلوم بالضرورة يقدح فى صحة العقل ، وقال تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه ، وظهور دلالته ، قال القاضى أبو الفضل : كون القرآن من قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه أتى به معلوم ضرورة ، وكونه متحدياً به معلوم ضرورة ، وعجز العرب عن الإتيان بمثله معلوم ضرورة ، وكونه فى فصاحته خارقاً للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ، ووجوه البلاغة ، وسبيل من ليس من أهلها ، علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته ، واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته ، انتهى .

فعجز العرب عن معارضته حجة قاطعة ، ومحجة ساطعة ، ومحال أن يلبثوا ثلاثا وعشرين سنة على السكوت عن معارضة آية منه تستلزم تلك المعارضة نقض أمره ، وتفريق أتباعه ، وزوال شوكته ، وحيازة مرتبته ،

مع قدرتهم عليها، وطلبها منهم، وقتل أكابرهم، وسبي ذراريهم، وهو لايزداد إلا تقريعاً لهم بعجزهم عن المعارضة، ويقول لهم: إن زعمتم أنى افتريته لعلمى بأخبار الأمم فأتوا بمفترى مثله، فلم يرم ذلك خطيب، ولا طمع فيه شاعر، ولا تكلفه مصقع، وإلا لظهر، ووجد من يستجيده، ويحامى عليه، ويزعم بمجرد الدعوى أنه عارض وناقض، فلما لم يوجد ذلك مع أن كثيراً منهم هجاه، وعارض شعراء أصحابه، وخطباء أمته، قطع بعجزهم وتحيرهم وانقطاعهم، قال أبو سليمان الخطابى: وقد كان صلى الله عليه وسلم أعقل خلق الله، وقد قطع القول بأن ماأتى به من عند ربه، وأنهم لايأتون بمثل أقصر سورة منه، فلولا أنه على بينة واضحة من ربه علام الغيوب، وأنه لايقع فيما أخبر به خلف، وإلا لم يأذن له عقله أن يقطع القول فى شيء بأنه لايكون، وهو يمكن أن يكون، انتهى.

قال بعض العلماء: إن الذى أورده صلى الله عليه وسلم على العرب من الكلام الذى أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب فى الآية وأوضح فى الدلالة من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة، وأرباب البيان، والتقدم فى اللسن، بكلام مفهم المعنى عندهم، فكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه، ولا فى إبراء الأكمه والأبرص، ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدل أن العجز عنه إنما كان ليكون علماً على رسالته، وصحة نبوته.

واعلم أن جمهور العلماء وأهل السنة، على أن القرآن معجز بذاته

لا يصح أن يكون مقدوراً للبشر ، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن اقتدار الخلق عليها ، كإحياء الموتى ، وقلب العصا ، وتسبيح الحصى ، ومن قال : إنه مما تمكن مماثلته ، وأنه لا يمتنع أن تأتى به القوة البشرية ، فهو يقول : إن الله تعالى صرف الناس عن معارضته ، فالإعجاز فى هذا ظاهر أيضاً ، لأن الله تعالى لما دعا أهل الخطابة والفصاحة الذين يهيمون فى كل واد من المعانى بسلاطة لسانهم إلى معارضة القرآن ، فعجزوا عن الإتيان بمثله لم يخف على أولى الألباب أن صارفا إلـٰهياً صرفهم عن ذلك ، وعلى الطرفين فعجز العرب عنه ثابت ، فالإعجاز به حاصل ، ولكن الصحيح هو الأول ، ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ .

فصـــل

ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية ما بقيت الدنيا ، محفوظاً من التغيير والتبديل ، الواقعين فى الكتب قبله ، كما قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها ، ولم يبق إلا خبرها ، والقرآن العزيز ، الباهرة آياته ، الظاهرة معجزاته ، الذى هو أعظم من كل معجزة ، وأبهر من كل آية ، باق على ما كان ، غض طرى ، لم يتغير منه شيء ، بل كأنه منزل الآن ، وجميع وجوه إعجازه التى ذكرناها ثابتة إلى يوم القيامة ، بينة الحجة لكل أمة تأتى ، لا يخفى وجه ذلك على من نظر إليه ، وتأمل وجوه إعجازه ، وما أخبر به من الغيوب يقع كل

وقت على الوجه الذى أخبر به ، حتى كأنه يشاهد عياناً ، فيتجدد الإيمان ، ويتظاهر البرهان ، وليس الخبر كالعيان ، والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين ، منها إلى علم اليقين ، وإن كان كل عندها حقاً ، وإلى هذا المعنى ، كما قال القاضى عياض ، أشار النبي صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه فى " الصحيحين " من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن الأنبياء نبي إلا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » ، وهذا لفظ مسلم ، ومما يلحق بإعجازه إخباره بتعجيز قوم فى قضايا ، وإعلامهم أنهم لايفعلونها ، فما فعلوا ، ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ، والله عليم بالظالمين ﴾ والإعجاز فى هذا من وجهين : من جهة إخباره بأنه لايكون أبداً ، فلم يكن ، وهذا أدخل فى باب الإخبار بالغيب ، ومن جهة صرف دواعيهم ، وهذا من أعجب الخوارق ، أنهم مع حرصهم على تكذيبه لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بالتمنى ، بل صرفهم الله عن تمنيه ليظهر صدق رسوله ، وصحة ماأوحى إليه ، قال أبو محمد الأصيلى : من أعجب أمرهم أنه لاتوجد منهم جماعة ، ولا واحد من يوم أمر الله بذلك نبيه عليه السلام ، يقدم عليه ، ولا يجيب إليه ، وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه منهم ، وكذلك آية المباهلة التي نزلت فى قصة وفد نجران ، حيث نكلوا عن المباهلة ،

ورجعوا إلى الصلح . وبذلوا الجزية . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فان لم تفعلوا . ولن تفعلوا ﴾ فما فعلوا . ولا قدروا ، ولا يفعلون أبداً .

واعلم أن آية التمني على ماقرره الحافظ ابن كثير هي من باب المباهلة على معنى أنها تضمنت الدعاء بالموت على أي الفريقين أكذب : من اليهود ، ومن المسلمين ، فقال : قال ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة ، أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس : يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ، والله عليم بالظالمين ﴾ أي لعلمهم بما عندهم من العلم بك ، والكفر بذلك . ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ، مابقي على وجه الأرض يهودي إلا مات .

قال ابن كثير : وهذا في الآية هو المتعين . وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب . ونقله ابن جرير عن قتادة ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى ، والمعنى إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس ، وأنكم أهل الجنة ، ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك ، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة لتستاهل[1] الكاذب لامحالة ، فلما تيقنوا ذلك ، وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة ، لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فعلم كل أحد باطلهم ،

---

(١) في نسخة " لتستأصل "

وخزيهم ، وضلالهم ، وعنادهم ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ، وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يتمنى لو أهلك الله المبطل المناظر له . ولا سيما إذا كان فى ذلك حجة له فى بيان حقه ، وظهوره . انتهى .

واعلم أن النصرانى فيما تقدم من كلامه قسم معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم إلى ثلاثة أقسام : قسم زعم أنه مما أمكن فعله بحيلة مما تقوم به القوة البشرية ، وأراد أن القرآن من ذلك ، وقسم زعم أنه من المحال . كانشقاق القمر ، وقسم : زعم أنه ليس عليه شهود ، وقد عرفت بما قدمناه الجواب عن القسم الأول ، وأن البراهين القوية . والأدلة الصحيحة العقلية شاهدة أن القرآن غير مقدور للبشر ، وأنه مما لا يمكن الإتيان به إلا بالوحى من الله عز وجل ، وعلى التنزل ، إلى أنه مما يمكن البشر الإتيان به ، فقد ثبت عجزهم عنه ، وظهر انقطاعهم ، ويكون ذلك على هذا القول بصرف الله إياهم عن معارضته . كما صرف اليهود عن تمنى الموت تصديقاً لنبيه صلى الله عليه وسلم فى إخباره أنهم لن يتمنوه أبداً ، وكما صرف النصارى عن المباهلة ، فقامت الحجة ، وانقطعت المعذرة ، وجاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

فصل

وأما معجزة انشقاق القمر . فهى كما قال الخطابى آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء ، وذلك أنه ظهر فى ملكوت السموات خارجا عن جملة طباع مافى هذا العالم المركب من الطبائع ، فليس مما يطمع فى الوصول إليه بحيلة ؛ فلذلك صار البرهان به أظهر ، انتهى .

وهذه المعجزة دل عليها القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ والمراد وقوع انشقاقه ، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ﴾ فإن ذلك ظاهر فى أن المراد بقوله : ﴿ انشق ﴾ وقوع انشقاقه ، لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة ، فدل على أن المراد بالآية وقوع انشقاقه فى الدنيا ، كما دل عليه صريح الأحاديث الآتية ، وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فان كفار قريش لما كذبوه ، ولم يصدقوه أعطاه الله تعالى هذه الآية العظيمة المتضمنة لثلاث حكم : الأولى : دلالتها على وحدانية الله تعالى ، وأنه المتفرد بالربوبية والإلـٰهية ، وأن هذه الآلهة التى يعبدونها من دونه باطلة لا تنفع ولا تضر ، وأن العبادة إنما تكون لله وحده ، وهذا على طريق القرآن من الاستدلال بتفرده تعالى بالخلق والتدبير ، على أنه هو المعبود وحده ؛ الثانية : دلالتها على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصحة رسالته ، حيث أراهم هذه الآية جواباً لاقتراحهم ؛ الثالثة : أنها دلت على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات يوم القيامة ، قال بعض الأئمة : وجعل الآية فيه دون الشمس والنجوم ، لأنه أقرب إلى الأرض ، وكان فيه دون سائر أجزاء الفلك ، إذ هو الجسم المستدير الذى يظهر فيه الانشقاق ، فقبول محله أولى ، وقد جاءت أحاديث الانشقاق فى روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، منهم أنس بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وحذيفة بن اليمان ، وجبير بن مطعم ،

وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، فني " الصحيحين " من حديث أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية . فأراهم انشقاق القمر شقتين ، حتى رأوا حراء بينهما ، وفى " الصحيحين " أيضاً من حديث ابن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اشهدوا » .

وروى الإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن سحرنا ، فانه لا يستطيع أن يسحر الناس ؛ وعند أبي داود الطيالسى عن ابن مسعود فى حديثه ، قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فان محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، قال : فجاء السفار فأخبروهم بذلك .

وبالجملة فالروايات بهذه الواقعة متعددة ، وطرقها متعددة ، وعلى وقوعها أجمع علماء الأمة وحفاظها ، وتلقاه الخلف عن السلف .

قال ابن عبد البر : قد روى هذا الحديث ـ يعنى حديث الانشقاق ـ عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ، وتأيد بالآية الكريمة ، وقال غيره : إن لهذ الحديث طرقا شتى ، بحيث لا يمترى فى تواتره .

وأما قول النصرانى : إنه من المحال يستفظعه العقل ، فجوابه أن العقل الصحيح المؤيد بنور الإيمان بالله ورسله ، وأن الله على كل شيء

قدير ، لايحيل ذلك ، ولا يستبعده . فان الله تعالى هو الذى خلق القمر ، وجميع المخلوقات ، وهى فى قبضته ، وتحت تصرفه ، أوجدها من العدم ، وسيعيدها إليه ، فلا يستبعد أن يخرق العادة فيها معجزة لرسوله ، ودلالة على صدقه ، كما جعل العصا حية ، وأخرج الناقة من صخرة .

واعلم أن شبهة القائلين باستحالة الانشقاق دعواهم أن الأجرام العلوية لا يتهيأ فيها الانخراق والالتئام ، وكذاقالوه فى إنكارهم فتح أبواب السماء لنبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، وما ذكرناه من عموم قدرة الله تعالى على جميع الممكنات دليل على عدم الإحالة ، وبمثل هذا أجاب العلماء ، كقول أبى إسحاق الزجاج ، وهو من متقدمى العلماء ، أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفى الملة انشقاق القمر ، ولا إنكار للعقل فيه ، لأن القمر مخلوق لله ، يفعل فيه مايشاء ، كما يكون يوم القيامة ، ويفنيه ، انتهى .

ويكفى فى الحجة على النصارى فى ذلك رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، فانهم يعترفون أنه رفع بجسمه ، فقد حصل برفعه الانخراق والالتئام الذى أنكروه ، فبطل قولهم فى إحالة الانشقاق ، وبقى ثبوته من جهة النقل ، وقد قدمنا أنه بلغ مبلغ التواتر الذى لا يشك فيه ، وإن أنكره أهل الكفر والعناد ، وأما قول بعض الملاحدة : لو وقع هذا ، النقل متواتر ، أو اشترك أهل الأرض كلهم فى معرفته ، ولم يختص بها أهل مكة ، لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة ، فالناس فيه شركاء ، والدواعى متوفرة على رواية كل غريب ، ونقل مالم يعهد ، ولو كان لذلك أصل لخلد فى كتب السير والتنجيم ، إذ لايجوز إطباقهم على تركه ، وإغفاله مع جلالة

شأنه ، ووضوح أمره ، فأجاب عنه الخطابي وغيره بأن هذه القصة خرجت عن الأمور التي ذكروها ، لأنه شيء طلبه خاص من الناس ، فوقع ليلا ، لأن القمر لاسلطان له بالنهار ، ومن شأن الليل أن يكون الناس فيه نياماً ، ومستكنين في الأبنية ، والبارز منهم بالصحراء إن كان يقظان يحتمل أنه اتفق أنه كان في ذلك الوقت مشغولا بما يلهيه من سمر وغيره ، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراكز القمر ناظرين إليه لايغفلون عنه ، فيجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس ، وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه ، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر ، وقد يكون القمر حينئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض ، كما يكون ظاهراً لقوم ، غائباً عن قوم ، كما يجد الكسوف أهل بلد دون أهل بلد آخر ، وكثيراً مايحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ، ولاعلم عند أحد منها .

فصـــل

وأما ماعدا ماتقدم من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، ودلائل نبوته فكثير جداً ، وبسطها يحتمل مجلدات ، ولكنا نذكر من عيونها ومشهورها ماهو اللائق بما قصدناه من الاختصار ، فمن ذلك ما أخبر به من المغيبات المستقبلة ، في القرآن من ذلك شيء كثير ، كقوله : ﴿ ألـم ، غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم

فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ وقوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ الآية ، وقال : ﴿ فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ﴾ الآية ، وقال للمسيح : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وقال : ﴿ سيهزم الجمع ، ويولون الدبر ﴾ وقال : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ وقال : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ وقال فى اليهود : ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ الآية ، وقال : ﴿ لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ الآية ، وقال : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً ﴾ الآية : وتقدمت القصة ، وقال فى الوليد بن المغيرة : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ﴾ إلى قوله : ﴿ سأصليه سقر ﴾ وقال عن أبى لهب : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ﴾

فماتا كافرين ، وقال تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ وقال : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ وقال : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ وهذا كله وقع ، وحصلت الغنائم الكثيرة ، ودخلوا المسجد آمنين ، ودعيت الأعراب إلى قتال الروم وفارس . وقال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك ، واستغفره إنه كان تواباً ﴾ وكان ذلك إخباراً من الله لرسوله باقتراب أجله حينئذ ، وكذلك وقع ، فما مات صلى الله عليه وسلم حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ولم يبق فى بلاد العرب موضع لم يدخله الإسلام ، وقال عن المنافقين فى أمرهم مع اليهود فيما وعدوهم به من أنفسهم : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ الآية : وكذلك كان ، وضرب الله لهم المثل بالشيطان ﴿ إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك ﴾ وقصتهم مشهورة فى التفاسير والسير ، وفى الأحاديث الصحيحة مما أخبر بوقوعه ، فكان مالا يحصى كثرة ، كما فى " صحيح البخارى " عن عدى بن حاتم رضى الله عنه ، قال : بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر ، فشكى إليه قطع السبيل ، فقال : ياعدى ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبئت عنها ، فقال : إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة ، حتى تطوف بالكعبة ، لاتخاف أحداً إلا الله ، قلت فى نفسى : فأين دعار طىء الذين سعروا البلاد ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ،

قلت : كسرى ابن هرمز ؟ قال : كسرى ابن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه ذهباً أو فضة ، يطلب من يقبله منه ، فلا يجد أحداً يقبله منه ، قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لاتخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ابن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة ، فلا يجد من يقبله منه ، وفي "صحيح مسلم" عن أبي ذر رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها ، فان لهم ذمة ورحماً .

وأخرج مسلم ، وأبوداود ، والترمذي عن ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن أمتي سيبلغ ملكها مازوى لي منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وأني سألت ربي أن لايهلك أمتي بسنة عامة ، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وأن ربي قال : يامحمد إذا قضيت قضاءاً فانه لايرد . وأني أعطيتك لأمتك أني لاأهلكهم بسنة عامة . ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً . وهذا أخبر به صلى الله عليه وسلم ، في أول الأمر ، وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكة . فكان كما أخبر ، فان ملكهم انتشر في المشرق والمغرب مابين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة ، وفي المغرب

حيث لاعمارة وراءه ، وذلك مالم تملكه أمة من الأمم . ولم ينتشر فى الجنوب والشمال كانتشاره فى المشرق والمغرب . قال بعض العلماء : لما كانت أمته أعدل الأمم انتشرت دعوته فى الأقاليم التى هى وسط المعمور من الأرض ، وفى حديث جابر بن سمرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لينفقن كنوزهما فى سبيل الله » أخرجاه فى " الصحيحين " وملك كسرى ، وقيصر أعز ملك فى الأرض . فلم يبق للفرس ملك ، وهلك قيصر الذى بالشام وغيرها ، فلم يبق من وقت الفتوح العُمرية من هو ملك على الشام ولامصر ولا الجزيرة من النصارى ، وهو الذى يدعى قيصر ، وقال فى قيصر : « ثبت الله ملكه » ، فثبت ببلاد الروم ، وفى كسرى : « مزق الله ملكه » فلم يبق له ملك ، وهذا كله يصدق بعضه بعضاً وفى " الصحيحين " عنه صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين » الحديث ، وهذا أخبر به حين كانت أمته أقل الأمم ، ثم انتشرت فى المشارق والمغارب ، وكان كما أخبر ، فانه ولله الحمد لم تزل فينا طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف ، فلم يصب هذه الأمة ماأصاب من قبلها من بنى إسرائيل وغيرها حيث كانوا مقهورين مع الأعداء ، بل إن غلبت فى قطر كان فى قطر آخر طائفة ظاهرة لم يسلط على مجموعها عدو من غيرهم ، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن ، وفى " الصحيحين " عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء لها أعناق الإبل ببصرى » ، فظهرت نار عظيمة على نحو

مرحلة من المدينة سنة أربع وخمسين وستمائة ، ودامت نحو أربعة وأربعين يوما ، وكانت تحرق الحجر ، ولا تنضج اللحم ، ورويت منها أعناق الإبل ببصرى ، وقد أطال المؤرخون فى أخبارها بما لايتسع له هذا الموضع ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بموت النجاشي يوم موته بالحبشة ، وصلى عليه بأصحابه ، وأنه ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان صعدوا أُحداً ، فتحرك الجبل فضربه برجله ، وقال له : « أثبت أُحد ، فانما عليك نبي وصديق وشهيد » فاستشهدوا ، وأنه قال لسراقة بن جعشم : « كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟ » فألبسهما عمر له لما زال ملك كسرى فى زمنه ، وأخبر بأن ابنته فاطمة رضى الله عنها أول أهله لحوقا به ، فكان كذلك ، وأخبر بأن أشقى الأولين عاقر الناقة ، والآخرين قاتل على ، يضربه فى يافوخه ، فتبتل من دمها لحيته ، فضربه الشقي بن ملجم ضربة كذلك ، فمات منها رضى الله عنه ، وبأن عثمان يقتل ظلماً ، وبأن المدينة ستغزى ، فكانت وقعة الحرة المشهورة على أهل المدينة من جيش يزيد ابن معاوية ، وأخبر بوقعة الجمل ، وصفين ، وقتال عائشة ، والزبير لعلى رضى الله عنهم ، ولذلك قال على للزبير لما برز له يومئذ : أنشدك الله ، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنك تقاتله ، وأنت له ظالم » فانصرف الزبير ، وقال : بلى ، ولكنى نسيت ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الحسن رضى الله عنه : « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فكان كذلك يوم التقى مع معاوية ؛ وأخبر بقتل الحسين رضى الله عنه ، وأخبر ابن عمر أنه

سيعمى ، لما رأى جبرائيل معه فى صورة رجل ؛ وأخبر بالخوارج الذين خرجوا على علىّ ، وأن فيهم رجلا إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة ، فقاتلهم على رضى الله عنه ، وأخرج ذلك الرجل من بين القتلى حتى رآه الناس بالوصف الذى وصفه صلى الله عليه وسلم ؛ وأخبر بالرافضة ، وبالقدرية ، وبأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، وبأنها كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، وهم الذين على ماكان عليه هو وأصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أنه ستكون لهم أنماط ، ويغدوا أحدهم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه صحفة ، وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ، ثم قال آخر الحديث : « وأنتم اليوم خير منكم يومئذ » ، وقال : « يكون فى ثقيف كذاب ، ومبير » فرأوهما ، المختار بن أبى عبيد الذى ادعى أنه يوحى إليه ؛ والحجاج بن يوسف ؛ وأنذر بالردة التى وقعت بعد موته ؛ وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا ، فكانت كذلك بمدة الحسن بن على ؛ وقال : إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة ، ثم يكون ملكا عضوضاً ، ثم تكون عتواً ، وجبروتاً ، وفساداً فى الأمة ؛ وأخبر بشأن أويس القرنى ، وأنه يأتى فى أمداد أهل اليمن ، وأن له أمّاً هو بار بها ؛ وأخبر عمر بصفته ، وقال له : إن استطعت أن يغفر لك فافعل ؛ وأخبر بأنه مجاب الدعوة ؛ وأخبر بأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ؛ وبأنه سيكون فى أمته ثلاثون كذاباً يدعون النبوة ؛ وعنه صلى الله عليه وسلم « لو كان الدين بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس ؛ وأنه أخبر بالموتان الذى يكون بعد فتح بيت المقدس ، وما وعد من سكنى البصرى ؛

وأن أمته يغزون فى البحر كالملوك على الأسرة ؛ وقال لسعد : « لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ، ويضر بك آخرون » ؛ وأخبر أبا ذر بتطريده كما كان ، وبموته وحده ، وأنه يشهد جنازته طائفة من المسلمين ؛ وقال لعمر فى سهيل بن عمرو : « عسى أن يقوم مقاما يسرك ياعمر » فكان كذلك ، قام بمكة مقام أبى بكر يوم بلغه موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب بنحو خطبته ، وثبتهم ، وقوى بصائرهم ؛ وأخبر صلى الله عليه وسلم بأشياء كثيرة وقعت فى زمانه ، كقوله فى الرجل الذى أبلى مع المسلمين فى الجهاد : « إنه من أهل النار » فقتل نفسه ؛ وقال فى حنظلة الغسيل : « سلوا زوجته عنه ، فإنى رأيت الملائكة تغسله » فسلوها ، فقالت : إنه خرج جنباً ، وأعجله الحال عن الغسل ؛ وأخبر بالذى غل خرزاً من خرز اليهود فوجدت فى رحله ؛ وبالذى غلّ الشملة ؛ وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة ؛ وبقضية عمير مع صفوان حين ساره ، وشارطه على قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء عمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم قاصداً لقتله ، وأطلعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على السر أسلم ؛ وأخبر بالمال الذى تركه العباس عند أم الفضل بعد أن كتمه ، فقال : ماعلمه غيرى وغيرها ، فأسلم ؛ وأخبر بأنه سيقتل أبى بن خلف فقتله ؛ وفى عتبة بن أبى لهب أنه يأكله كلب الله ؛ وعن مصارع أهل بدر ، فكان كما قال ؛ وأخبر بقتل أهل موتة يوم قتلوا ، وبينهم مسيرة شهر ، فأكثر ؛ وقال لخالد لما وجهه لأكيدر : إنك تجده يصيد البقر ؛ وأخبر بكثير من أسرار المنافقين وكفرهم ، وقولهم فيه ، وفى المؤمنين ، حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه :

أسكت ، فوالله لولم يكن عنده من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء .

وأعلم بصفة السحر الذى سحره لبيد بن الأعصم ، وكونه فى مشط ومشاطة فى جف طلع نخلة ذكر ، وأنه ألقى فى بئر ذروان ، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم ، ووصف لكفار قريش بيت المقدس حين كذبوه فى خبر الإسراء ونعته لهم نعت من عرفه ، وأعلمهم بعيرهم التى مرّ عليها فى طريقه ، وأخبرهم بوقت وصولها ، فكان ذلك كله كما قال: وأما ماأخبر به صلى الله عليه وسلم مما لم يقع إلى الآن ، فكثير جداً ، وبحسب هذا النوع من معجزاته صلى الله عليه وسلم أن يكون المروى فيه ديواناً مفرداً يشتمل على عدة أجزاء ، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التى ذكرناها كفاية ، وأكثرها فى " الصحيحين ـ والسنن ـ والمسانيد المشهورة " وقد روى البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، عن حذيفة رضى الله عنه ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ، فما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة ، إلا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وأنه ليكون منه الشيء قد نسيته ، فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم رآه .

وأخرج مسلم عن أبى يزيد عمرو بن أخطب الأنصارى رضى الله عنه ، قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الفجر ، وصعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهر . فنزل وصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعلمنا أحفظنا .

ومن آياته كلام الشجر له ، وسلامها عليه ، وطواعيتها له ، وشهادتها له بالرسالة : أخرج الزبير ، وأبو نعيم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أوحى الله إلىّ جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله » ، وعن على رضي الله عنه ، قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ، ولا شجر إلا وهو يقول : السلام عليك يارسول الله ، رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب ؛ وأخرج الحاكم فى "مستدركه" بإسناد جيد عن ابن عمر ، قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأقبل أعرابى ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين تريد ؟ قال : أهلى ؟ قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وماهو ؟ قال : تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال : هل من شاهد على ما تقول ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الشجرة ، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى على شاطىء الوادى ، فأقبلت تخدّ الأرض خداً ، فقامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت ، ثم رجعت إلى منبتها » الحديث ، رواه الدارمى أيضاً بنحوه ؛ وفى حديث جابر بن عبد الله ، قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلنا بواد أفيح ، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته فاتبعته بأداوة من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ير شيئاً يستتر به ، فاذا شجرتان فى شاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما ، فأخذ غصن من أغصانها ؛ فقال : انقادى علىّ

بإذن الله ، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده ، ثم فعل بالأخرى كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما ، قال : التئما علىّ بإذن الله تعالى ، فالتأمتا » ، الحديث ، رواه مسلم .

ومن آياته ، وعجائب معجزاته حنين الجذع شوقاً إليه صلى الله عليه وسلم ؛ وقد روى عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوعه ؛ فأخرج البخارى من طرق عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار : ألا نجعل لك منبراً ؟ قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبراً ، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر ، فصاحت النخلة ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبى الذى يسكن ، قال : كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها ، قال القاضى : حديث حنين الجذع مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ، خرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضع عشر : منهم أبىّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس ابن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريدة ، وأم سلمة ، والمطلب بن أبى وداعة ، وقال البيهقى : قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التى حملها الخلف عن السلف ، وقال الشافعى فيما نقله عنه ابن أبى حاتم فى مناقبه : ماأعطى الله نبياً ما أعطى نبينا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام ، فقيل له : أعطى عيسى إحياء الموتى ، قال : أعطى محمد حنين الجذع حتى سمع صوته ، فهو أكبر من ذلك .

ومن آياته كلام الحيوانات وطاعتها له صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك سجود الجمل ، وشكواه إليه : أخرج الإمام أحمد . والنسائى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه . وأنه استصعب عليهم ، ومنعهم ظهره . وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنه كان لنا جمل نسنى عليه ، وأنه استصعب علينا . ومنعنا ظهره . وقد عطش النخل والزرع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا . فقاموا . فدخل الحائط ، والجمل فى ناحية ، فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه ، فقالت الأنصار : يارسول الله . قد صار مثل الكلب الكلب ، وإنا نخاف عليك صولته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس علىّ منه بأس ، فلما نظر الجمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناصيته ، أذل ما كان قط ، حتى أدخله فى العمل ، فقال له أصحابه : يارسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ، ونحن نعقل . فنحن أحق أن نسجد لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، من عظم حقه عليها » وقد ورد فى هذا المعنى عدة أحاديث من طرق تدل على تعدد القصة .

ومن ذلك قصة الذئب ، أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : عدى الذئب على شاة ، فأخذها ، فطلبه الراعى ، فأخذها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه ، وقال : ألا تتق الله ،

تنزع منى رزقاً ساقه الله إلىّ ، فقال الراعى : ياعجباً ذئب مقعى على ذنبه ، يكلمنى بكلام الإنس ، فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ماقد سبق ، قال : فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة ، فزواها إلى زواية من زواياها ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الحديث .

واعلم أن قصة كلام الذئب جاءت من عدة طرق أيضاً من حديث أبى هريرة ، وأنس ، وابن عمر ، وجاءت أحاديث أيضاً فى كلام الحمار ، وكلام الضب ، وكلام الغزالة ، ولكن لاتخلو أسانيدها عن مقال .

ومن آياته : نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، قال القرطبى : قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت فى عدة مواطن فى مشاهد عظيمة ، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعى المستفاد من التواتر المعنوى ، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد نقل ابن عبد البر عن المزنى أنه قال : نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم أبلغ فى المعجزة من نبع الماء من الحجر ، حيث ضربه موسى بالعصى فتفجرت منه المياه ، لأن خروج الماء من الحجارة معهود ، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم ، انتهى .

وقد روى حديث نبع الماء عن جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وجابر ، وابن مسعود ، فى "الصحيحين" عن أنس قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء ، فوضع يده

فى ذلك الإناء ، فأمر الناس أن يتوضأوا منه ، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم ؛ وفى البخارى أنهم كانوا ثمانين رجلا ، وفى لفظ : فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى توضأ القوم ، قال : فقلت : لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة ؛ وفى "الصحيحين" أيضاً عن جابر رضى الله عنه ، قال : عطش الناس يوم الحديبية ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين يديه ركوة ، فقالوا : ليس عندنا مانتوضأ به ، ولا نشرب إلا مافى ركوتك ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فتوضأنا وشربنا ، قيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قالوا : لوكنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة ، وفى " صحيح مسلم " عن جابر قصة نبع الماء فى غزوة بواط أيضاً ، وفيه قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة ، واستدارت حتى امتلأت ، وأمر الناس بالاستقاء ، فاستقوا حتى رووا ، الحديث ، وفى "الصحيحين" عن ابن مسعود ، قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، وليس معناه ماء ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء ، فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام ، وهو يؤكل ، أخرجه البخارى ، والترمذى ، والنسائى .

ومما يشبه ذلك تفجير الماء ببركته ، وانبعاثه بمسه ودعوته ؛ وروى مسلم فى " صحيحه " عن معاذ رضى الله عنه قصة عين تبوك أنهم جاءوها ،

وهى تبض بشيء من ماء مثل الشراك . قال : ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شيء ، ثم غسل وجهه ويديه ،ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس ، وعند ابن إسحاق ، فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق ، وفى "صحيح البخارى ـ فى غزوة الحديبية" من حديث المسور بن مخرمة ، ومروان أنهم نزلوا بأقصى الحديبية ، على ثمد قليل الماء ، يتبرضه الناس تبرضاً ، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله مازال يجيش بالرى حتى صدروا عنه ، وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم توضأ ومج فى بئر الحديبية من فمه ، فجاشت بالماء كذلك ، وفى بعض الطرق عند غير البخارى أنه توضأ فى الدلو ، ومضمض فاه ، ثم مج فيه ، وأمر أن يصب فى البئر ، ونزع سهماً من كنانته فألقاه فى البئر ، ودعا الله ، ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها ، وهم جلوس على شفتها ، فجمع بين الأمرين ، وفى حديث البراء ، وسلمة بن الأكوع ، مما رواه البخارى فى قصة الحديبية ، وهم أربعة عشرة مائة ، وبئرها لا تروى خمسين شاة ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها ، قال البراء : وأتى بدلو منها فبصق ودعا ، وقال سلمة : فإما دعا ، وإما بصق فيها فجاشت ، فأرووا أنفسهم ، وركابهم ، وفى "الصحيحين" عن عمران بن حصين ، قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فاشتكى إليه الناس من العطش ، فنزل ودعا فى الإناء [1] ، ودعا علياً ،

---

(١) فى نسخة "فلاناً".

وقال اذهبا فاستقيا الماء ، فانطلقا ، فتلقيا امرأة بين مزادتين ، أوسطيحتين من ماء ، فجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بإناء ، ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين ، وأوكى أفواههما ، وأطلق الغزالى ، ونودى فى الناس : أسقوا واستقوا ، فسقى من سقى ، واستقى من شاء ، وهى قائمة تنظر إلى مايفعل بها ، وأيم الله لقد أقلع عنها ، وأنه ليخيل إلينا أنها أشد مَـلْـأَة منها حين ابتدأ فيها ، الحديث ؛ وفيه أنها لما أتت إلى قومها ، قالت : والله إنه لأسحر الناس كلهم ، أو أنه رسول الله ، وقالت لهم : فهل لكم فى الإسلام ، الحديث . وعن أنس قال : أصاب الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فى يوم الجمعة ، قام أعرابى ، فقال : يارسول الله ، هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه وما نرى فى السماء قزعة ، فوالذى نفسى بيده ماوضعها ، حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ، فمطرنا يومنا ذلك ، ومن الغد ، وبعد الغد حتى الجمعة الأخرى ، وقام ذلك الأعرابى ، أو غيره ، فقال : يارسول الله ، تهدم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه ، وقال : اللهم حوالينا ولا علينا ، فمايشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت ، وصارت المدينة فى مثل الجوبة ، وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجىء أحد من ناحيته إلا حدث بالجود ، رواه البخارى ، ومسلم .

ومن آياته صلى الله عليه وسلم تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه

فى " الصحيحين " عن جابر فى حديثه - فى غزوة الخندق - قال : فانكفأت إلى امرأتى ؛ فقلت : هل عندك شيء ، فانى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً ، فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن ، فذبحتها ، وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم فساررته ، فقلت : يارسول الله ذبحنا بهيمة لنا ، وطحنا صاعاً من شعير ، فتعال أنت ، ونفر معك ، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم ياأهل الخندق ، إن جابراً صنع سوداً ، فحى هلا بكم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لاتنزلن برمتكم ، ولا تخبزن عجينكم حتى آتى » فأخرجت له عجيناً ، فبصق فيه ، وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا ، فبصق ، وبارك ، ثم قال : ادع خابزة ، فلتخبز معك ، واقدحى من برمتكم . ولا تنزلوها ، وهم ألوف [1] فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وأن برمتنا لتغط كما هى ، وأن عجيننا ليخبز كما هو ، وفى " الصحيحين " أيضاً قصة إطعام النبى صلى الله عليه وسلم القوم الذين كانوا سبعين أو ثمانين رجلا من أقراص شعير أرسلت بها أم سليم تحت يد أنس . وأنهم أكلوا حتى شبعوا ، وجاءت روايات عدة عن أنس فى هذا المعنى تدل على تعداد القصة ، وفى " صحيح مسلم " عن أبى هريرة ، قال : لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقال عمر : يارسول الله أدعهم بفضل أزوادهم ، ثم أدع الله لهم بالبركة ، فقال : نعم ، فدعا بنطع . فبسط ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، ويجيء الآخر بكسوة حتى اجتمع من ذلك شيء يسير ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى نسخة « ألف » .

بالبركة ، ثم قال : خذوا فى أوعيتكم ، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ماتركوا فى العسكر وعاءاً إلا ملأوه ، قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى اللهُ بهما عبد غير شاك ، فيحجب عن الجنة » ، وفى " الصحيحين " عن أنس قصة إطعام النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وكانوا زهاء ثلاثمائة رجل من حيس أرسلت به أم سليم مع أنس ، وأنهم أكلوا عشرة عشرة حتى شبعوا ، قال أنس : فما أدرى حين وُضعت ، كان أكثر ، أم حين رفعت ؛ وعن سمرة بن جندب ، قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نتداول من قصعة من غدوة حتى الليل ، يقوم عشرة ، ويقعد عشرة ، قلنا : فماكانت تمد ؟ قال : من أى شيء يعجب ، ما كانت تمد إلا من هـٰهنا ، وأشار بيده إلى السماء ، رواه الترمذى ، والدارمى ، وعنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بقصعة فيها لحم ، فتعاقبوها من غدوة حتى الليل ، يقوم قوم ، ويقعد آخرون ، فقال رجل لسمرة : هل كانت تمد ؟ قال : ماكانت تمد إلا من هـٰهنا ، وأشار إلى السماء ، رواه الدارمى ، وابن أبى شيبة ، والترمذى ، والحاكم ، والبيهقى ، وصححوه ، وأبو نعيم ؛ وفى حديث عبد الرحمن بن أبى بكر : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة ، وذكر الحديث ، وأنه عجن صاع ، وصنعت شاة ، فشوى سواد بطنها ، قال : فما من الثلاثين ومائة إلا وقد حز له من سواد بطنها ، ثم جعل منها قصعتين ، فأكلنا أجمعون ، وفضل فى القصعتين ، فحملته على البعير ، رواه البخارى ، والأحاديث فى مثل هذا كثيرة .

ومن آياته : إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ، وهذا باب واسع جداً ، وإجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لجماعته بما دعا لهم متواتر على الجملة ، معلوم ضرورة ، وقد جاء فى حديث حذيفة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده ؛ وأخرج البخارى عن أنس ، قال : قالت أمى : يارسول الله ، خادمك أنس ، أدع الله له ، قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما آتيته ، وفى رواية : قال أنس : فوالله إن مالى لكثير ، وأن ولدى وولد ولدى ليعادّون اليوم على نحو المائة ؛ وفى رواية : وما أعلم أحداً أصاب من رخاء العيش ما أصبت ، ولقد دفنت بيدى هاتين مائة من ولدى ، لاأقول : سقط ، ولا ولد ولد ، قال القاضى أبو الفضل : ومن هذا دعاؤه لمعاوية بالتمكين فى البلاد ، فنال الخلافة ، ولسعد بن أبى وقاص أن يجيب الله دعوته ، فما دعا على أحد إلا استجيب له ، ودعا بعز الإسلام بعمر ، أو بأبى جهل ، فاستجيب له فى عمر ، قال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر ، وأصاب الناس فى بعض مغازيه عطش ، فسأله عمر الدعاء ، فدعا ، فجاءت سحابة ، فسقتهم حاجتهم ، ثم أقلعت ؛ ودعا فى الاستسقاء فسقوا ، ثم شكوا إليه ضرر المطر ، فدعا ، فصحوا . وقال للنابغة : لا يفضض الله فاك ، فما سقطت له سن . وفى رواية : فكان أحسن الناس ثغراً ، إذا سقطت له سن نبتت له أخرى ، وعاش عشرين ومائة ، وقيل : أكثر من هذا ، ودعا لابن عباس : « اللهم فقهه فى الدين . وعلمه التأويل » فسمى بعد الحبر ، وترجمان القرآن ؛ ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صفقة يمينه ، فما اشترى شيئاً إلا ربح

فيه، ودعا للمقداد بالبركة، فكان عنده غرائر من المال؛ ودعا بمثله لعروة ابن أبي الجعد، فقال: لقد كنت أقوم بالكناسة، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً، وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب ربح فيه، ودعا لأم أبي هريرة، فأسلمت؛ ودعا لعلي رضى الله عنه أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر، ولا برد، وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه لما ذهب إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فقال: اللهم نور له، فسطع له نور بين عينيه، فقال: يارب أخاف أن يقولوا مثله، فتحول إلى طرف سوطه، فكان يضيء في الليلة المظلمة، فسمى ذا النور؛ ودعا على مضر فأقحطوا حتى استعطفته قريش، فدعا لهم، فسقوا؛ ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه، فلم تبق له باقية، قال القاضي: ولم يبق لفارس رياسة في أقطار الدنيا؛ ودعا على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع الله أثره فأقعد: وقال لعتبة بن أبي لهب: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك، فأكله الأسد، وحديثه المشهور في "الصحيحين" من رواية ابن مسعود في دعائه على قريش حين وضعوا السلى على رقبته، وهو ساجد، وسماهم، قال: فوالذي بعث محمداً بالحق لقد رأيت الذي سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر.

ومنها إبراء ذوى العاهات، خرج الإمام عثمان بن سعيد الدارمي عن ابن عباس رضى الله عنه، أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يارسول الله إن ابني به جنون، وأنه

ليأخذه عند غدائنا وعشائنا ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ، فتعتعه ، وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى ؛ وفى حديث أبى سعيد فى غزوة خيبر أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين على بن أبى طالب ، فقالوا : يارسول الله هو يشتكى عينيه . قال : فأرسل إليه ، فأتى به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ؛ أخرجه البخارى ؛ وفى رواية مسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه ، قال : فأرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على ، فجئت به أقوده أرمد ، فبصق فى عينيه ، فبرأ ، وأصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ، فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إن لى امرأة أحبها ، وأخشى إن رأتنى تقذرنى ، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وردها إلى موضعها ، وقال : اللهم أكسه جمالا ، فكانت أحسن عينيه ، وأحدهما نظراً ، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى ، وقد وفد على عمر ابن العزيز رجل من ذريته ، فسأله عمر من أنت ؟ فقال :

أبونا الذى سالت على الخد عينه . فردت بكف المصطفى أيما رد

فعادت كما كانت لأول أمرها ، فياحسن ماعين ، وياحسن ماخد

فوصله عمر ، وأحسن جائزته ، قال السهيلى : وفى رواية : أصيبت عيناى يوم أحد فسقطتا على وجنتى ، فأتيت بهما النبى صلى الله عليه وسلم فأعادهما مكانهما ، وبصق فيهما ، فعادتا تبرقان ، قال الدارقطنى : هذا حديث غريب ، وتفرد به عمار بن نصر عن مالك ، وهو ثقة ، ويجمع بين الروايتين بأن

أحد الرواة ظن أن الساقطة واحدة ، وبعضهم إن صحت الرواية عنه علم أنها ثنتان ، ومن قواعدهم أن زيادة الثقة مقبولة ، وأصيب سلمة يوم خيبر بضربة فى ساقه ، فنفث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث نفثات ، فما اشتكاها قط ، رواه البخارى ، والأخبار فى هذا المعنى أكثر مما ذكرناه.

ومن آياته صلى الله عليه وسلم عصمته من الناس ، وكفاية أذاهم ، على شدة العداوة ، ومع وحدته ، وقلة عضده ، وناصره ، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، وينادى عليهم فى أنديتهم بتسفيه أحلامهم ، وسب آلهتهم ، ورميها بكل عيب وسوء ، فيبالغون حتى أقرب أقاربه ، كعمه أبى لهب ، فى إيذائه ، والتجرى عليه لكثرتهم ، ووحدته صلى الله عليه وسلم ، وهو مع ذلك محروس بحراسة الله تعالى مكلوء بكلاءته ، محفوظ بحفظه ، متماد على ماهو عليه ، غير ملتفت إلى أذاهم ، إلى أن مكنه الله من نواصى أعدائه ، فأذاق من بقى منهم على كفره الهوان : فروى مسلم فى " صحيحه " عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم ، قال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك ، لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه فى التراب ، ثم إنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيده ، فقيل له : مالك ، قال : إن بينى وبينه خندقاً من نار ، وهولا ، وأجنحة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » ؛ وعن جابر ، قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد

فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى واد كثير العضاه ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، وتفرق الناس بالوادى يستظلون بالشجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن رجلا أتانى وأنا نائم ، فأخذ السيف ، فاستيقظت ، وهو قائم على رأسى ، والسيف فى يده صلتاً . فقال : من يمنعك منى ؟ قلت : الله ، فشام السيف ، وها هوذا جالس » ، ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ملك قومه ، فانصرف حين عفا عنه ، وقال : والله لا أكون فى قوم هم حرب لك ، أخرجه البخارى . ومسلم ، ومن هذا الباب العبرة المشهورة والكفاية التامة ، عند ما أجمعت قريش على قتله ، وبيّتوه لما أراد الهجرة ، فخرج عليهم من بيته ، فقام على رءوسهم ، وقد ضرب الله على أبصارهم ، وذرى التراب على رءوسهم ، وخلص منهم ، ثم حمايته ، إذ هو ، وأبو بكر فى الغار ، وقد وقف الكفار على بابه بما هيأ الله من الآيات ، ومن العنكبوت الذى نسج عليه ، حتى قال أمية بن خلف حين قالوا : ندخل الغار : ما أربكم فيه ، وعليه من نسج العنكوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد ؟ ! ووقفت حمامتان على فم الغار ، فقالت قريش : لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام ، ثم قصة سراقة بن مالك بن جعشم حين أتبعه على فرسه ، ليأسره لقريش ، حيث جعلوا عليه الجعائل ، فلما قرب منه دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فساخت قوائم فرسه ، ثم دعاه وأبا بكر بالأمان ، وقال : ما أصبت إلا من جهتكم ، ووقع فى نفسه ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، فطلب منه أن يكتب له أماناً ، فأمر أبا بكر

فكتب له ، فانصرف يقول للناس : كفيتم ماهنا ، ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس حين وفدا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر قال له : أنا أشغل عنك وجه محمد ، فاضربه أنت ، فلم يره فعل شيئاً ، فلما كلمه فى ذلك . قال له : والله ماهممت أن أضربه إلا وجدتك بينى وبينه . أفأضربك ؟ وعن فضالة بن عمرو ، قال : أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح . وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه ، قال : فضالة ؟ قلت . نعم ، قال : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قلت : لاشيء ، فضحك ، واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبي . فوالله مارفعها حتى ماخلق الله شيئاً أحب إلىّ منه ، والأحاديث والأخبار فى معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً ، قد أفردت بالمصنفات الكبار عند المتقدمين والمتأخرين ، وإنما ذكرنا من صحيحها ومشهورها ما هو كالأنموذج الدال على ماوراءه ، وبالله التوفيق .

فصل

فى بيان أن هذه الأخبار تفيد العلم ليعرف بطلان قول النصرانى : إن هذه المعجزات مما لم يكن عليه شهود . فنقول : هذه المعجزات منها ماهو فى القرآن ، وقد علم بالضرورة عند الموافق والمخالف إتيانه من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قدمنا الإشارة إلى ذلك ؛ ومنها ماهو متواتر ، كنبع الماء من بين أصابعه ، وحنين الجذع ، وتكثير الطعام . فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه المعجزات منقولة عنده ، وتواترها أعظم من تواتر كثير من الأحكام ، فهو أعظم من تواتر سجود السهو ، فان سجود

السهو متواتر مقطوع به ، مع أنه إنما كان مرات قليلة ، ولا يحصره إلا المصلون خلفه ، لتلك الصلاة ، وكذلك حكمه صلى الله عليه وسلم بالشفعة فيما لم يقسم ، وكذلك نقلهم لنصب الزكاة ، فانه مع كونه متواتراً مقطوعاً به ، فلم يسمعه منه إلا طائفة قليلة ، وأمثال ذلك كثيرة ، إنما سمعها طائفة من الأمة هم أقل بكثير ممن شاهد آياته ، قال بعض الأئمة : ومن المعلوم بالضرورة أنه قد جرى على يديه عليه الصلاة والسلام آيات وخوارق عادات إن لم يبلغ واحد منها معيناً ، القطع ، فيبلغه جميعها ، فلا مرية فى جريان معانيها على يديه ، ولا يختلف مؤمن ولا كافر أنه جرت على يديه عجائب ، وإنما خلاف المعاند فى كونها من قبل الله ، وقد قدمنا إيضاح الدلالة على كونها من قبل الله ، وأن ذلك بمثابة قوله : صدق عبدى فأطيعوه ، فهذا أحد الوجوه فى إثبات هذه المعجزات ، وهو التواتر العام .

الوجه الثانى : التواتر الخاص ، وذلك فى كثير من أفراد هذه المعجزات ، فإن الأخبار قد تستفيض وتتواتر عند قوم دون قوم ، بحسب طلبهم لها ، وعلمهم بمن أخبر بها ، وما دل من الدلائل على صدقهم ، وأهل العلم بحديث النبى صلى الله عليه وسلم لهم من العلم بهذا ماليس عند غيرهم ، كما أن أصحاب مالك ، والشافعى ، وغيرهما عند كل طائفة من أقوال متبوعيهم ، وأخباره مايقطعون به . وإن كان غيرهم لايعرفه ، والأطباء عندهم من كلام بقراط وأمثاله كذلك ، وأهل العلم بأيام الإسلام يعلمون من سيرة الخلفاء ومغازيهم مايقطعون به ، وإن كان غيرهم لايعرفه ،

بل أهل العلم بالرجال يعلمون من حال آحاد الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم مالا يعلمه غيرهم ، والنحاة يعلمون من حال سيبويه وأمثاله مالا يعلمه غيرهم ، فكيف بمن هو عند أتباعه أعلا قدراً من كل عالم ، وأرفع منزلة من كل ملك ، وهم أرغب الخلق فى معرفة أحواله ، وأعظم الناس تحرياً للصدق فيها ، ولرد الكذب منها حتى صنفوا الكتب الكثيرة فى أخبار جميع من روى شيئاً من أخباره ، وذكروا من الجرح والتعديل ، ووقعوا فى ذلك ، وبالغوا مبالغة لايوجد مثلها لأحد من الأمم ، ولا لأحد من هذه الأمة إلا لأهل الحديث ، وميزوا فى المنقولات بين الصدق والكذب ، فيردون الكذب ، وإن كان فيه من فضائل نبيهم ، وأعلام نبوته ماهو أعظم مما يقبلون ، ويقبلون الصدق ، وإن كان فيه شبهة يحتج بها المنازع ، قال عبد الرحمن بن مهدى : أهل العلم يثبتون مالهم وعليهم ، وأهل البدع لايثبتون إلا مالهم ، فاذا كان أولئك فيما ينقلونه عن متبوعهم جازمين به لايكون إلا صدقاً ، فهؤلاء مع جزمهم بالصدق واتفاقهم على التصديق أولى .

قال شيخ الإسلام أبو العباس : وعامة أخبار "الصحيحين" مما اتفق أهل الحديث على التصديق بها ، وجزموا بذلك .

الوجه الثالث : فى تصحيح هذه المعجزات التواتر المعنوى ، وهذا مما اتفق عليه عامة الطوائف ، فان الناس يسمعون أخباراً متفرقة تتضمن شجاعة على ، وعمر ، وأمثالها ، وسخاء حاتم ، ومعن ، وأمثالها ، وحلم الأحنف ، ومعاوية ، وأمثالها ، فيحصل علم ضرورى بأن الشخص

موصوف بهذا ، وإن كان كل خبر لو تجرد لم يفد العلم ، فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هى أضعاف أضعاف مانقل عن الواحد من هؤلاء ، ونقلتها أجل وأكبر ، وعلم المسلمين بها أعظم من علم أهل الكتاب بآيات موسى ، وعيسى ، فما يذكرون من حجة فى صحة نقلها إلا وحجة المسلمين فيما ينقلونه عن نبيهم وأصحابه أظهر وأقوى .

الوجه الرابع : أنها تكون بمحضر من الخلق الكثير ، كتكثير الطعام يوم الخندق ، ونبع الماء من بين أصابعه يوم الحديبية ، وفيضان البئر بها ، وكلهم صالحون لا يعرف فيهم من تعمد كذبة واحدة ، وكان بعضهم ينقلها قدام آخرين ممن حضرها ، فيذهب أولئك فيخبرون بها أولئك ، فيصدق بعضهم بعضاً ؛ ويحكى هذا مثل ماحكى هذا ، من غير تواطؤ ، وأدنى أحواله أن يقرره ولا ينكره ، ونعلم بموجب العادة الفطرية ، وبما كان عليه السلف من تحرى الصدق ، وشدة توقيهم الكذب على نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وروايتهم عنه التحذير من الكذب عليه ، وتعظيم الوعيد على ذلك ، كما فى الحديث المتواتر عنه : « من كذب علىّ متعمداً ، فليتبوّأ مقعده من النار » ، أنهم لم يكونوا يقرون من يعلمون أنه يكذب عليه ، بل نعلم أنه لو كان ماسمعوه منكراً عندهم ، وغير معروف لديهم لأنكروه ، كما أنكر بعضهم على بعض أشياء رواها فى السنن والسير ، وغير ذلك ، وخطأ بعضهم بعضاً ، ووهمه فى ذلك فى قضايا معلومة ، ومن تعقل ماذكرناه علم قطعاً أنهم متفقون على نقل تلك المعجزات ، كما اتفقوا على نقل القرآن ، ومما يبين ذلك أن ماأنكره بعضهم

على الآخر ، وإن كانوا متأخرين عن الصحابة أوجب التنازع فى حكم ذلك كتنازعهم ، هل كان يجهر بالبسملة فى الصلاة الجهرية ، أو يداوم على القنوت فى الفجر ، وهو من أهون الأمور ، إذ كلهم متفقون على صحة صلاة من فعل أو ترك ، ولكن لما تنازعوا فى فعله تنازعوا فى الحكم ، فعلم أن ما كان مشهوراً فى الأمة عن النبى صلى الله عليه وسلم ولم ينكره أحد من علمائها كانت الأمة متفقة على نقله ، وكذلك حجه ، فانهم متفقون على ما تواتر عنه من أنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة ، وأنه عاش بعدها نحو من ثلاثة أشهر ، قال أبو العباس : واتفقوا على أنه لما حج أمر أصحابه إلا من ساق الهدى إذا طاف وسعى ، أن يحل ، وأنه لم يعتمر هو وأصحابه الذين حجوا معه بعد الحج إلا عائشة ، وأنه لم يحل ، ولا من ساق الهدى معه ، وإنما اشتبه على بعضهم بعض ألفاظه ، أو بعض الأمور التى تخفى على كثير من الناس ، وكان الصحابة ينقلون تمتعه ، ومرادهم أنه قرن بين العمرة والحج ، وبعضهم قال : أفرد الحج ، فظن بعض الناس أنه اعتمر بعد الحج ، وقال بعضهم : قرن ، فظن بعض الناس أنه طاف طوافين ، وسعى سعيين ، ومن أسباب الغلط أن الصحابة يستعملون تلك الألفاظ فى غير المعانى التى استعملها من بعدهم ، قال : ومن تدبر هذا أفاده علماً يقيناً بصحة هذه المعجزات عنه .

الوجه الخامس : إن كل طائفة من العلماء ممن صنف فى علوم الأثر قد تواتر عندهم من هذه الآيات ما فيه كفاية ، فكتب التفسير متواتر فيها ، وكذلك كتب الحديث ، وكذلك كتب السير ، وإن لم يكن

هذا مقصوداً منها ، وإنما المقصود ماأصوله تلك الكتب من الأحكام وغيرها ، فنقل كل طائفة يفيد العلم اليقيني ، فكيف بنقل الكل .

وهذه الأوجه التي ذكرناها يستدل بها تارة على تواتر الجنس العام . وهذا أقل مايكون ، وعلى تواتر جنس جنس منها ، كتكثير الطعام . وكالطهور ، وعلى نوع نوع ، كنبع الماء من بين أصابعه ، وعلى تواتر شخص شخص ، كحنين الجذع ، وكل ما أمعن الإنسان في ذلك النظر . واعتبره بأمثاله ، وأعطاه حقه من النظر والاستدلال ، ازداد به علماً ويقيناً ، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع مايطلبه بالأخبار المتواترة ، فليس في الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول ، وشرائع دينه أظهر من ذلك ، وما من حال أحد من الأنبياء ، والملوك ، والعلماء وأقواله ، وأفعاله ، وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم أظهر ، وما من علم يعلم بالتواتر مما هو موجود الآن ، كالعلم بالبلاد البعيدة ، إلا والعلم بحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وما هم عليه من الدين ، وما ينقلونه عن نبيهم من آياته ، وشرائع دينه أظهر تحقيقاً ، لقوله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً ﴾ وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان ، إنما هو بما يظهره من آياته ، وذلك إنما يتم بما ينقل عن محمد صلى الله عليه وسلم من آياته التي هي الأدلة ، وشرائعه التي هي المدلول المقصود بالأدلة ، فهذا قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ، ونصراً ، وتأييداً على كل دين ، والحمد لله رب العالمين .

وكل واحد من هذه الأوجه الخمسة التي ذكرناها يفيد العلم بصحة هذه المعجزات ، فكيف وهي كلها متظاهرة .

وهذه غير البراهين المستفادة من القرآن ، فان تلك قد تجرد لها طوائف ذكروا من أنواعها وصفاتها كثيراً ، حتى بينوا أن مافى القرآن من الآيات يزيد على عشرات الألوف ، وقد أشرنا فيما تقدم الى مجامع ذلك وأصوله الذى يرجع إليها ، وهذان غير مافى كتب أهل الكتاب من الأخبار به مما قدمنا بعضه ، وهذه الثلاثة غير مافى شريعته ، وغير صفات أمته ، وغير مايدل على نبوته من المعرفة بسيرته وأخلاقه ، وهذا كله غير نصر الله له ، وإكرامه لمن آمن به ، وعقوبته لمن كفر به ، فان تعداد أعيان دلائل النبوة لايمكن لبس الإحاطة به ، وذلك أنه لما كان الإيمان به واجباً على كل أحد بيّن الله لكل شخص مالا يبيّن لآخرين ، كما أن دلائل الربوبية أعظم وأكبر من كل مدلول ، ولكل قوم ، بل لكل إنسان من الدلائل التى يريه الله إياها فى نفسه ، وفى الآفاق ، مالا يعرف أعيانها قوم آخرون ، قال الله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ والضمير عائد على القرآن عند المفسرين ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ ثم قال : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ فأخبر تعالى أنه سيرى الناس فى أنفسهم ، وفى الآفاق من الآيات العيانية مايبين لهم أن الآيات المسموعة حق ، فيتطابق العقل والسمع ، ويتفق العيان

والقرآن ، وتصدق المعاينة والخبر ، قاله شيخ الإسلام أبو العباس .

وإذا عرف ماقررناه تبين بطلان قول النصرانى : إن هذه المعجزات مما لم يكن عليه شهود ، وقامت الحجة ، وانقطعت المعذرة ؛ واعلم أنه لم يبق للمخالف مايتعلل به سوى العناد المحض ، والكفر الصراح ، وما أحسن ماقال الإمام أبو عبد الله بن القيم : إنه لا يمكن ألبتة أن يؤمن يهودى بنبوة موسى إن لم يؤمن بنبوة محمد عليهما الصلاة والسلام ، ولا يمكن نصرانياً أن يقرّ بنبوة المسيح إلا بعد إقراره بنبوة محمد عليهما الصلاة والسلام ، وبيان ذلك أن يقال لهاتين الأمتين : أنتم لم تشاهدوا هذين الرسولين ، ولا شاهدتم آياتهما ، وبراهين نبوتهما ، فكيف يسع عاقلا أن يكذب نبياً ذا دعوة شائعة ، وكلمة قائمة ، وآيات باهرة ، ويصدق من ليس مثله ، ولا قريباً منه فى ذلك ، لأنه لم ير أحد النبيين ، ولا شاهد معجزاته ، فإذا كذب بنبوة أحدهما لزمه التكذيب بنبوتهما ، وإن صدق أحدهما لزمه التصديق بنبوتهما ، فمن كفر بنبيّ واحد ، فقد كفر بالأنبياء كلهم ، ولم ينفعه إيمانه ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ، والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما ﴾ وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد

من رسله﴾ فنقول للمغضوب عليه: هل رأيت موسى، وعاينت معجزاته؟ فبالضرورة يقول: لا، فنقول له: بأى شيء عرفت نبوته، وصدقه، فله جوابان: أحدهما أن يقول: أبى عرفنى ذلك، وأخبرنى به؛ الثانى: أن يقول: التواتر، وشهادات الأمم حقق ذلك عندى، كما حقق خبرهم وشهاداتهم، وجود البلاد النائية، والبحار والأنهار البعيدة، وإن لم أشاهدها، فإن اختار الجواب الأول، وقال: إن شهادة أبى وإخباره إياى بنبوة موسى، كان سبب تصديق نبوته، فيقال له: فلم كان أبوك عندك صادقا، وكلامه معصوماً عن الكذب، وأنت ترى الكفار يعلمهم آباؤهم ماهو كفر عندك، فاذا كنت ترى الأديان الباطلة، والمذاهب الفاسدة قد أخذها أربابها عن آبائهم، كأخذ مذهبك عن أبيك، وأنت تعلم أن الذى هم عليه ضلال، فيلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك خوف أن تكون هذه حاله، فان قال: إن الذى أخذته عن أبى أصح من الذى أخذه الناس عن آبائهم، كفاه معارضة غيره له بمثل قوله، فان قال: أبى أصدق من آبائهم، وأعرف وأفضل، عارضه سائر الناس فى آبائهم بنظير ذلك، فان قال: أنا أعرف حال أبى، ولا أعرف حال غيره، قيل له: فما يؤمنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك، وأفضل وأعرف؟! وبكل حال، فان كان تقليده لأبيه حجة صحيحة، كان تقليد غيره لأبيه كذلك، وإن كان ذلك باطلا كان تقليده لأبيه باطلا، فان رجع عن هذا الجواب، واختار الجواب الثانى، وقال: إنما علمت نبوة موسى بالتواتر قرناً بعد قرن، فإنهم أخبروا بظهوره ومعجزاته وآياته،

وبراهين نبوته التى تضطر إلى تصديقه ، فيقال له : لاينفعك هذا الجواب ، لأنك قد أبطلت ماشهد به التواتر من نبوة المسيح ، ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فان قال : تواتر ظهور موسى ومعجزاته وآياته ، ولم يتواتر ذلك فى المسيح ، ومحمد ، قيل : هذا هو اللائق ببهت الأمة الغضبية ، فان الأمم جميعهم قد عرفوا أنهم قوم بهت . وإلا فمن المعلوم أن الناقلين لمعجزات المسيح ، ومحمد عليهما الصلاة والسلام أضعاف أضعافكم بكثير ، والمعجزات التى شاهدها أوائلهم لاتنقص عن المعجزات التى أتى بهاموسى عليه السلام ، وقد نظمها [1] عنهم أهل التواترجيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وأنت لاتقبل خبر التواتر فى ذلك ، وترده ، فيلزمك أن لاتقبله فى أمر موسى .

ومن المعلوم بالضرورة أن من أثبت شيئاً ، ونفى نظيره ، فقد تناقض ، وإذا اشتهر النبى فى عصره وصحت نبوته فى ذلك العصر بالآيات التى ظهرت معه لأهل عصره ، ووصل خبره إلى أهل عصر آخر ، وجب عليهم تصديقه والإيمان به ، وموسى ، والمسيح ، ومحمد فى هذا سواء ، ولعل تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادة بنبوة عيسى ، لأن الأمة الغضبية قد مزقها الله كل ممزق ، وقطعها فى الأرض ، وسلبها ملكها وعزها ، فلا عيش لها إلا تحت قهر سواها من الأمم لها ، بخلاف أمة عيسى عليه السلام ، فانها قد انتشرت فى الأرض ، وفيهم الملوك ، ولهم الممالك ، وأما الحنفاء فممالكهم قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها ، وملأوا الدنيا سهلا وجبلا ، فكيف يكون نقلهم لما نقلوه كذبا ، ونقل

(١) فى نسخة ” نقلها “

الأمة الغضبية الجاهلية القليلة الذليلة صدقا ، فثبت أنه لايمكن يهودياً على وجه الأرض يصدق بنبوة موسى إلا بتصديقه وإقراره بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن نصرانياً ألبتة الإيمان بالمسيح إلا بعد الإيمان بمحمد صلى الله عليهما وسلم ، ولا ينفع هاتين الأمتين شهادة المسلمين بنبوة موسى والمسيح ، لأنهم إنما آمنوا بهما على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان إيمانهم بهما من الإيمان بمحمد ، وما جاء به ، فلولاه ماعرفنا نبوتهما ، ولا آمنا بهما ، ولا سيما ، فان أمة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن أنبيائهم مايوجب الإيمان بهم ، فلولا القرآن ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ماعرفنا شيئاً من آيات الأنبياء المتقدمين ، فمحمد صلى الله عليه وسلم وكتابه هو الذى قرر نبوة موسى ، ونبوة المسيح ، لااليهود والنصارى ، بل كان نفس ظهوره ومجيئه تصديقاً لنبوتهما ، فانهما أخبرا به ، وبشرا بظهوره ، فلما بعث كان بعثه تصديقاً لهما ، وهذا أحد المعنيين فى قوله تعالى : ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ أى مجيئه تصديق لهم من جهتين : من جهة إخبارهم بمجيئه ، ومبعثه ، ومن جهة إخباره بمثل ماأخبروا به ، ومطابقة ماجاء به لما جاءوا به ، قال الرسول الأول : إذا أتى بأمر لايعلم إلا بالوحى ، ثم جاء نبى آخر لم يقارنه فى الزمان ، ولا فى المكان ، ولا تلقى عنه بمثل ماجاء به سواءاً ، دل ذلك على صدق الرسولين الأول والآخر ، وكان ذلك بمنزلة رجلين : أخبر أحدهما بخبر عن عيان ، ثم جاء آخر من غير بلده ، وناحيته ، بحيث يعلم أنه لم يجتمع به ، ولا تلقى عنه ، ولا عمن تلقى عنه ، فأخبر بمثل ماأخبر به

الأول سواءاً ، فانه يضطر السامع إلى تصديق الأول والثانى ، فالمعنى أنه لم يأت مكذبا لمن قبله من الأنبياء مزرياً عليهم ، كما يفعل الملوك المتغلبة على الناس بمن تقدمهم من الملوك ، بل جاء مصدقا لهم ، شاهداً بنبوتهم ، ولو كان كاذباً متقولا منشئاً من عنده شيئاً مما جاء به ، لم يصدق من قبله ، بل كان يزرى بهم ، ويطعن عليهم ، كما يفعل أعداء الأنبياء ، انتهى .

فصـــل

واعلم أن آيات النبوة ومعجزاتها لاتختص بحال التحدى ، أو حال دعوى النبوة ، كما ظنه بعض أهل الكلام ، بل تكون فى حياة الرسول ، وقبل مولده ، وبعد وفاته ، لكن لابد من آيات فى حياته تقوم بها الحجة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « مامن الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وكما قال الله تعالى : ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الآيات ، وقال تعالى : ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال ، وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ فأخبر سبحانه أنه ضرب الأمثال لجميعهم وأهلكهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والآيات فى هذا كثيرة ، وكانت آيات نبينا صلى الله عليه وسلم غير مختصة بما بعد البعثة ، بل ظهرت آياته قبل مولده ، وعند مولده ، وحال نشأته ، ثم ظهرت الآيات الكبار بعد بعثته ، منها ماوقع مقارناً للتحدى ، ومنها غير ذلك ، ثم استمرت آياته ومعجزاته بعد وفاته ، وعلى ممر السنين ، وتعاقب الدهور من وقوع ماأخبر به من الغيوب ، ومن ظهور دينه على الدين كله ، واقتران العز والظهور بطاعته ، واتباع

شريعته ، والذل والصغار بإضاعة أمره . ومخالفته ، مما يبين ذلك للمتوسمين في عموم الناس ، وفي خاصة أنفسهم ، وأكبر ذلك وأعظمه معجزة القرآن المستمرة على مر السنين ، وبقاؤه محفوظاً . كما أنزل غضاً طرياً ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

قال بعض أئمتنا : ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا أرسل نبياً ، وأتى بآية دالة على صدقه ، قامت بها الحجة ، وظهرت بها المحجة ، فمن طالب بآية ثانية لم تجب إجابته ، بل ، وقد لاتنبغي ، لأنه إذا جاء بثانية طولب بثالثة ، فإذا جاء بها طولب برابعة ، وطلب المتعنتين لاأمد له ، ومعلوم أن من قامت عليه الحجة في مسألة ، أو في حق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها ، لو قال : أنا لاأقبل حتى تقوم على حجة ثانية وثالثة ، كان ظالماً ، ولم تجب إجابته ، ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك ، فحق الله الذي أوجب على عباده من توحيده ، والإيمان به وبرسله أولى ، ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة فتتابع ، كآيات محمد صلى الله عليه وسلم لعموم دعوته ، فإن الأدلة كلما كثرت كان أظهر ، فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لايعرف دلالة الآخر ، وقد يبلغ هذا مالا يبلغ هذا ، وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة ، ويقسي قلوب الكفار عن الإيمان لينتشر ذلك ، ويظهر ، ويبلغ ذلك قوماً آخرين ، فيصير سبباً لإيمانهم ، كما في التوراة أنه يقسي قلب فرعون ليظهر عجائبه ، وآياته ، وكما صد المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يسعوا في معارضته ، والقدح في آياته ، فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن ، وغيره من آياته ،

بخلاف ما لو اتبع ابتداءاً بدون ذلك ، فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته ، وكذلك أيضاً يكون فى ذلك من صبره ، وجهاده ، ويقينه ، وصبر أصحابه ، وأتباعه ، وجهادهم ماينالون به عظيم الدرجات فى الدنيا والآخرة ، وقد تقتضى الحكمة أن لايرسل بالآيات التى توجب عذاب الاستئصال ، كما ذكره فى كتابه العزيز ، وكان الكفار يقترحون ، فتارة يجيبهم لما فيه من الحكمة ، وتارة لايجيبهم ، لما فيه من المضرة ، وربما طلب الرسول تلك الآيات رغبة فى إيمانهم ، فيجاب بأنها لاتستلزم الهدى ، بل تستلزم إقامة الحجة ، وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها ، وقد بـيّن الله تعالى أنه لا يظهرها لانتفاء المصلحة ، أو لوجود المفسدة ، قال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم ، وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ، ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ وهذا المعنى مذكور فى عامة كتب التفسير ، والحديث ، وغيرهما ، كما ذكروا عن ابن عباس ، قال : سأله أهل مكة أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال حتى يزرعوا ، فقيل : إن شئت تستأنى بهم ، وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا هلكوا ، كما أهلك من قبلهم ؟ قال : بل أستأنى

بهم ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ؛ وروى ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية ، قال : رحمة لكم أيتها الأمة أنا لو أرسلنا الآيات فكذبتم بها أصابكم ماأصاب من قبلكم ، وقد كانت الآيات تأتيه صلى الله عليه وسلم آية بعد آية فلا يؤمنون بها ، قال تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزءون ، ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، مكناهم فى الأرض ، مالم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ، ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس ، فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، ثم لاينظرون ، ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم مايلبسون ، ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون ، قل سيروا فى الأرض ، ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أخبر سبحانه أن الآيات تأتيهم فيكذبون بالحق ، وأنهم سوف يرون صدق ما جاء به الرسول ، كما أهلك من كان قبلهم بذنوبهم التى هى تكذيب الرسول ، فإن الله يقول : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وأخبر بشدة كفرهم ، بأنه لو أنزل عليهم كتاباً فى قرطاس ، فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ،

وبين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملَكا لجعله على صورة الرجل، إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة فى صورهم، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أنه بشر لا ملك، وقد قال تعالى: ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيتاً من زخرف، أو ترقى فى السماء، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربى، هل كنت إلا بشراً رسولا! وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا، قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾.

وهذه الآيات التى اقترحوا لو أجيبوا بها، ثم لم يؤمنوا، أتاهم عذاب الاستئصال، وأيضاً هى مما لا يصلح، فان تفجير الينبوع بمكة يصيرها وادياً ذا زرع، والله تعالى من حكمته جعل بيته بذلك الوادى، لئلا يكون عنده ماترغب النفوس فيه من الدنيا، فيكون حجه للدنيا لا لله، وإذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم جنة، كذلك كان فيه من التوسع فى الدنيا ماينقص درجته، وكذلك إذا كان له بيت من زخرف، وهو الذهب، وإسقاط السماء لا يكون إلا يوم القيامة، وهو لم يخبرهم أنه لا يكون إلا يوم القيامة، فقولهم: ﴿ كما زعمت ﴾ كذب منهم، إلا أن يريدوا التمثيل، فيكون القياس فاسداً، وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلا، فلما سأل قوم موسى ماهو دونه أخذتهم الصاعقة، وأما إنزال الكتاب، فقد قال تعالى:

﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرِنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات ، فعفونا عن ذلك ، وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ، ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً ، وقلنا لهم : لاتعدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ، فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلا ، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ الآيات ، بيّن سبحانه أن المشركين سألوه إنزال الكتاب ، وأن أهل الكتاب سألوه ذلك ، وبيّن أن الطائفتين لم يؤمنوا إذ جاءهم ذلك ، وإنما سألوه تعنتاً . فقال عن المشركين : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وأنهم مع ذلك نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين ، إلى أمثال ذلك . وأنه بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرم عليهم طيبات .

ففيه من الاعتبار لهذه الأمة أن الأمة المكذبة إذا جاءتهم الآيات المقترحة . لم يكن فيها منفعة لهم ، بل توجب عقوبة الاستئصال ، فكان أن لاتنزل أعظم رحمة وحكمة ، وقد عرض الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم أن يهلك قومه لما كذبوه . فقال : بل أستأنى بهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئاً ، كما فى حديث عائشة

رضى الله عنها قالت : قلت : يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم ، يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت ، وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فاذا فيها جبريل عليه السلام . فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوه عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، وسلم علىّ ، وقال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، قد بعثنى إليك لتأمرنى بأمرك فيما شئت ، فان شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » أخرجه البخارى ، ومسلم ، و" الأخشبان " جبلا مكة المحيطان بها ، ولما طلبت من المسيح المائدة كانت من الآيات الموجبة لمن كفر بها عذابا لم يعذبه أحداً . فكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسل بعذاب الاستئصال . وأظهر تعالى آيات كثيرة لما أرسل موسى ، ليبقى ذكرها فى الأرض ، إذكان بعد نزول التوراة لم يعذب أحداً بعذاب الاستئصال ، بل قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ماأهلكنا القرون الأولى ﴾ فكان بنو إسرائيل لما كانوا يفعلون مايفعلون من الكفر والمعاصى ، يعذب بعضهم ، ويبقى بعضهم ، إذكانوا لم يتفقوا على الكفر ، ولهذا لم يزل فى الأرض أمة من بنى إسرائيل باقية على الحق ، قال تعالى : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً ،

منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ﴾ الآيتين . وكان من حكمته ورحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال ، بل عذب بعضهم بأنواع العذاب ، كالذين قال فيهم : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ والذى دعا عليه أن يسلط عليه كلباً ، وأمثال ذلك ، قال تعالى : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدينا ﴾ فأخبر أنه معذبهم تارة بأيدى المؤمنين ، وتارة بعذاب غير ذلك ، فكان ذلك مما يوجب إيمان أكثرهم ، كما جرى لقريش وغيرهم ، فانه لو أهلكهم كالذين قبلهم لبادوا ، وانقطعت المنفعة عنهم ، ولم يبق لهم ذرية تؤمن ، بخلاف الأول ، فان فيه من إذلالهم وقهرهم مايوجب عجزهم ، والنفوس إذا قدرت ، لا تكاد تنصرف عن مرادها ، بخلاف ما إذا عجزت عن كمال أغراضها ، فانه يدعوها إلى التوبة ، كما قيل من العصمة أن لا تقدر ، ولهذا آمن عامتهم ، ولم يقتل منهم إلا القليل ، وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم فى هذه الأمة كفرعون فى تلك الأمة ، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أبى جهل : « هذا فرعون هذه الأمة » وفى التوراة : إنى أقسى قلب فرعون لتظهر آياتى وعجائبى ، بيّن أن فيه من الحكمة انتشار آياته الدالة على صدق أنبيائه فى الأرض ، إذ كان قوم موسى قد أخبر بتكليم الله له وبكتابه التوراة له ، فأظهر الله له من الآيات مايبقى ذكرها فى الأرض ، وكان فى ضمن ذلك من تقسية قلب فرعون ما أوجب أن أهلكه وقومه أجمعين ، وفرعون

كان منكراً لله جاحداً لربوبيته، لايقربه ، فلذلك أوتى من الآيات ما يناسب حاله ، وأما بنو إسرائيل مع المسيح فهم مقرون بالكتاب الأول ، فلم يحتاجوا إلى مثل مااحتاج إليه موسى عليه السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن محتاجاً إلى تقرير جنس النبوة ، إذ كانت الرسل قبله جاءت بما يثبت ذلك ، وقومه كانوا مقرين بالله ، وإنما الحاجة إلى تثبيت نبوته ، ومع هذا فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات من قبله ، وأعظم ، ومع هذا فلم يأت بآيات الاستئصال التى يستحق مكذبها العذاب العام العاجل ، فلهذا بين الله تعالى أنها إذا جاءت لاتنفعهم ، إذ كانوا لايؤمنون بها ، ولكن تضرهم ، ومع وجود المانع ، وعدم المقتضى لايصلح الفعل ، قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ، فهو يعلم أن قلوب هؤلاء كقلوب أولئك ، قال تعالى : ﴿ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر ، أو مجنون ،أتواصوا به ، بل هم قوم طاغون ﴾ وقال : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ ذكره فى السورة التى ذكر فيها انشقاق القمر ، وإعراضهم عن الآيات ، وقولهم : سحر مستمر ، وتكذيبهم ، واتباعهم أهواءهم ، وفيها : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر ﴾ أى من أنباء الغيب مايزجر عن الكفر ، إذ كان فى تلك الآيات بيان صدق الرسول ، والإنذار لمن كذبه بالعذاب ، كما عذب المتقدمون ، ولهذا يقول عقيب القصة : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ أى كيف كان عذابى لمن كذب برسلى ، وكيف كان إنذارى بذلك قبل مجيئه ، وفيها : ﴿ كذبوا بآياتنا كلها ﴾ فى قصة الفرعون

لأنهم كذبوا بجميع آيات موسى ، وجميع آيات الأنبياء قبله ، وكذبوا بجميع الآيات الدّالة على وجود الرب تعالى وقدرته ومشيئته ، ثم قال : ﴿ أكفاركم ﴾ أى أيتها الأمة ﴿ خير من أولئكم ﴾ الذين كذبوا نوحا ومن بعده ﴿ أم لكم براءة فى الزبر ﴾ وذلك أن كونكم لاتعذبون مثلهم إما لكونكم خيراً منهم لاتستحقون ما استحقوا ، أو يكون الله أخبر أنه لايعذبكم ، فان مايفعله الله تارة يعلم بخبره . وتارة يعلم بمشيئته وحكمته وعدله ، فإما أن تكونوا علمتم هذا من هذا الوجه ، أو من هذا الوجه ، هذا إن نظر إلى فعل الله الذى لاطاقة للبشر به . وإن نظر إلى قوة الرسول فيقولون : ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ فإنهم أكثر وأقوى ، فقال تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ، ويولون الدبر ﴾ وهذا أخبر به ، وهو بمكة فى قلة الأتباع ، ولا يظن أحد بالعادة المعروفة ، إن أمره يعلو قبل أن يهاجر ، ويقاتل ، فكان كما أخبر ، فانهم يوم بدر وغيرها هزموا ، وتلك سنة الله فى المؤمنين والكافرين ، وحيث ظهر الكفار ، فلذنوب المسلمين التى نقصت إيمانهم ، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ، ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ، قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير ﴾ فاذا كان من تمام الحكمة والرحمة أن لايهلكم هلاك الاستئصال ، كالذين قبلهم ، كان أن لايأتى بموجب ذلك ، مع إتيانه سبحانه بمايقيم الحجة ، ويوضح المحجة ، أكمل فى الحكمة والرحمة ، إذكان ما أتى به من الآيات حصل به كمال الخير ، والمصلحة ، والهدى ، والبيان ،

والحجة على من كفر ، وما امتنع منه دفع به من العذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة ، حتى يهتدوا ، وكان فى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لمكان خاتم الرسل من المنن السابغة ما لم يكن فى رسالة غيره صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فصـــل

قال شيخ الإسلام أبو العباس : الكلام فى النبوة من جنس الكلام فى الخبر ، فقول القائل : ﴿ إنى رسول الله إليكم ﴾ خبر من الأخبار ، والخبر تارة يكون مطابقاً لمخبره ، كالصدق المعلوم أنه صدق ، وتارة لا يكون كالكذب المعلوم أنه كذب ، فان لم يقم دليل صدقه ، أو كذبه ، بقي مما لانصدقه ولا نكذبه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾ فأمر بذلك ، لأنه قد يصدق ، فدل على أنه لايجوز تصديقه بمجرد إخباره ، ولا يجوز أيضاً تكذيبه قبل أن يعرف أنه كذب ، وفى " صحيح البخارى " عن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا ، وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ، وهذا مأثور عن غيره من الأنبياء ، كما جاء عن المسيح عليه السلام أنه قال : الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه ، وعامة عقلاء بنى آدم على هذا ، وهو مما يجب معرفته ، فان كثيراً من الناس لايميز بين ماينفيه لقيام الدليل على نفيه ، وبين مالم يثبته لعدم دليل إثباته ، فينفى ماليس له بعلم ﴿ ويقولون بأفواههم

ماليس لهم به علم ﴾ وكثير من الناس يعلم بالاستدلال والنظر صدق شخص معين . كما أن كثيراً منهم يعلم بالأخبار والنقل والاستدلال بذلك أموراً كثيرة ، ومن لم يشاركهم فيما سمعوه ، وفيما عرفوه من أحوال المخبرين ، وأحوال المخبر به ، لايعلم ماعلموه . فلهذا كان لأهل النظر العقلى طرق لايعرفها أهل الأخبار ، ولأهل الأخبار السمعية طرق لاتعرف بمجرد العقول ، ولهذا كان لهؤلاء من الطرق الدالة على صدق الرسول ونبوته ، والاستدلال على ذلك أمور كثيرة لايعرفها أهل الأخبار ، وعند أهل الأخبار من الأحاديث المتواترة عندهم والآيات المستبينة مايعرفون به صدق الرسول ، وإن كان أولئك لايعرفونها ، والناس قد يعلمون أن الخبر الواحد قد يقوم الدليل على كذبه ، فيعلم أنه كذب ، وإن أخبر به ألوف إذا كان خبرهم عن غير علم ، أو عن تواطؤ ، مثل أخبار أهل الاعتقادات الباطلة بها ، وأما إذا أخبروا عن علم منهم فهم صادقون فى نفس الأمر ، ويعلم صدقهم تارة بتواتر أخبارهم من غير مواطأة ، ولو كان اثنين ، فإن الاثنين إذا أخبرا بخبر طويل أسنداه إلى علم ، وقد علم أنهما لم يتواطآ عليه ، ولا هو مما يتفق فى العادة تماثلهما فيه فى الكذب أو الغلط ، علم أنه صدق . وقد يعلم صدق الخبر الواحد بأنواع من الدلائل ، وبقرائن تقترن به تكون صفات فى المخبر من علمه ودينه وتحريه الصدق ، أو تكون صفات فى المخبر به مختصة بذلك الخبر ، أو بنوعه . كحاجب الأمير إذا قال بحضرته لعسكره : إن الأمير قد أذن لكم فى الانصراف ، وأمركم تركبوا غداً ، أو أمر عليكم فلاناً ، ونحو ذلك . فإن العادة كما قد تمنع التواطؤ على الكذب ، فانها قد تمنع التواطؤ على

الكتمان . وإقرار الكذب . فما توفرت الهمم والدواعى على ذكره يمتنع أن يتواطأ أهل المكان على كتمانه ، كما يمتنع فى العادة ، تحدث حادثة عظيمة تتوافر الهمم والدواعى على نقلها فى الحج أو المجامع أو العسكر ، وإذا امتنع السكوت عن إظهارها . فالسكوت عن تكذيب الكاذب فيما أشد امتناعا . وقد تكون الدلائل صفات فى المخبر تقترن بخبره . فإن الإنسان قد ترى حمرة وجهه . فيميز بين حمرته من الخجل والحياء ، وبين حمرته من الحمى وزيادة الدم ، وبين حمرته من الحمام ، وبين حمرته من الغضب . وكذلك يميز بين صفرته من الفزع . وصفرته من الحزن . وصفرته من المرض ، حتى إن الأطباء الحذاق يعلمون حال المريض بمجرد رؤيته ، لايحتاجون مع ذلك إلى نبض وقارورة . وكذلك تعرف أحواله النفسانية . هل هو فرح أو محزون . وهل هو محب مريد للخير ، أو مبغض مريد للشر ، كما قيل :

تحدثنى العينان ماالقلب كاتم * من الغل والبغضاء بالنظر الشذر

وكما قيل :

والعين تنظر من عينى محدثها * هل كان من حزبها أو من أعاديها

ثم إذا تكلم مع ذلك دل كلامه على أبلغ مما تدل عليه سيما وجهه : وقد روى عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : ماأسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه ، وقال عمر بن الخطاب للعابث فى صلاته : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ، والرجل الصادق البر يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه سيما يعرف بها ، وكذلك

الكاذب الفاجر ، وكلما طال عمر الإنسان ظهر هذا فيه حتى أن الرجل فى صغره يكون جميل الوجه . فيظهر فى آخر عمره من قبح وجهه ماأثره باطنه ، وبالعكس ؛ وروى عن ابن عباس أنه قال : إن للحسنة نور فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة ظلمة فى القلب ، وسواد فى الوجه ، ووهن فى البدن ، وبغضة فى قلوب الخلق ، وقد يكون الرجل ممن لايتعمد الكذب ، لكن يعتقد اعتقادات باطلة فى الله وفى رسوله ودينه وعباده الصالحين ، ويكون له زهادة وعبادة واجتهاد مع ذلك . فيؤثر ذلك الكذب الذى ظنه صدقا ، وتوابعه فى باطنه ، ويظهر ذلك على وجهه ، فيعلوه من القترة والسواد مايناسب حاله ، كما قال بعض السلف : لو ادّهن صاحب البدعة كل يوم بدهان ، فان سواد البدعة لفى وجهه ، وهذه تظهر يوم القيامة ظهوراً تاماً ، قال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة ﴾ الآيتين ، وقال تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ الآيتين .

والمقصود أن مافى القلب من قصد الصدق والمحبة والبر ونحو ذلك ، قد يظهر على الوجه حتى يعلم ذلك علماً ضرورياً من أبلغ العلوم الضرورية ، وكذلك العكس ، وإذا كان كذلك ، فمن نبأه الله ، واصطفاه لرسالته ، كان قلبه من أفضل القلوب صدقا وبراً ، ومن افترى على الله الكذب كان قلبه من أشر القلوب كذباً وفجوراً ، كما قال ابن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ،

فاصطفاه لرسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد . فاتخذهم الله لصحبة نبيه ، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون سيئاً فهو عند الله سيء ، وإذا كان من أعظم أهل زمانه صدقا وبراً ، فلابد أن يظهر على لسانه وعلى صفحات وجهه مايناسب ذلك ، كما أن الكاذب الكافر لابد أن يظهر عليه مايناسبه ، وهذا يكون تارة حين أخباره ، وتارة فى غير تلك الحال ، فان الرجل إذا جاء ، وقال : إن الأمير أرسلنى إليكم بكذا ، فقد يقترن بإخباره من كيفيته وحاله مايعلم به أنه صادق أو كاذب ، وإن كان معروفاً قبل ذلك بالصدق أو الكذب ، كان ذلك دلالة أخرى ، وقد يكون ممن يكذب ، ولكن يعرف أنه صادق فى ذلك الخبر ، دع من يستمر على عادة واحدة بضعاً وعشرين سنة ، مع أصناف الناس واختلاف أحوالهم .

والمقصود أن العلم بصدق الصادق ، وكذب الكاذب كغيرهما من المعلومات ، قد يكون ضرورياً ، وقد يكون نظرياً ، وهو ليس من الضروريات الكلية ، كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين ، بل من المعلوم[1] بالأمور الغيبية ، كالعلم بحمرة الخجل ، وصفرة الوجل ، وعدل العادل ، وظلم الظالم مما يعرفه الخبير به علماً ضرورياً ، وإن كان استدلالياً ، وإذا كان القائل : إنى رسول الله ، إما أن يكون من خيار الناس وأصدقهم وأبرهم وأفضلهم ، وإما أن يكون من شرار الناس وأكذبهم وأفجرهم ، فالفرق بين هذين يكون من وجوه كثيرة لاتكاد تنضبط ، وقد تحصل

---

(١) فى نسخة من « العلم » .

المعرفة عند سماع خبر هذا ورؤية وجهه ، وسماع كلامه ، وما يلزم ذلك ، ويقترن به من بهجة الصدق ونوره ، ومن ظلمة الكذب وسواده وقبحه ، فتبين بذلك أن كثيراً من الناس إذا رأوا الكاذب وسمعوا كلامه تبين لهم كذبه تارة بعلم ضرورى ، وتارة باستدلالى ، وتارة بظن قوى ، وكذلك النبي الصادق إذا رأوه ، وسمعوا كلامه ، تبين لهم صدقه بعلم ضرورى ، أو نظرى قبل أن يروا خارقاً ، وقد يكون أولا بظن قوى ، ثم يقوى حتى يصير يقيناً ، كما فى المعلوم بالأخبار المتواترة والتجارب .

قال أبو العباس : وهذه الطريقة سلكها طوائف : منهم القاضى عياض ، فقال : إذا تأمل المنصف أحوال نبينا صلى الله عليه وسلم من جميل أثره ، وحميد سيرته . وبراعة علمه ، ورجاحة عقله وحلمه ، وكماله . وشاهد حاله ، وصواب مقاله ، لم يمتر فى صحة نبوته ، وصدق دعوته ، قال : وقد كفى هذا غير واحد فى إسلامه والإيمان به ، فروينا عن الترمذى ، وابن قانع ، وغيرهما بأسانيدهم أن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئت لأنظر إليه ، فلما استبنت وجهه عرفت أنه ليس وجه كذاب : رواه غير واحد عن عوف الأعرابى عن ذرارة ابن أوفى عن عبد الله بن سلام ، وعن أبى رمثة . قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعى ابن لى فأريته ، فلما رأيته ، قلت : هذا نبى الله ، وفى "صحيح مسلم" أن ضماداً لما قدم مكة ، وكان يرقى من هذه الريح ، فسمع أن محمداً مجنون ، قال : فأتيته . فقلت : إنى أرقى من هذه الريح ، وأن الله شفى على يدى من شفى ، فهل لك ؟ فقال : إن الحمد لله نحمده

ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لاإلـه إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد ، فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت بقول الكهنة والسحرة والشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه ، فقال : وعلى قومك ؟ قال : وعلى قومى ، وعن جامع ابن شداد ، قال : كان رجل منا أخبر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال : هل معكم شيء تبيعونه ؟ قلنا : هذا البعير ، قال : بكَمْ ؟ قلنا : بكذا وكذا وسقاً من تمر ، فأخذ بخطامه وسار إلى المدينة ، فقلنا : بعنا من رجل لاندرى من هو ، ومعنا ظعينه ، فقالت : أنا ضامنة لثمن البعير ، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر ، لايخيس بكم ، فأصبحنا ، فجاء رجل بتمر ، فقال : أنا رسول رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر ، وتكتالوا حتى تستوفوا ، ففعلنا ؛ وفى خبر الجلندى ملك عمان ، لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال الجلندى : والله لقد دلنى على هذا النبي الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الموعود ، وأشهد أنه نبيّ .

وقال نفطويه فى قوله تعالى : ﴿ يكاد زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار ﴾ :

هذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته ، وإن لم يتل قرآناً ، كما قال ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة * لكان منظره ينبيك بالخبر انتهى

وقد كان إيمان خديجة، وأبي بكر ، وغيرهما ، من السابقين الأولين قبل انشقاق القمر ، وإخباره بالغيوب ، وتحديه بالقرآن ، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذى هو نفسه آية ، ونفس إخباره أنى رسول الله ، لما يعرف من أحواله المستلزمة لصدقه ، إلى غير ذلك ، من آيات الصدق ، كما قالت خديجة رضى الله عنها ، لما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد خشيت على نفسى » وذلك أول ماجاءه الملك : أبشر ، فوالله لايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فاستدلت بما فيه من الأخلاق والصفات الفاضلة، والشيم الكريمة ، على أن من كان كذلك لايخزى أبداً ، فعلمت بكمال عقلها وفطرتها أن الأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والشيم الشريفة ، تناسب أشكالها من كرامة الله ، وتأييده وإحسانه ، لاتناسب الخزى والخذلان . وإنما يناسبه أضدادها ، فلذلك بادرت إلى الإيمان والتصديق ، وأبو بكر كان من أعقل الناس وأخبرهم ، فلما تبين له حاله علم علماً ضرورياً أنه نبى صادق ، وكان أتم أهل الأرض يقيناً ، علماً وحالا ، وكذلك هرقل لما سأل أباسفيان عن تلك المسائل فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجابه أبوسفيان ، استدل بذلك على نبوته ، والحديث فى "الصحيحين" عن ابن عباس رضى الله عنهما ،

قال : حدثنى أبو سفيان بن حرب ، قال : انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام ، فبينما أنا بها إذ جىء بكتاب من النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل جاء به دحية الكلبى فدفعه إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى عظيم الروم ، هرقل ، فقال هرقل : هل هٰهنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقالوا : نعم ، فدعيت فى نفر من قريش فدخلنا عليه ، فأجلسنا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً منه ؟ فقلت : أنا ، فأجلسنى بين يديه ، وأصحابى خلفى ، ثم دعا ترجمانه ، فقال : قل لهؤلاء إنى سائل هذا عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فإن كذبنى فكذبوه ، قال أبو سفيان : وأيم الله لولا أن يؤثروا علىّ الكذب لكذبته ، ثم قال لترجمانه : سله ، كيف حسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو حسب ، فقال : هل كان من آبائه ملك ، قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه ، سخطة له ؟ قلت : لا ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، قال : كيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا و بينه سجال ، يصيب منا ، ونصيب منه ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ؛ ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو صانع فيها ، قال أبو سفيان : فوالله ماأمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه ، قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قلت : لا ، فقال لترجمانه : قل له : إنى سألتك عن حسبه فيكم ، فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرسل تبعث

فى أحساب قومها، وسألتك هل كان فى آبائه ملك، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان فى آبائه ملك، قلت: رجل يطلب ملك آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم، فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه، سخطة له، فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل قاتلتموه، فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا، ينال منكم، وتنالون منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك، هل يغدر، فزعمت أنه لايغدر، وكذلك الرسل لاتغدر، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله، فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل إئتمّ بقول قيل قبله، ثم قال: بم يأمركم؟ قلنا: بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، فقال: إن يك ماتقول حقاً، فانه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ماتحت قدمى، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأه، فاذا فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فانى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فان عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن

لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده . وكثر اللغط ، فأمر بنا فأخرجنا ، فقلت لأصحابى : لقد أمر ابن أبى كبشة أنه ليخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقناً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام .

المقام الرابع

قال النصرانى : فصل فى تميز الأسباب التى بواساطتها انتشرت كلتا الشريعتين ، قد قلنا فى شأن الشريعة المسيحية : إنها انتشرت بواساطة الآيات التى صدرت ، لاعن المسيح وحده ، بل وعن تلاميذه ، وبواساطة الصبر على الشدائد وأنواع العذاب فى طاعة الله ، أما الذين نشروا دين محمد ، فإنهم لم يظهروا شيئاً من المعجزات ، ولم يقاسوا شيئاً من البلايا الشديدة ، ولا من أنواع القتل الشنيعة من أجل اعتقادهم ، بل تبعت الشريعة حيث سهل السيف طريقها ، قدامها ؛ فانها متعلقة بالكلية بالسيف والقتال .

الجواب ، والله الموفق : هذا الكلام يدل إما على الجهل المفرط ، وإما على العناد والمكابرة فى إنكار ما استفاضت به الأخبار ، وتضمنته كتب السير ، وتلقاه الخلف عن السلف من شدة ماعاناه المؤمنون من أذى المشركين ، إذ كانوا بمكة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وما قاسوه من الضيق والبلاء ، تارة بالضرب الشديد ، وتارة بالقتل الشنيع ، وتارة بالحصار وقطع الميرة عنهم ، وعدم اتصال أحد بنافعة إليهم ، إلى غير ذلك

من إخراجهم من ديارهم ، وإزعاجهم من أوطانهم ، وهم فى كل ذلك صابرون على دينهم متابعون نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لايبالون بما أصابهم فى ذات الله .

قال الإمام محمد بن إسحاق فى السيرة : إنهم - يعنى المشركين - عدوا على من أسلم ، وبايع واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر . فمن استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصبر ويعصمه الله منهم ، فكان بلال مولى أبى بكر ، لبعض بنى جمح ، مولداً من مولديهم ، وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، فكان أمية ابن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول ، وهو فى ذلك البلاء : أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر الصديق يوما ، وهم يصنعون ذلك به ، فاشتراه وأعتقه .

قال ابن إسحاق : ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، منهم زبيرة ، فأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ماأذهب بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا ، ماتضر اللات والعزى وما ينفعان ، فرد الله إليها بصرها ، ومر بجارية لبنى عدى ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، وهو

يضربها ، حتى إذا مل ، قال : إنى أعتذر إليك ، إنى لم أتركك إلا ملالة ، فابتاعها أبو بكر فأعتقها ، وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر و بأبيه وأمه ، وكانوا بيت إسلام ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، قال ابن إسحاق : فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول ، فيما بلغنى : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة ، فأما أمه قتلوها ، تأبى إلا الإسلام ، وكان أبو جهل الذى يغرى بهم فى رجال من قريش إذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنبه وخزاه ، فقال : تركت دين أبيك ، وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً ، قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به ، قال : وحدثنى حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب مايعذرون به فى ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله أن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى مايقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى كان به حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مايصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لايقدر أن يمنعهم مما هم فيه من ذلك ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لايظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه ، فخرج إليها كثير منهم ممن لم يطق المقام بمكة ، وصبروا على الجلاء ، ومفارقة الأوطان والعشائر ، والإقامة فى دار البغضاء البعداء . حتى أنجز الله لهم ماوعدهم ، ثم حصرت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين فى شعب

أبي طالب ، ومعهم أبو طالب ومن تابعه على النصرة من مشركي بني هاشم وبني المطلب ، وتعاقدت قريش على أن لايجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يتركوا أحداً يصل إليهم بنافعة حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد الأمر عليهم ، ودام ذلك ثلاث سنين حتى نقض الله ماعقدوه ، وأعز رسوله وحزبه ، فهذا بعض حال المهاجرين من أهل مكة ، وأما الأنصار فان الذى دعاهم إلى الدخول فى الإسلام ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم بعد عناية الله بهم ، وسابقة الحسنى أن اليهود كانوا جيرانهم بالمدينة ، وكانت تقع بينهم الحروب فى الجاهلية ، فكانت اليهود تستفتح عليهم ، وتقول : هذا زمان نبي يبعث ، فنتبعه ، فنقتلكم معه قتل عاد ، فقدم طائفة منهم مكة فى بعض المواسم ، وسمعوا مايدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من محاسن الشريعة ، ومايتلوه من القرآن الذى دلتهم عقولهم أنه ليس من قول البشر ، وعلموا أنه رسول الله ، وأنه الذى كانت توعدهم به اليهود فآمنوا به وصدقوه وبايعوه على الإيمان والنصرة ، ولما أرادوا بيعته ليلة العقبة ، وكانوا سبعين رجلا ، قال لهم أسعد ابن زرارة ، وهو أحد ساداتهم ، وقد أخذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم : رويداً ياأهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعظكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه ، وجزاؤكم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله ، فقالوا : ياأسعد أنقل عنا يدك ، فوالله لاندع هذه البيعة ، ولانستقيلها ، فبايعوه

وأعطاهم بذلك الجنة ، ومن المعلوم أنما تحملوه من ذلك هو من أعظم مايشق على النفوس ، فانهم نابذوا العرب قاطبة ، بل الخلق كلهم ، وقاطعوا من لم يدخل معهم فى ذلك من أهليهم وعشائرهم ، وقطعوا الحبال بينهم وبين الناس ، وهكذا المهاجرون من غير أهل مكة ، قد أسلم منهم كثير ، وهجروا أوطانهم وعشائرهم ، وهاجروا إليه فى المدينة ، وصبروا على ماكابدوه من الجوع ، والعرى ، والشدة ، ومفارقة المألوفات قبل أن يقوم الجهاد ، وإنما دخلوا بالدعوة والقرآن ، وإلا فلم يكن له صلى الله عليه وسلم مايستميل به القلوب من مال فيطمع فيه ، ولا قوة يقهر بها الرجال ، ولا أعوان على الأمر الذى أظهروه ، والدين الذى دعا إليه ، وكانوا حين دعاهم مجتمعين على عبادة الأصنام ، وتعظيم الأزلام ، مقيمين على ماهم عليه من عبية الجاهلية فى العصبية ، والحمية ، والتعادى ، والتباغى ، وسفك الدماء ، وشن الغارات ، لاتجمعهم ألفة دين ، ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم نظر فى عاقبة ، ولا خوف عقوبة ، ولا لائمة ، فألف الله بنبيه صلى الله عليه وسلم بين قلوبهم ، وجمع كلمتهم حتى اتفقت الآراء ، وتناصرت القلوب ، وترادفت الأيدى ، فصاروا إلباً واحداً فى نصرته ، وعنقاً واحداً إلى طاعته ، وهجروا أوطانهم وبلادهم ، وجفوا قومهم وعشائرهم فى محبته ، وبذلوا مهجهم ، وأرواحهم فى نصرته ، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف فى إعزاز كلمته ، بلا دنيا بسطها عليهم ، ولا أموال أفاضها إليهم ، ولا عوض فى العاجل أطمعهم فى نيله يحوونه ، أو مُلك أو شرف فى الدنيا يحوزونه ، بل كان من شأنه صلى الله عليه وسلم أن يجعل الغنى فقيراً ، والشريف أسوة الوضيع ، فهل تلتئم مثل هذه الأمور أو

يتفق مجموعها لأحد ؟ وهذا سبيله من قبيل الاختيار العقلي ، والتدبير الفكري ، لا والذي بعثه بالحق ، وسخر له هذه الأمور ، لايرتاب عاقل في شيء من ذلك ، وإنما هو أمر إلـٰهي ، وشيء غالب سمائي ، ناقض للعادات ، يعجز عن بلوغه قوى البشر ، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ؛ وبهذا يتبين أن قيام دينه صلى الله عليه وسلم إنما كان بالحجة ، ولكنه شرع الجهاد لتبليغ الأدلة ، وإيصال الحجة ، وإنفاذ البيان إلى المخاطبين ، ومن أجل ذلك كان أكثر الداخلين بالسيف لما سمعوا القرآن ، وعرفوا الإسلام انفتحت بصائرهم ، وصلحت عقائدهم ، واستبصروا فيما كانوا عنه من قبل ذلك عمين .

ولهذا المعنى لما وقعت الهدنة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين المشركين يوم الحديبية ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، واختلط المسلمون بالكفار وبادأوهم بالدعوة ، وأسمعوهم القرآن ، وخلى كل بأهله وأصدقائه ، وأخبروهم بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ، وأعلام نبوته ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك دخل في الإسلام في مدة هذه الهدنة كثير من الناس ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً .

والمقصود التنبيه على مانال المسلمين من الشدائد ، وما كانوا عليه من الصبر في طاعة الله ورسوله ، ونصرة دينه ، وأن ذلك إنما كان باليقين الذي اقتضاه ماشاهدوه من آيات النبوة ، وأعلام الرسالة ، وأن دين الإسلام اشتهر وانتشر في القبائل بالدعوة والبيان ، قبل أن يفرض الجهاد ، وسيأتي تتمة لهذا المعنى إن شاء الله تعالى .

فصـــــل

وأما قول النصرانى : لأنهم لم يظهروا شيئاً من المعجزات .

فجوابه : أن معجزات نبيهم صلى الله عليه وسلم غنية عن غيرها ، فانه قد حصل بها قيام الحجة والدلالة على أنه رسول الله . فلا حاجة بعد ذلك إلى ظهور الخوارق على يد أصحابه وأتباعه ، ومع ذلك فقد ظهر على أيديهم من الخوارق والآيات الدالة على أن متبوعهم رسول الله مالا يحصى .

واعلم : أن كثيراً من أهل الكلام لايسمى معجزاً إلا ماكان للأنبياء فقط ، وأما مايجرى على يد الولى فيسمونه كرامة ، ونقل عن السلف أنهم كانوا يسمون هذا معجزاً ، وذكر ذلك عن الإمام أحمد ، ثم مايجرى على يد غير النبي من الخوارق أن ظهر على يد صالح متبع للسنة ، قائم على قدم العبودية المرضية ، فهو المسمى كرامة ، وإن كانت حال من ظهرت له الخوارق بضد ذلك ، فهو استدراج ، وخيال شيطانى ، ليس من حال أولياء الله وكرامتهم .

قال بعض الأئمة : اتفق أولياء الله على أن الرجل لوطار فى الهواء ، ومشى على الماء لم يغتر به حتى تنظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه ، فأولياء الله المتقون هم المهتدون المقتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيفعلون ماأمر ، وينتهون عما عنه زجر ، ويقتدون به فيما بيَّن لهم أن يتبعوه فيه ، فيؤيدهم الله تعالى بملائكته ، وروح منه ، ويقذف فى قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه

المتقين ؛ وخيار أولياء الله تكون كراماتهم لحجة فى الدين ، أو لحاجة بالمسلمين ، مثل ماكانت معجزات نبيهم ، كذلك . فكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباعهم رسوله ، فهى فى الحقيقة تدخل فى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن الكرامات والخوارق والمعجزات المنقولة عن الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من صلحاء الأمة ، وعلمائها كثيرة جداً ، مثل ماكان لسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين انكسرت سفينة فى البحر هو فيها ، فركب لوحاً منها فطرحه فى الساحل بأرض فيها أسد ، قال : فخرج إلىّ الأسد يريدنى ، فقلت : ياأبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم ، ودلنى على الطريق ، ثم همهم ، فظننت أنه يودعنى ، ورجع .

وكان أسيد بن حضير ، وعباد بن بشر تحدثا عند النبى صلى الله عليه وسلم فى حاجة لهما حتى ذهب بعض الليل ، ثم خرجا من عنده ، وكانت ليلة شديدة الظلمة ، وفى يد كل واحد منهما عصا ، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا فى ضوئها ، فلما فرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه حتى بلغ منزله ، والقصة فى "صحيح البخارى - وغيره" .

ومن ذلك قصة أبى بكر الصديق ، وهى فى "الصحيحين" لماذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته ، وجعل لايأكل لقمة إلا ربا أسفلها أكثر منها ، فشبعوا ، وصارت أكثر مما كانت قبل ذلك ، فنظر إليها أبوبكر

وامرأته . فإذا هى أكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء إليه أقوام كثيرون ، فأكلوا منها .

وكان حبيب بن عدى أسيراً عند المشركين بمكة ، فكانوا يرون عنده العنب وما على وجه الأرض يومئذ عنب .

وعامر بن فهيرة من شهداء بئر معونة التمسوا جسده ، فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل ، وقد رفع ، قال عروة : فيرون أن الملائكة رفعته .

وخرجت أم أيمن مهاجرة ، وليس معها زاد ولا ماء ، فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر ، وكانت صائمة ، سمعت حساً على رأسها فرفعته ، فاذا دلو برشاء أبيض معلق ، فشربت منه حتى رويت ، فما عطشت بقية عمرها ، والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله أبرّ قسمه ، فكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين فى الجهاد يقولون : يابراء أقسم على ربك ، فيقول : يارب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، فيهزم العدو ، فلما كان يوم اليمامة ، قال : يارب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم ، وجعلتنى أول شهيد ، فمنحوا أكتافهم ، وقتل البراء شهيداً .

وخالد بن الوليد حاصر حصناً ، فقالوا : لانسلم حتى تشرب السم ، فشربه ، فلم يضره .

وسعد بن أبى وقاص كان مستجاب الدعوة ، مادعا قط إلا استجيب له ، وهو الذى هزم جنود كسرى ، وفتح العراق .

وعمر بن الخطاب ظهرت له الكرامات الكثيرة ، منها أنه أرسل

جيشاً وأمّر عليهم رجلا يدعى سارية ، فبينما عمر يخطب إذ جعل يصيح ، وهو على المنبر : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، فقدم رسول ذلك الجيش فسأله عمر ، فقال : ياأمير المؤمنين لقينا عدونا ، فهزمونا ، فاذا بصائح : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل ، فهزمهم الله .

ودعا سعيد بن زيد على أروى ، حين كذبت عليه ، فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها فى أرضها ، فعميت ووقعت فى حفرة من أرضها ، فماتت ، والعلاء بن الحضرمى كان عامل النبى صلى الله عليه وسلم على البحرين ، وكان يقول فى دعائه : ياعليم ياحليم ، ياعلى ياعظيم ، فيستجاب له . دعا الله بأن يسقوا فيتوضأوا لما عدموا الماء ، ولا يبقى الماء بعدهم ؛ فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ، ولم يقدروا على المرور ، فمروا كلهم ، هو والعسكر ، بخيولهم على الماء ، ولم تبتل سروج خيولهم ، ودعا الله أن لايروا جسده إذا مات ، فلم يوجد جسده فى اللحد .

وجرى مثل ذلك لأبى مسلم الخولانى الذى ألقى فى النار ، فانه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهى فى قوة مدها . ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : هل تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله فيه فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال : أتبعنى ، فاتبعه ، فوجدها قد تعلقت بشيء ، فأخذها .

وطلبه الأسود العنسى لما ادّعى النبوة ، فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : ماأسمع ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر بنار فألقى فيها ، فوجدوه قائماً يصلى فيها ، وقد صارت عليه

برداً وسلاماً ؛ وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر ، وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد من فعل به ، كما فعل بإبراهيم خليل الله ، ووضعت له جاريته السم فى طعامه ، فأكله فلم يضره ، وخببت عليه امرأةٌ زوجته ، فدعا عليها ، فعميت ، فجاءت إليه ، وتابت ، فدعا الله ، فرد عليها بصرها ، وكان عامر بن قيس يأخذ عطاءه فى كمه ألفى درهم ، وما يلقاه سائل إلا أعطاه بغير عدد ، ثم يجيء إلى بيته فلم يتغير عددها أو وزنها . ومر بقافلة ، وقد حبسهم الأسد ، فجاء حتى مس بثيابه فم الأسد ، ووضع رجله على عنقه ، وقال : إنما أنت كلب من كلاب الرحمن ، وإنى أستحيي من الله أن أخاف شيئاً غيره ، ومرت القافلة ، ودعا الله أن يهون عليه الطهور فى الشتاء ، فكان يؤتى بالماء له بخار ، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان ، فلم يقدر عليه ، وتغيب الحسن البصرى عن الحجاج ، فدخلوا عليه ست مرات ، فدعا الله أن لا يروه فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج ، وكان يؤذيهم فخر ميتاً .

وصلت بن أشيم مات فرسه ، وهو فى الغزو ، فقال : اللهم لاتجعل لمخلوق على منة ، ودعا الله ، فأحياه له ، فلما وصلوا إلى بيته قال لابنه : يابنى خذ سرج الفرس ، فانه عارية ، فأخذ سرجه ، فمات ، وجاع مرة بالأهواز فدعا الله ، واستطعمه ، فوقعت خلفه دوحلة رطب فى ثوب حرير ، فأكل وبقى الثوب عند زوجته زمانا ، وجاءه الأسد ، وهو يصلى فى غيضة بالليل ، فلما سلم ، قال له : أطلب الرزق من غير هذا الموضع ، فولى الأسد ، وله زئير .

ورجل من النخع كان له حمار ، فمات فى الطريق ، فقال أصحابه : هلم نتوزع متاعك ، فقال : أمهلوا هنيئة ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، وصلى ركعتين ، ودعا الله فأحيا له حماره ، فحمل عليه متاعه .

ولما مات أويس القرنى وجدوا فى ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل ، ووجد له قبراً محفوراً فيه لحد من صخرة ، فدفنوه فيه وكفنوه فى تلك الأثواب ، وكان عمرو بن عتبة بن مرثد يصلى يوما فى شدة الحر ، فأظلته غمامة ، وكان السبع يحميه ، وهو يرعى ركاب أصحابه ، لأنه كان يشترط على أصحابه فى الغزو أن يخدمهم ، وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو ، وصاحب له يسيران بالليل ، فأضاء لهما طرف السوط ، ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قلنسوة رجل فى قبره ، فأهوى ليأخذها ، فوجد القبر قد فسح فيه مدّ البصر ، وكان إبراهيم التيمى يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً ، وخرج يمتار لأهله طعاما ، فلم يقدر عليه ، فمر بسهلة حمراء ، فأخذ منها . ثم رجع إلى أهله ففتحوها ، فاذا هى حنطة حمراء ، فكان إذا ذرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً ، وكان عتبة الغلام ، سأل ربه ثلاث خصال : صوتاً حسناً ، ودمعاً غزيراً ، وطعاماً من غير تكليف ، فكان إذا قرأ بكى وأبكى ، ودموعه جارية دهره ، وكان يأوى إلى منزله ، فيصيب فيه قوته ، ولا يدرى من أين يأتيه ، وكان عبد الواحد بن زيد أصابه الفالج ، فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء ، فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ، ثم تعود بعده .

وهذا باب واسع جداً لا يمكن أن يؤتى منه فى هذا الموضع بأكثر مما ذكرناه ، وكلها قضايا عامتها مشهورة فى كتب الحديث والأثر ، وقد سقناها كما ساقها شيخ الإسلام أبو العباس ، ثم قال : ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل إذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج آتاه منها مايقوى إيمانه ، ويسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك ، لعلو درجته ، وغناه عنها ، لا لنقص ولايته ، ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة ، بخلاف من تجرى على يديه الخوارق لهداية الخلق أو لحاجاتهم ، فهؤلاء أعظم درجة ؛ وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية ، كأحوال الكهان الذين يكون لأحدهم القرين من الشياطين ، يخبره بكثير من المغيبات ، مما يسرقه من السمع ، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب ، كما دل على ذلك الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ، وغيره ، وكان للأسود العنسى الذى ادعى النبوة من الشياطين من يخبره ببعض الأمور الغائبة ، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون أن تخبره الشياطين بما يقولون فيه . حتى أعانتهم عليه امرأته . لما تبين لها كفره فقتلوه ، وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ، ويعينه على بعض الأمور ، وأمثال هؤلاء كثيرون : مثل الحارث الدمشقى الذى خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان ، وادعى النبوة ، وكانت الشياطين تخرج رجله من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وكان يرى الناس بجبل قاسيون رجالا ركباناً على خيل فى الهواء ، ويقول : هى الملائكة ، وإنما كانوا

جناً ، ولما أمسكه المساك ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح ، فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنك لم تسم الله ، فسمى الله وطعنه : فقتله ، وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم مايطردها ، مثل آية الكرسى .

والمقصود عند ذكر هذه الخوارق التنبيه على الفرق بين كرامات الأولياء ، وبين مايشبهها من الأحوال الشيطانية ، فان بينهما فروقا متعددة : منها أن كرامات أولياء الله سببها الإيمان والتقوى ، والأحوال الشيطانية يكون سببها مانهى الله ورسوله عنه ، ويستعان بها على مانهى الله عنه ورسوله ، وتجد كثيراً ممن ضعفت بصيرته ، وقل عمله بالكتاب والسنة ، وأحوال السلف الصالح يكون عمدته فى اعتقاده فى شخص كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة فى بعض الأمور ، أو بعض الخوارق للعادة ، مثل أن يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير فى الهواء إلى مكة أوغيرها ، وأن يمشى على الماء أحياناً أو يملأ إبريقاً من الهواء ، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب ، وأن أحداً استغاث به وهو غائب أوميت ، فرآه قد جاء ، فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما يسرق لهم ، أوبحال غائب لهم ، أومريض ، أونحو ذلك من الأمور ، وليس فى شيء من هذه الأمور مايدل على أن صاحبها ولى الله ، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار فى الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه ، وكرامات أولياء الله أعظم من هذه الأمور ، وهذه الأمور وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله ، فقد يكون عدواً لله ،

فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين ، وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، فتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان فيه شيء من هذه الأمور يكون ولياً لله ، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والإقرار بحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة ؛ ومثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد فى أشخاص ، ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلى الصلوات المكتوبة ، بل يكون ملابساً للنجاسات ، معاشراً للكلاب ، يأوى إلى الحمامات والمزابل التى هى مأوى الشياطين ، ولا يتطهر الطهارة الشرعية ، ولا يتنظف ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ، ولا جنب » ، وقال عن الأخلية : « إن هذه الحشوش محتضرة » أى يحضرها الشياطين ، وقال : « من أكل من هاتين الشجرتين ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » ، وقال : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » وقال : « إن الله نظيف يحب النظافة » وقال الله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ إلى قوله : ﴿ ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ﴾ الآية ، فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التى تحبها الشياطين ، يأوى إلى الحمامات والحشوش التى تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التى هى خبائث وفواسق ، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التى تحبها الشياطين ، أو يدعو غير الله ،

فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية قبر الشيخ ، ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب ، أو يأوى إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوى إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن ، وينفر عنه ، ويقدم على سماع الأغانى والأشعار ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لاعلامات أولياء الرحمن .

قال ابن مسعود : لايسأل أحد عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن ، فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن ، فهو يبغض الله .

وقال عثمان بن عفان : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله ، فإذا كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة ، فارقاً بين الأحوال الشيطانية والأحوال الرحمانية ، قد قذف الله فى قلبه نوره ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ ففرق بين حال أولياء الرحمن ، وحال أولياء الشيطان ، كما يفرق الصيرفى بين الدرهم الجيد ، والدرهم الزائف ، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد ، والفرس الردىء ، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق ، والمتنبي الكاذب ، ففرق بين محمد الصادق رسول رب العالمين ، وموسى والمسيح ، وغيرهم ، وبين مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشق ، ونحوهم من الكذابين ، فكذلك يجب الفرق بين أولياء الله المتقين ، وأولياء الشياطين الظالمين ، وبسط ذلك لايتسع له هذا الموضع .

ولشيخ الإسلام أبى العباس بن تيمية فى ذلك مصنف سماه : "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" أتى بالعجب العجاب ، فجزاه الله خير الجزاء ، وأثابه خير الثواب .

فصـــل

قال النصرانى : وإنما تستدل علماؤهم على صحتها - يعنى الشريعة - بكثرة الغلبات والفتوحات ، وعظم الملك ، وهذا مما ليس شيء أقل يقيناً منه ، فان مع أن عبادات الوثنيين فى غاية الشناعة ، ترى كم من البلاد فتحت على أيدى الفرس واليونانيين والروم ، حتى اتسعت ممالكهم فى الأرض .

الجواب ، ومن الله التأييد : إن استدلال علمائنا على صحة الشريعة ليس محصوراً فى هذا الدليل ، كما اقتضاه كلامه ، فان طرق الأدلة على صحتها لاتنحصر ، فان الله تعالى جعل لمحمد صلى الله عليه وسلم الآيات البينات قبل مبعثه ، وفى حياته وموته ، إلى هذه الساعة ، وإلى قيام الساعة ، فان ذكره وذكر البشارة به موجود فى الكتب المتقدمة ، كما قدمنا بعد ذلك ، ولما وجد اقترن بمولده من الآيات ماهو معروف فى كتب الأخبار والسير ، كارتجاس إيوان كسرى ، وسقوط شرافات منه ، وانصداعه ، وما اقترن به من رؤيا الموبذان التى أولها سطيح الكاهن ، وخمود نار فارس التى يعبدونها ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، وغيض بحيرة ساوة ، وحفظ السماء بالشهب رجوما للشياطين المسترقة للسمع ، وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل ، وكل ذلك إرهاص بين يدى مبعث محمد

صلى الله عليه وسلم إلى ما كان يحصل فى مدة نشأته من الآيات والدلائل، مثل ماحصل لمرضعته لما كان عندها، ومثل ماشوهد منه فى صغره من شق صدره، وتظليل الغمامة له، ومعرفة جماعة له بعلاماته، كما فى قصة بحيرا الراهب.

وأما مافى أيام نبوته فظاهر، كما تقدم ذكر بعضه، وأما بعد موته فمثل نصر أتباعه، وإهلاك أعدائه، وإعلاء ذكره، ونشر لسان الصدق له، وإظهار دينه على كل دين باليد واللسان، والدليل والبرهان، وهذا مما يطول وصف تفصيله.

وهكذا آيات غيره من الأنبياء متنوعة قبل المبعث، وحين المبعث، وبعد موتهم، لكن آيات نبينا صلى الله عليه وسلم أكثر، وبراهين نبوته أظهر، ثم إن غير الفتوحات من آياته أبلغ فى الدلالة، وأبهر فى المعجزة، وأكبر فى البرهان من التمكين فى الأرض، ووراثتها من أيدى الأمم الذين عصوه، وخالفوا أمره، مع أن هذا أيضاً دليل ظاهر، وبرهان قاطع، وللاستدلال به طرق:

الطريق الأول: ماتقدمت الإشارة إليه من أخباره صلى الله عليه وسلم بذلك، ثم وقوعه على وفق ماأخبر، قال الله تعالى: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً﴾ وقال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدوننى لايشركون بى شيئاً﴾ الآية،

ووردت الأحاديث الصحيحة بهذا الوعد ، كما قدمنا ذكر بعضها ، وقد وقع ذلك كله ، كما أخبر ، فان الله تعالى أظهر دينه على سائر الأديان ، بحيث أنه لم يبق أهل دين يخالف دين الإسلام إلا وقد قهرهم المسلمون ، فظهروا عليهم ، وإن لم يكن ذلك فى كل المواضع ، وفى جميع الأزمان ، فقد قهروا اليهود ، وأخرجوهم من بلاد العرب ، وغلبوا النصارى على بلاد مصر والشام ، وما والاها إلى ناحية الروم ، إلى ماوراءها ، وغلبوا أهل المغرب ، وغلبوا المجوس على ملكهم ، وغلبوا كثيراً من عبّاد الأصنام على كثير من بلادهم ، مما يلى الترك والهند ، وذلك سائر الأديان ، فثبت أن الذى أخبر الله به فى قوله : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ قد وقع ، وقيل فى معنى الظهور المذكور فى الآية : إنه الظهور بالحجة ، والكل حق ، فإن الله أظهر دين الإسلام بالاعتبارين ، على أكمل الوجوه ، فجعل لأهله الظهور بالحجة والبيان ، والسيف والسنان ، وقد وقع ماوعدهم من الاستخلاف فى الأرض ، وتمكين الدين ، وتبديل الخوف بالأمن ، وبلوغ ملك هذه الأمة ، مشارق الأرض ومغاربها ، وقد أخبر بذلك ، وهو خبر عن الغيب ، وأصحابه فى غايه القلة . فوقع كما أخبر فكان معجزاً .

الطريق الثانى : إن الفتوحات الإسلامية وقعت خارقة للعادة ، بحيث لم يقع قبلها ولا بعدها نظيرها ، وهذا يدل على عناية الرب تعالى بذلك ، وعلى تأييده لمن جاء بهذه الشريعة بأمر سمائى ، لامن قبيل قوة البشر ، وتغلبات الملوك ، وذلك يعرف بوجوه : منها قلة من قام به فى أول الأمر ، وضعفهم ، وقوة عدوهم ، وكونهم فى غاية الكثرة ، ونهاية

الحنق عليهم ، والبغض لهم ، والجد فى عداوتهم بكل ممكن ، فأيدهم الله عليهم ، وأظهرهم ، فدل على أن هذا النصر من السماء ، ومنها أن أعداءه مع كون حالهم ماوصفناه ، كانوا على أديان وجدوا عليها آباءهم ، ونشأوا عليها ، وألفتها طباعهم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى تركها ، وأن يتبعوا ماجاء به من الشريعة ، والمنهاج ، وكان أول من دُعى إلى ذلك العرب الذين هم أقوى الناس نفوساً ، وأقساهم قلوباً ، وأشدهم توحشاً ، وأمنعهم جانباً ، وأحبهم لأن يغلبوا ، ولا يغلبوا ، وأعسرهم انقياداً للملوك ، وأجفاهم أخلاقا ، وأقلهم احتمالا للضيم والذلة ، فما كانوا ليجيبوا إلى ماطلبه منه إلا لما رأوه من الآيات ، وشاهدوه من المعجزات الدالة على أنه رسول الله ، أو بأمر خارق للعادة ، ليس من صنع البشر ، فكان معجزاً ، فدل على أنه من عند الله ، ومنها أن تلك الفتوحات وقعت فى مدة قريبة ، ففتحت على رسول الله صلى الله عليه وسلم جزيرة العرب كلها إلى مايليها من أرض الشام فى مدة عشر سنين ، فدخلوا فى طاعته ، والتزموا دينه ، وتركوا أديانهم ، سوى من قبلت منه الجزية والصغار ، وهذا مالم يعهد له نظير ، وكذلك الفتوحات الواقعة فى أيام خلفائه الراشدين فى المشارق والمغارب ، كان ذلك فى أقرب مدة ، وكانت أعداؤهم فى غاية الكثرة والشجاعة ، والقوة والنجدة ، ولم يكن للمسلمين إذ ذاك من العدد والعدة والقوة مايكون له نسبة بجنب ماعند أعدائهم من ذلك ، فكيف بمكافأتهم ؟! فلا يرتاب عاقل أن ما أعطوه من الظهور والغلبة ليس إلا بالنصر الإلهى ، والتأييد السمائى ، الخارق للعوائد ، الدال على صدق من جاء بهذه الشريعة ، وأنها مرضية لله .

الطريق الثالث : ما أشرنا إليه، فيما تقدم ، بما حاصله أن محمداً صلى الله عليه وسلم قام بهذه الشريعة ناسخاً شرائع الأنبياء قبله ، مستحلا دماء من خالفه من أهل الكتاب وغيرهم، وأموالهم ونسائهم، قائلا : إن الله أمرنى بذلك ، ومع ذلك أيده الله تعالى بأنواع التأييد . وصدقه بأكمل أنواع التصديق، ومكنه فى الأرض، وأظهر دينه على كل الأديان، وجعل لأمته من التمكين فى الأرض مالم يكن لغيرهم ، فدل ذلك على أنه رسول الله ، وأنه إنما فعل ذلك عن أمر الله له بذلك ، وإلا لكان ذلك طعناً فى الرب تعالى، حيث زعم أعداؤه أنه سلط جباراً كاذباً عليه، على أوليائه ، وأتباع رسله ، ويمكن له غاية التمكين ، ويؤيده أعظم التأييد ، فمن آمن بربوبية الله لهذا الخلق ، ورأى ماذكرنا لم يرتب فى صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله، وإنما أعطاه من النصر والتأييد هو من آيات نبوته، كما كان من آيات الأنبياء إهلاك الله مكذبيهم، ونصرة المؤمنين بهم ، كإغراق قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وقد ذكر الله قصصهم فى القرآن فى غير موضع، وبين أنها من آيات الأنبياء، كما فى سورة الشعراء ، يختم كل قصة من تلك القصص بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

ومن ذلك ماجعله من اللعنة التابعة لمن كذبهم، ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم، ولمن آمن بهم، كما قال فى قصة نوح : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين، سلام على نوح فى العالمين ﴾ وكذلك فى قصة إبراهيم، أى تركنا هذا القول يقوله المتأخرون ـ وكذلك فى قصة موسى وهارون

وإلياس ، وقال فى قصة فرعون وقومه : ﴿ وأتبعوا فى هذه لعنة ﴾ وقال فى عاد : ﴿ وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ وقال : ﴿ فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾ وكل واحد من هذه الطرق التى ذكرناها كاف فى الدلالة على صحة الشريعة وصدق من جاء بها ، فكيف وهى كلها متفقة متظاهرة على ذلك ، مضافة إلى مالا يحصى من الأدلة والبراهين التى هى أظهر من شمس الظهيرة لأولى الألباب والبصيرة .

وأما اعتراض النصرانى بتمكين من مكن فى بعض البلاد من الوثنيين ونحوهم من ملوك الكفار ، فهو اعتراض فاسد ، فان أولئك لايشبهون المسلمين فيما ذكرناه من قوة التمكين فى مثل هذه المدة اليسيرة ، ولم يحصل لهم ماحصل لهم ، ولا ماقاربه ، ولم يدع أحد منهم إن ذلك عن أمر الله له بذلك ، ولم يشرع شريعة يحمل الناس عليها مدعياً أنها من عند الله ، فان سنة الله فى المتنبئين الكذبة على الله أن يهتك أستارهم ، ويظهر للخلائق عارهم ، ويهزم أنصارهم ، ويدمر ديارهم ، كما جرى لمسيلمة ، والأسود ، وطليحة ، وأضرابهم من الكذبة ، فان الله أظهر لخلقه من الدلالة على صدق رسوله ، بما جرى لهم ، وما عرف من أحوالهم وسيرهم الباطلة ، وتدمير الله إياهم ماهو من الحكم الباهرة ، والمصالح العظيمة ، فان الضد يظهر حسنه الضد ، وكذلك من سير أحوال الكفار ، رأى العبرة فى هذا الباب ، فانهم وإن انتصروا على أتباع الرسل أحياناً ، فان أولئك لايقول مطاعهم : إنه نبي ، ولا يقاتلون أتباع الأنبياء على دين ، ولا يطلبون

منهم أن يتبعوهم على دينهم ، بل يصرحون أنا نصرنا عليكم بذنوبكم . وأنكم لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم . وأيضاً فلا عاقبة لهم ، بل الله يهلك الظالم بالظالم ، ثم يهلك الظالمين جميعاً ، وليس قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق ، ويبين أن ظهور محمد صلى الله عليه وسلم وأمته على أهل الكتاب من جنس ظهورهم على عبدة الأوثان ، فان من أهل الكتاب من يقول : سلطتم علينا بذنوبنا ، مع صحة ديننا ، كبخت نصر ، وهذا قياس فاسد ، فان ذلك من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة ، وهذا من جنس خرق العادات التى لم يقترن بدعوى النبوة ، وما لم يقترن بدعوى النبوة لايكون دليلا عليها ، وقد يغرق فى البحر أمم كثيرة ، فلا يدل على نبوة نبى ، بخلاف غرق فرعون وقومه ، وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه السلام : أن الكذب لايتم أمره ، وذلك أن الله حكيم لايليق به تأييد الكاذب على كذبه ، من غير أن يبين كذبه ، ولهذا أن أعظم الفتن الدجال ، لما اقترن بدعواه خوارق ، كان معها مايدل على كذبه . كدعوى الإلـٰهية ، وهو أعور مكتوب بين عينيه : "كافر" ، يقرأه كل مؤمن ، والله لايراه أحد حتى يموت ، وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم هذه العلامات الثلاث فى الأحاديث الصحيحة ، فأما تأييد الكاذب دائماً فهذا لم يقع قط ، فمن يستدل على مايفعله الرب تعالى بالعادة والسنة ، فهذا هو الواقع ، ومن يستدل بالحكمة ، فحكمته تناقض أن يفعل ذلك .

فصـــل

قال النصرانى : ثم إنه لم يكن للمسلمين النصر والغلبة دائماً ، فإن من المشهور أنهم انهزموا عدة مرات فى البر والبحر ، وأنهم طردوا عن جميع بلاد الأندلس ، وغيرها من البلاد ، ولا يمكن الأمر الذى هو كثير الانقلاب من حال إلى حال ، والذى يشترك فيه أهل الصلاح ، والطلاح ، أن يكون دليلا على صحة الدين .

الجواب ، والله الهادى إلى سواء السبيل : إن انهزام المسلمين فى بعض المواطن غير قادح فى صحة الدليل لوجوه :

الأول : إن ذلك لم يمنع حصول الظهور على الأعداء ، وتمام الوعد الذى وعد به النبي صلى الله عليه وسلم ، بل مع وقوع ذلك فى بعض المواطن ، كان الظهور للمسلمين على جميع أهل الملل ، ولما كان الأمر كذلك بطل الاعتراض .

الوجه الثانى : إن سنة الله تعالى فى رسله وأتباعهم أن يدالوا مرة ويدال عليهم مرة أخرى ، ثم تكون العاقبة لهم ، وبهذا أجاب هرقل أبا سفيان فى حديثه الذى قدمناه ، حيث قال له هرقل : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قال : سجالا ، يدال علينا المرة ، وندال عليه الأخرى ، فقال هرقل : كذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لها العاقبة ، فصار هذا من أعلام الرسل ، فهو دليل لنا لا علينا ، ولله الحمد والمنة ؛ فإن قيل : ففى الأنبياء من قتل ، كما أخبر الله أن بنى إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق ، وفى أهل

الفجور من يؤتى سلطاناً ، ويسلط على قوم مؤمنين ، كبختنصر ، أجيب : بأن من قتل من الأنبياء ، فهو كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد ، كما قال تعالى : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين ﴾ ، ومعلوم أن حال هؤلاء أكمل من حال من يموت من المؤمنين حتف أنفه ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ الآية ، ثم الدين الذى قاتل عليه الشهيد ينتصر ويظهر ، فتكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة ، ومن قتل منهم كان شهيداً ، وهذا غاية مايكون من النصر ، إذ كان الموت لابد منه ، بخلاف من يهلك هو وطائفته ، فلايفوز لاهو ولا هم بمطلوبهم ، لافى الدنيا ولافى الآخرة ، والشهداء قاتلوا باختيارهم ، وفعلوا الأسباب التى بها قتلوا ، فهم اختاروا الموت ، إما أنهم قصدوه ، وإما قصدوا مابه يصيرون شهداء ، عالمين بأن لهم السعادة فى الآخرة ، وفى الدنيا بالانتصار لطائفتهم ، وبقاء لسان الصدق لهم ، ثناء ودعاء ، بخلاف غيرهم ، فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكا لايرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل لهم ، ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا ، بل أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين ، وقد أخبر الله تعالى أن كثيراً من الأنبياء قتل معه ربيون كثير ، أى ألوف كثيرة ،

كما هو أحد الأقوال فى الآية، وأنهم مااستكانوا لما أصابهم، بل استغفروا من ذنوبهم التى كانت سبب ظهور العدو ، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، فإذا كان هذا قتل المؤمنين ، فما الظن بقتل الأنبياء ، ففيه لهم ، ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ، ما هو من أعظم الفلاح .

الوجه الثالث: إن فى وقوع الهزيمة والكسر على المسلمين فى بعض المواطن ، مصالح عظيمة ، و حكما باهرة كثيرة ، فمع عناية الله بهم وإرادته ظهورهم وكرامتهم ، ابتلاهم بذلك فى بعض الأوقات لتتم المصلحة ، وتنفذ الحكمة ، فيعود المكروه محبوباً ، وقد أشار سبحانه فى سورة آل عمران فى سياق قصة أُحد إلى أصول المصالح ، والحكم فى ذلك ، منها تمييز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم ، ولم يتميز الصادق من الكاذب ، فاقتضت حكمة الرب تعالى أن يبتليهم بذلك ، ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق الذى جاءوا به ممن لا يتبعهم إلا على الظهور والغلبة خاصة ، ولم يجعل الغلبة على المؤمنين دائماً ، لأن ذلك يمنع حصول مقصود البعثة ، فاقتضت حكمته تعالى أن يجمع لهم بين الأمرين ، لتتم المصلحة ، ثم يجعل العاقبة لهم ؛ ومنها تعريفهم سوء عاقبة المعصية ، فإنه تعالى أخبر أن مايصيبهم ، فهو سبب ذنوبهم ، فيكون ذلك تنبيهاً على شؤم عاقبة الذنب ، ليحترزوا منه ؛ ومنها أنه لو نصرهم دائماً ، وأظفرهم بعدوهم فى كل موطن ، وجعل لهم التمكن والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم ، وشمخت أنوفهم ، كما

يكونون لو بسط لهم الرزق ، فلا يصلح عباده إلا السرّاء والضرّاء ، والشدة والرخاء ، والقبض والبسط ، فهو المدبر لأمر عباده ، كما يليق بحكمته ، أنه بهم خبير بصير ؛ ومنها أنه سبحانه هيأ لعباده منازل فى دار كرامته ، لم تبلغها أعمالهم ، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة ، فقيض لهم الأسباب التى توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه ؛ ومنها أن الشهادة عند الله من أعلا المراتب ، والشهداء هم خواصه المقربون من عباده ، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتسليط العدوّ ، إلى غير ذلك من الحكم والمصالح التى تفوت الوصف ، فإذا كان فى إدالة العدو على المؤمنين فى بعض المراتب مافيه من المصالح والغايات المحمودة ، كان إلى الدلالة على صحة الشريعة أقرب منه إلى العكس ، ولم يكن ناقضاً للاستدلال ، إذ هذا يكون لأمر عارض ، ومقتض طارٍ ، ثم تكون العاقبة . والنصر للمؤمنين ، بل قد قدمنا أن مثل هذه الأدلة من أعلام الرسل .

ومما يزيد ذلك بياناً ما أشرنا إليه من أن ظهور الكفار على المؤمنين أحياناً هو بسبب ذنوب المسلمين ، كيوم أُحد ، فإذا تابوا انتصروا ، كما قد جرى للمسلمين فى عامة ملاحمهم مع الكفار ، فهذا من آيات النبوة ، فإن النبي إذا قاموا بوصاياه نصروا ، وإذا ضيعوها ظهر أولئك عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجوداً وعدماً من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجوداً وعدماً من غير مزاحمة ، وصف آخر يوجب العلم ، بأن المدار عليه ؛ ومن المعلوم بالاستقراء ، والتتبع أن نصر الله سببه اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو يدل على

أن الله سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه ، فهذا يوجب العلم بنبوته ؛ ومن هذا ظهور بخت نصر إنما كان لما غيرت بنو إسرائيل عهود موسى عليه السلام ؛ فاذا اتبعوها كانوا منصورين ، كما كان فى زمن داود ، وسليمان ، وغيرهما ، قال الله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ ، فكان ظهور بنى إسرائيل تارة ، وظهور عدوهم تارة من دلائل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً ، سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فأخبر تعالى أن سنته التى لاتبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين ، والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله ، فاذا نقص بالمعاصى كان الأمر بحسبه ، كيوم أُحد ، فهذه عادته المعلومة ، والكاذب الفاجر وإن أعطى دولة ، فلا بد من زوالها ، ولابد من بقاء لسان السوء له فى العالم ، وهو وإن ظهر سريعاً ، فانه يزول سريعاً ، وأما الأنبياء فانهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء ، فان الله تعالى إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ، ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً ،

كالزرع ، قال الله تعالى : ﴿ محمد رسول الله ، والذين معه ﴾ إلى قوله : ﴿ كزرع أخرج شطأه ، فآذره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ﴾ الآية ، ولهذا كان أول من يتبعهم ضعفاء الناس ، أشار إليه بعض الأئمة ، فاعتبار هذه الأمور ، وسنة الله فى أوليائه وأعدائه، فما يوجب الفرق بين النوعين ، وبين دلائل هذا ، ودلائل هذا .

وأما قول النصرانى : إنهم ـ يعنى المسلمين ـ طردوا عن بلاد الأندلس وغيرها من البلاد ، فهذا من قبيل ماتقدم ، مما يبتلى الله تعالى به عباده ، وهو مما جاءت به الأنذار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه أخبر بإدالة العدو على المسلمين حتى يأخذوا بعض مافى أيديهم إذا أضاعوا أمر الله ، وفرطوا فيما أوجبه عليهم من طاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، فهو من أدلة الرسالة من وجهين : من جهة إخباره بذلك ، فوقع كما أخبر ؛ ومن جهة الاعتبار فى ترتب ذلك ، على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه وإن أخذت من أيدى المسلمين بعض البلاد التى كانت فى أيديهم ، فقد غلبوا على بلاد كثيرة ، بعد غلبهم ، على ماغلبوا عليه ، فانه قد حصل للمسلمين الغلبة فى بلاد الروم ، وما والاها ، بعد خروج الأندلس عن أيديهم ، بما هو أكبر بكثير مما غلبوا عليه ، ولا تزال طائفة من هذه الأمة المحمدية ، على الحق ظاهرين ، لايضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى تقوم الساعة ، فظهر بما قررناه الفرق بين الفتوحات الإسلامية ، وصحة الاستدلال بها على صحة الشريعة ، وبين محاربات الملوك المبطلين ، وتبين أن الاشتراك الصورى ،

بين أهل الصلاح والطلاح ، من بعض الوجوه ، مع ظهور الفروق الصورية والمعنوية ، من وجوه أخرى غير قادح فى صحة الدليل ، كما أن دخول كثير من الناس فى الأديان الباطلة بمجرد الدعوة إليها ، وإلقاء الشبهات غير مقتض صحة ذلك الباطل ، ولا قادح فى صحة حجج الأنبياء وأتباعهم ، حيث استجاب لهم كثير من الناس بمجرد الدعوة ، فهذا اشتراك فى صورة الاستجابة بالدعوة ، ولما لم يكن هذا الاشتراك الصورى بين أهل الصلاح والطلاح ، قادحاً فى صحة دين الحق ، ولا مضعفاً حجة أهله ، فكذلك مانحن فيه .

فصل

قال النصرانى : لاسيما حيث أن أكثر حروب الملوك بغير عدل ، إذ يقاتلون أمماً من غير الظالمين لهم ، وليس لهم مايتعللون به على محاربتهم ، سوى الاختلاف فى الدين ، وهذا ماهو إلا غاية عدم الدين ، إذ لاتكون عبادة الله إلا مايصدر عن إرادة النفس ، وأما الإرادة فهى تنقاد بالتعليم والإقناع لابالتهديد والقهر ، ومن اضطر لتصديق الدعوى من غير إرادة منه ، فهو لايصدقها ، بل يظهر فقط أنه يصدقها هرباً من الشدائد ، ومن يلزم غيره بالتسليم له بوساطة التعذيب له ، فهو بفعله هذا يدل على عدم مايستدل به على صحة دعواه .

الجواب ، وبالله التوفيق : أما حروب ملوك المسلمين بعضهم لبعض فى طلب الملك ، فليس مما نحن فيه ، إذ هو من قتال الفتنة الذى نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وحذر منه ، وهو قتال على الدنيا ، وأما القتال

الشرعى ، فهو القتال فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ، ولا ريب عند الموافق ، والمخالف أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بشرع الجهاد ، وتضمن الأمر به القرآن الذى أنزل عليه ، وإنما شرع فى المدينة بعد الهجرة إلى المدينة حين اجتمع بها المهاجرون ، والأنصار ، وعند ذلك علم أعداؤه من العرب واليهود ، أنها كانت لهم دار منعة ، فخافوا منهم ما كانوا يحذرون ، فرموهم عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، وكان الله يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، ثم إنه تعالى بحكمته أذن لهم فى القتال ، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى : ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، فقال تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، فقال تعالى : ﴿وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فكان محرماً ، ثم مأذوناً فيه ، ثم مأموراً به ، لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين ، وإذا كان القتال عن أمر الله وشرعه ، كان القيام به من أكبر الفضائل ، وأعظم الوسائل ، لما فيه من بذل النفوس والأموال فى مرضاة الله ، وما كان عن أمر الله فهو على وفق الحكمة والعدل ، لأنه صدر عن أمر الحكيم الخبير ، وقد قامت البراهين ، واتضحت الدلائل ، وظهرت المعجزات على أن محمداً رسول الله ، فبطل أن يكون قتال المسلمين لمن خالف الملة قتالا بغير عدل ، وقد ذكرنا

فيما تقدم إشارة إلى بعض مافى شرع الجهاد من الحكم والغايات المحمودة ، وأما قتال المسلمين أمماً من غير الظالمين لهم ، وأن السبب إنما هو الاختلاف فى الدين ، فهذا أوضح حجة على انه على مقتضى العدل ، لأنهم إنما يقاتلون المشركين بالله ، الكافرين به ، وبرسله ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية ، قال : « أغزوا بسم الله ، قاتلوا من كفر بالله » ، فأعظم الظلم ، وأكبر الذنوب الشرك بالله . والكفر به ، فشرع الله الجهاد ليكون الدين كله له ، كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ وإذ كان قتالك من ظلمك ، واعتدى عليك حتى يكف عن ظلمه واعتدائه لا يكون ظلماً ، ولا قبيحاً ، فكيف يكون قتال الكافر بالله ، المكذب لرسوله وكتابه ، الآتى ، بأعظم الظلم ، وأكبر الذنب ، يقال فيه : إنه بغير عدل ، ماهذا إلا جهل عظيم ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون .

وقوله : إذ لا تكون عبادة الله إلا مايصدر عن إرادة النفس ، إلى قوله : فهو لا يصدقها ، بل يظهر فقط أنه يصدقها هرباً من الشدائد .

جوابه : إن هذا ، وإن وجد فى آحاد من الناس ، فليس على العموم ، فلا تنتقض به الحكمة فى مشروعية الجهاد ، فإنه قد دخل فى الإسلام فئام من الناس بالقتال ، وافتتحت ديارهم بالسيف ، فدخلوا ، وكثير منهم كارهون ، فلما خالطوا المسلمين ، وسمعوا القرآن ، وبلغتهم معجزات النبوة وآيات الرسالة ، صلحت عقائدهم ، وانفتحت بصائرهم ، وعلموا أنه الحق ، ودانوا به باطناً وظاهراً ، وعلموا أبناءهم ونساءهم ، وبذلوا فيه نفوسهم

وأموالهم، هذا مالا يرتاب فيه ذو عقل صحيح ، وهل يستجيز من له أدنى مسكة من عقل أن يقول : إن من دخل فى الإسلام بعد قيام الجهاد من العرب ، وغيرهم من أصناف الأمم أنهم إنما يصدقون بالإسلام ظاهراً فقط ؟! هذا مما يعلم فساده ببديهة العقل ، فان الله قد خص هذه الأمة بما وهبها من الإيمان بالله ورسوله .

وتمام الانقياد لما جاء به الرسول منشرحة بذلك صدورهم ، مصدقة به قلوبهم ، مالم يعط غيرهم من الأمم ، وذلك لما أيد به نبيهم صلى الله عليه وسلم من المعجزات ، وأنواع الأدلة والآيات ، ولهذا كان أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة ، وكان أمته خير الأمم ، وأكثر أهل الجنة ، وأول الناس سبقاً إلى الجنة .كما قال صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون ، السابقون يوم القيامة » ولا ينتقض ماذكرناه بالمنافقين والزنادقة ، فانهم مقهورون مغمورون فى المؤمنين ، بل فى وجودهم بين المؤمنين ، مع كونهم أعداء لهم فى صورة أولياء ، واجتهادهم فى الإضرار بدينهم ودنياهم ، وسعيهم فى ذلك بكل ماأمكنهم ، ثم لم يظفروا بمطلوبهم ، ولم يحصلوا على مرادهم ، دليل على صحة الشريعة ، وأنها من عند الله عز وجل .

والمقصود أن الله نصب الأدلة والبراهين على صدق رسوله ، وصحة ماجاء به من النبوة والكتاب ، وشرع الجهاد وسيلة إلى إبلاغ الحجة ، وإيصال الدليل إلى المكلفين ، فان من كان على دين وجد عليه آباءه وأسلافه ، وأشربه قلبه ، وألفته نفسه لايختار ديناً غيره ، ولا يلتفت إلى سواه ، فلايصغى إلى حجج الحق وبراهينه ، فكان من رحمة الله بعباده أن

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد لتبلغ الحجة مبلغها ، فينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين .

وأما قول النصرانى : ومن يلزم غيره بالتسليم له بوساطة التعذيب له أو التخويف ، إلى آخره ، فهو كلام ساقط ، فان الأنبياء عليهم السلام جاءوا بالرسالة إلى الأمم مقرونة بالتخويف بالعذاب للمكذبين ، والإنذار للمخالفين ، كما جاءت بالبشارة للمؤمنين ، والرجاء للمصدقين ، ومنهم من جاء بالقتال ، وبنو إسرائيل لما امتنعوا من التزام أحكام التوراة لثقلها عليهم ، رفع الله جبلا فوق رءوسهم ، وقيل لهم : التزموا ، وإلا وقع عليكم الجبل ، كما قال تعالى : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا مافيه لعلكم تتقون﴾ وقال تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ .

وأيضاً فالشرائع جاءت بالحدود وإيقاع العقوبة بالعصاة ليرتدعوا عن المعاصى والمخالفات ، وكل هذا إلزام بالأحكام بوساطة التعذيب والتخويف ، أفكان ذلك دليلا على عدم البرهان فيما دعا إليه الأنبياء عليهم السلام ، وإذا لم يكن كذلك بطل هذا التمويه .

فصــــل

قال النصرانى : ثم إن مايجعلونه علة للقتال من الاختلاف فى الدين ، فينقضه فعلهم حيث يتركون من ينخضع لهم ، ويتدين بأى دين أراد ، وقولهم أيضاً : إن للنصارى فى شريعتهم مايكفى لهم خلاصاً .

الجواب ، وبالله التوفيق : مرادهم[١] بتركهم من يخضع لهم ، إقرار أهل الكتاب ونحوهم بالجزية ، وهذا ليس على العموم فى أهل كل دين ، فإطلاقه باطل ، فإنها لما نزلت آية الجزيه ، وهى قول الله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ أخذها النبى صلى الله عليه وسلم من ثلاث طوائف : اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، ولم يأخذها من عبّاد الأصنام ، فاختلف العلماء هٰهنا ، فقيل : لايجوز أخذها من كافر غير هؤلاء ، ومن دان بدينهم اقتداءً بأخذه وتركه ، وقيل : بل تؤخذ أيضاً من عبدة الأصنام من العجم دون العرب ، والأول قول الشافعى ، وأحمد فى رواية عنه ، والثانى قول أبى حنيفة ، وأحمد فى روايته الأخرى ، وعلى القول الأول فإنما أخذها النبى صلى الله عليه وسلم من المجوس ، أن لهم شبهة كتاب لما ورد فى بعض الأحاديث أنه كان لهم كتاب ، ثم رفع ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال فى المجوس : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » وليس المراد بسط هذه المسألة ، وإنما المقصود أن أخذ الجزية ممن بذلها للسلمين ، ليس على العموم فى حق كل كافر .

وإذا عرف هذا فليس فى إقرار من يقر بالجزية من الكفار مايكون قدحاً فى حكمة الشريعة وكمالها ، فإن أحكام الشريعة جاءت فى كل باب على وفق الحكمة والمصلحة ، والذى شرعها هو الرب سبحانه

(١) فى نسخة ‹‹ مراده ››

وتعالى ، وهو أحكم الحاكمين . وقد قامت الأدلة القاطعة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن كلام الله تعالى ، ورسالته إلى خلقه ، وشرعه هو ماتضمنه كتابه . وحكمة رسوله ، والحكم والغايات فى أحكامه لايحيط بها إلا هو ، فما علمناه منها قلنا به ، وما جهلناه وكلناه إلى عالمه ؛ وقد ذكر العلماء من الحكمة فى إقرارهم بالجزية وجوهاً ؛ فمنها أنهم أقروا بذلك ، ولم يعاملوا معاملة غيرهم من الكفار لحرمة الكتاب الذى ينتسبون إلى اتباعه ، والنبى الذى ينتمون إليه ؛ ومنها أن ذلك لحرمة آبائهم الذين انقرضوا على الحق من شريعة التوراة والإنجيل ، ومنها أن إقرارهم بذلك لأنهم أهل الكتاب ، وبأيديهم التوراة والإنجيل ، وفيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فربما يتفكرون ويعلمون صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيتبعون الحق ، فأمهلوا لهذا المعنى ؛ ومنها أن إبقاءهم كذلك من الشواهد والدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن فى الكتب التى بأيديهم مايدل على أنهم بدلوا ؛ وفيها مايدل على أن شريعتهم ستنسخ بغيرها ، كما قدمنا الإشارة إلى بعض ذلك ، وفيها من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأدلة نبوته ماقدمنا بعضه ؛ وفيها من التناقض والاختلاف مايبين أيضاً وقوع التبديل .

قال شيخ الإسلام أبو العباس : وعند أهل الكتاب مايدل على هذه المطالب ، وقد ناظرنا غير واحد منهم ، وبينا لهم ذلك ، وأسلم من علمائهم وخيارهم طوائف ، وصاروا يناظرون أهل دينهم ، ويتبينون ماعندهم من الشواهد والدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال :

وهذا من الحكمة فى إبقاء أهل الكتاب بالجزية ، إذ عندهم من الشواهد والدلائل على نبوته ، وعندهم من الشواهد على ماأخبر به من الإيمان بالله واليوم الآخر مايبين أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بالدين الذى بعث الله به الرسل قبله ، وأخبر من توحيد الله ، ومن صفاته بمثل ماأخبرت به الأنبياء قبله ، قال الله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن ، واستكبرتم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين ﴾ وقال : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ ، انتهى .

وأما قول النصرانى : وقولهم ـ يعنى المسلمين ـ : إن النصارى فى شريعتهم مايكفى لهم خلاصاً ، فهو كلام باطل ، وكذب صريح ، فإن المسلمين متفقون على مقالة واحدة لااختلاف بينهم ، أن من بلغته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فلا خلاص له ، ولا نجاة إلا باتباعه ، والإيمان به ، سواء فى ذلك اليهود والنصارى ، وعباد الأصنام ، وغيرهم من طوائف بنى آدم ، وقد علم من دينه بالضرورة أنه دعا الناس كافة إلى اتباعه ، وأنه جاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين ، فجرى له مع يهود المدينة وغيرهم ماهو معلوم ، وغزى النصارى عام تبوك بنفسه وسراياه ، وضرب الجزية على نصارى نجران ، وكذلك خلفاؤه الراشدون بعده ، جاهدوا أهل الكتاب ، يهودهم ، ونصاراهم ، وقاتلوا من قاتلهم ، وضربوا الجزية على من أعطاها منهم عن يد وهم صاغرون .

وهذا الكتاب الذى يعرف كل أحد أنه الكتاب الذى جاء به مملوء

من دعوة أهل الكتاب إلى اتباعه، ويكفّر من لم يتبعه منهم ويذمه ويلعنه، وقال الله تعالى: ﴿ قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾، وقال تعالى: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد ﴾، وقال تعالى: ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أهل النار»، وقال صلى الله عليه وسلم: «بعثت إلى الأحمر والأسود» وقال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على هذا الأصل الذى لايرتاب فيه مسلم.

المقام الخامس

قال النصرانى: فصل: فى الترجيح بين الشريعتين من جهة الوصايا، ونقول قبل إيراد كلامه فى هذا الفصل: إنا قد بينا فيما تقدم أن النظر فى الترجيح بين الشريعتين ساقط بعد ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعموم رسالته، وأنه لايبقى لطالب النجاة والسعادة إلا الإيمان به واتباعه، مع الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله، وأن لانفرق بين أحد منهم، ثم إذا نظر إلى كمال الشرائع وحكمتها، وعظمة وصاياها، وجدنا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم خير الشرائع وأفضلها من كل طريق من

طرق التفصيل ، كما أن الذى جاء بها أفضل المرسلين ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة ، وكما أن ماجاء به من المعجزات أعظم مما جاء به موسى ، وعيسى ، وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام ، فالذى جاء به من الدين والشريعة كذلك ، فما جاء به من النوعين أعظم مما جاء به موسى وعيسى ، وقد جمع الله له محاسن مافى التوراة والإنجيل ، ولهذا يقال : إن موسى عليه السلام بعث بشريعة الجلال ، والمسيح عليه السلام بعث بشريعة الجمال ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بعث بشريعة الكمال ، الجامعة بين الشريعتين ، والآخذة بمجامع [1] الملتين ، وذلك أن شريعة موسى عليه السلام ، كما قال الإمام ابن القيم : قد كانت شريعة جلال وقهر ، أمروا بقتل نفوسهم ، وحرمت عليهم الشحوم ، وذوات الظفر ، وغيرها من الطيبات ، وحرمت عليهم الغنائم ، وعجل عليهم من العقوبات ماعجل ، وحملوا من الآصار والأغلال مالم يحمله غيرهم ، وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله هيبة و قاراً ، وأشدهم بأساً وغضباً وبطشاً بأعداء الله ، فكان لا يستطاع النظر إليه ، وعيسى عليه السلام كان فى مظهر الجمال ، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان ، وكان لا يقاتل ولا يحارب ، وليس فى شريعته قتال ألبتة ، والنصارى يحرم عليهم فى دينهم القتال ، وهم به عصاة ، فإنه أمر فى الإنجيل أن من لطمك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر ، ومن نازعك ثوبك ، فأعطه رداءك ، ونحو هذا ، وليس فى شريعتهم مشقة ولا آصار ، ولا أغلال ، وإنما ابتدع النصارى تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ، ولم تكتب عليهم ، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فكان فى مظهر الكمال ،

(١) فى نسخة "بمحاسن"

الجامع بين القوة والعدل ، والشدة فى الله ، وبين اللين والرأفة والرحمة ، فشريعته أكمل الشرائع ، وأمته أكمل الأمم ، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ، ولذلك تأتى شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً ، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً ، وبالشدة فى موضع الشدة ، وباللين فى موضع اللين ، ووضع السيف موضعه ، ووضع النداء موضعه ، فيذكر الظلم ، فيحرمه ، والعدل ، فيأمر به ، والفضل ، فيندب إليه فى بعض آية ، كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فهذا عدل . ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ فهذا فضل ، ﴿ إنه لايحب الظالمين ﴾ فهذا تحريم الظلم ، وقوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ﴾ فهذا إيجاب للعدل ، وتحريم للظلم ، ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فهذا ندب إلى الفضل ، وكذلك تحريم ماحرم على هذه الأمة كان صيانة وحمية لهم ، حرم عليهم كل خبيث وضار ، وأباح لهم كل طيب ونافع ، فتحريمه عليهم رحمة ، وعلى غيرهم ، لم يخل من عقوبة ، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم ، كيوم الجمعة ، ووهب لهم من علمه وحلمه ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وكمل لهم من المحاسن مافرقه فى الأمم ، كما كمل لنبيهم من المحاسن مافرقه فى الأنبياء قبله ، وكمل فى كتابه من المحاسن مافرقه فى الكتب قبله ، وكذلك فى شريعته ، فهذه الأمة هم المجتبون ، كما قال إلـٰههم : ﴿ هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ وجعلهم شهداء على الناس ، قال تعالى : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ﴾ فأقامهم فى ذلك مقام الرسل الشاهدين على أممهم ، انتهى

ولا ريب أن جنس أهل الكتاب أكمل فى العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، ممن لا كتاب لهم ، وأن هذه الأمة أكمل من أهل الكتابين ، وأعدل ، فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل منهم فيها . كما قال شيخ الإسلام أبو العباس : من نظر بعقله حتى فى هذا الوقت إلى ماعند المسلمين من العلم النافع ، والعمل الصالح ، وما عند اليهود والنصارى ، علم أن بينهما من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق ، فان الذى عند المسلمين من توحيد الله ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، وملائكته وأنبيائه ورسله ، ومعرفة اليوم الآخر ، وصفة الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، أعظم وأجل مما عند اليهود والنصارى ، وما عند المسلمين من العبادات الظاهرة والباطنة مثل الصلوات الخمس وغيرها من الصلاة والأذكار والدعوات أعظم وأجل مما عند أهل الكتاب ، وما عندهم من الشريعة فى المعاملات والمناكحات ، والأحكام والحدود والعقوبات أعظم وأجل مما عند أهل الكتاب ، فالمسلمون فوقهم فى كل علم نافع ، وعمل صالح ، وهذا يظهر لكل أحد بأدنى نظر ، لا يحتاج إلى كثير سعى ، والمسلمون متفقون على أن كل هدى وخير حصل لهم ، فانما حصل نبيهم صلى الله عليه وسلم ، انتهى . فأما العلوم فالمسلمون أحذق من جميع الأمم فيها ، حتى العلوم التى ليست بدينية ، كعلم الحساب ، والطب ، ونحو ذلك هم فيها أحذق ، ومصنفاتهم فيها أكمل ، وهم أحسن علماً وبياناً لها من الأولين الذين كانت هى غاية علمهم ، وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين مرمى بنفاق ، ولا قدر له عندهم ، لكن حصل له

بما تعلمه من المسلمين من العقل والبيان ماأعانه على الحذق فى تلك العلوم ، فصار حثالة المسلمين ، أحسن معرفة وبياناً لها ، وأما العلوم الإلـٰهية فكل من نظر فى كلام المسلمين ، وأهل الكتاب ، وجد كلام المسلمين فيها أكمل وأتم ، ومعلوم أن أهل الكتاب فيها أتم من غيرهم ، وأما العبادات فالناس مختلفون فى صفاتها ، فمنهم من يظن أن الأشق هو الأفضل ، وهذا مذهب كثير من مشركى الهند ، وغيرهم ، وكثير من مبتدعة المسلمين ، ومنهم من يقول : الأفضل ماكان أدعى إلى تحصيل الواجبات العقلية ، ومنهم من يقول : الأفضل لاعلة له ، بل يرجع إلى محض المشيئة ؛ والرابع ، وهو الصواب ، أن أفضلها ماكان لله أطوع ، وللعبد أنفع ، وعلى كل قول ، فعبادات المسلمين أكمل ، أما الأولون ، فيقال لهم : الجهاد أعظم مشقة من الجوع ، والسهر ، وغير ذلك ، وأما على القول الثانى ، فلا ريب أن عبادات المسلمين أدعى إلى العدل الذى هو جماع الواجبات العقلية من عبادات غيرهم ، فانها متضمنة للظلم المنافى للعدل ، وأما على قول النفاة ، فمن تكون عباداته تابعة لأمر الله تعالى ، خير ممن عباداته قد ابتدعها أكابرهم ، وأما على القول الرابع فما علم أن الله أمر به يتضمن طاعته دون ماابتدع ، وأما انتفاع العباد بها فهذا يعرف بثمراتها ، ومن ذلك آثارها فى صلاح القلوب ، فليتدبر العاقل عقول المسلمين وأخلاقهم وعدلهم ، يظهر له الفرق ، فالصلاة فيها من الكمال والاعتدال ، كالطهارة ، والاصطفاف ، والركوع والسجود ، واستقبال بيت إبراهيم والإمساك عن الكلام ، وما فيها من الخشوع ، وتلاوة القرآن ، واستماعه

الذى يظهر الفرق بينه وبين غيره لكل متدبر منصف ، إلى أمثال ذلك مما يظهر به فضل عبادات المسلمين ، وأما حكمهم فى الحدود والحقوق ، فلا تخفى على عاقل ، حتى أن النصارى فى طائفة من بلادهم ينصبون من يقضى بينهم بشرع المسلمين ، وهذه جمل يطول تفصيلها ، وبما ذكرناه يعلم الجواب عن كلام النصرانى فى هذا الفصل على وجه الإجمال ، ويتبين به أفضلية شريعة محمد صلى الله عليه وسلم على غيرها من شرائع الأنبياء عليهم السلام ، كما أنه خيرهم وسيدهم فى الدنيا والآخرة .

فصل

وأما شريعة الضلال التى بدل بها النصارى دين المسيح عليه السلام ، فتلك ضلالة استخفهم بها الشيطان ، فأطاعوه ، ودعاهم إليها ، فأجابوه ، وتلاعب بهم فيها كل التلاعب حتى خرجوا عن مقتضى العقول والشرائع فى أصول دينهم وفروعه ، كما أشرنا إلى بعض ذلك فيما سبق ، فتلاعب بهم التلاعب [١] فى شأن الملك المعبود سبحانه وتعالى ، وتلاعب بهم فى أمر المسيح ، وتلاعب بهم فى شأن الصليب وعبادته ، وتلاعب بهم فى تصوير الصور فى الكنائس ، فلا تجد كنيسة من كنائسهم تخلو من صورة مريم ، والمسيح ، وجرجس ، وبطرس ، وغيرهم من القديسين والشهداء ، وأكثرهم يسجد للصور ، ويدعونها من دون الله ، حتى لقد كتب بطريق الأسكندرية إلى ملك الروم كتاباً يحتج فيه بالسجود للصور ، وأن الله أمر موسى أن يصور صورة الساروس ، وبأن سليمان ابن داود لما عمل الهيكل عمل صورة الساروس من ذهب ، ونصبها داخل

---

(١) فى نسخة " الشيطان ".

الهيكل ، قال فى كتابه : وإنما مثال هذا مثال الملك ، يكتب إلى بعض عماله كتاباً فيأخذه العامل ويقبله ، ويضعه بين عينيه ، ويقوم لا تعظيما للقرطاس والمداد ، بل تعظيما للملك ، كذلك السجود للصور تعظيما لاسم هذا المصور ، لا للأصباغ والألوان .

قال ابن القيم : وبهذا المثال بعينه عبدت الأصنام ، وما ذكر هذا المشرك عن موسى وسليمان لو صح لم يكن فيه دليل على السجود للصور ، وغايته أن يكون بمثابة مايذكر عن داود أنه نقش خطيئته فى كفه لئلا ينساها ، فأين هذا مما يفعله هؤلاء المشركون من التذلل والخضوع ، والسجود بين تلك الصور ، وإنما المثال المطابق لمايفعله هؤلاء المشركون مثال خادم من خدام الملك ، دخل على رجل فوثب من مجلسه ، وسجد له ، وعبده ، وفعل به مالا يصلح أن يفعل إلا مع الملك ، فكل عاقل يستجهله ويستحمقه فى فعله ، إذ قد فعل مع عبد الملك ماكان ينبغى أن يختص به الملك دون عبيده من الإكرام والخضوع والتذلل ؛ ومعلوم أن هذا إلى مقت الملك وسقوطه من عينه أقرب منه إلى إكرامه له ، ورفع منزلته ، كذلك حال من سجد لمخلوق ، ولصورة مخلوق ، لأنه عمد إلى السجود الذى هو غاية مايتوسل به العبد إلى رضا ربه ، ولا يصلح إلا له ، ففعله لصورة عبد من عبيده ، وسوّى بين الله وبين عبده فى ذلك ، وليس وراء هذا فى القبح والظلم شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، وقد فطر الله سبحانه عباده على استقباح معاملة عبيد الملك ، وخدمه بالتعظيم ، والإجلال ، والخضوع ، والذل الذى يعامل به الملك ، فكيف

بحال من فعل ذلك بأعداء الملك ، فان الشيطان عدو الله ، والمشرك إنما يشرك به لايوالى الله ورسله ، بل الله ورسوله ، وأولياءه بريئون ممن أشرك بهم ، معادون لهم ، وهم أشد الناس مقتاً لهم فى نفس الأمر ، إنما أشركوا بأعداء الله ، وسوّوا بينهم ، وبين الله فى العبادة والتعظيم والسجود والذل ، ولهذا كان بطلان الشرك وقبحه معلوماً فى الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح ، والعلم بقبحه أظهر من العلم بسائر القبائح .

والمقصود ذكر تلاعب الشيطان بالأمة الضالة فى أصول دينهم وفروعه ، وأنهم ليسوا على شيء من دين المسيح ألبتة ، فمن ذلك تلاعبه بهم فى صلاتهم ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن طوائف منهم كثيرين يصلون بالنجاسة والجنابة ، ويقوم أحدهم فيتغوط ، ويقوم بإثر البول والغائط إلى صلاته بتلك الرائحة ، ويحدث من يليه بأنواع الحديث ، كذباً كان ، أو فجوراً ، أوغيبة ، أو سباً ، أو شتما ، ويخبره بسعر الخمر ، ولحم الخنزير ، وما شا كل ذلك ، ولا يضر ذلك الصلاة ، ولا يبطلها ، وإن دعته الحاجة إلى البول فى الصلاة بال ، وهو يصلى ، ولا يضر ذلك صلاته ، والمسيح عليه السلام برىء من هذه الصلاة ، وسبحان الله أن يتقرب إليه بمثل هذه الصلاة ، فقدره أعلا ، وثناؤه أجل من ذلك ؛ ومنها صلاتهم إلى مشرق الشمس ، وهم يعلمون أن المسيح لم يصلّ إلى المشرق أصلا ، بل قد نقل مؤرخوهم أن ذلك حدث بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وإلا فالمسيح إنما كان يصلى إلى قبلة بيت المقدس ، وهى قبلة الأنبياء قبله ، وإليها كان يصلى نبينا صلى الله عليه وسلم

مدة مقامه بمكة ، وبعد هجرته ثمانية عشر شهراً . ثم نقله الله إلى قبلة أبيه إبراهيم ؛ ومنها تصليبهم على وجوههم عند الدخول فى الصلاة ، والمسيح برىء من ذلك ، فصلاة مفتاحها النجاسة ، وتحريمها التصليب على الوجه ، وقبلتها الشرق ، وشعارها الشرك ، كيف يخفى على العاقل أنها لاتأتى بها شريعة من الشرائع ألبتة ، ولما علمت الرهبان والمطارنة والأساقفة أن مثل هذا الدين تنفر عنه العقول أعظم نفرة ، زينوه بالحيل ، والصور فى الحيطان بالذهب ، واللازورد ، والزنجفر ، وبالأعياد المحدثة ، ونحو ذلك ، مما يروج على السفهاء ، وضعفاء العقول ، والبصائر .

ومن ذلك تلاعبه بهم فى صيامهم ، فإن أكثر صومهم لاأصل له فى شرع المسيح ، بل هو مختلق مبتدع ، فمن ذلك أنهم زادوا جمعة فى بدوّ صومهم يصومونها لهرقل ملك بيت المقدس ، وذلك أن الفرس لماملكوا بيت المقدس ، وقتلوا النصارى ، وهدموا الكنائس أعانهم اليهود على ذلك ، وكانوا أكثر قتلا وفتكا فى النصارى من الفرس ، فلما سار هرقل إليها استقبله اليهود بالهدايا ، وسألوه أن يكتب لهم عهداً ففعل ، فلما دخل بيت المقدس شكى إليه من فيه من النصارى ماكان اليهود صنعوه بهم ، فقال لهم هرقل : وما تريدون منى ؟ قالوا : تقتلهم ، قال : كيف أقتلهم ، وقد كتبت لهم عهداً بالأمان ، وأنتم تعلمون مايجب على ناقض العهد ؟ فقالوا : إنك حين أعطيتهم الأمان لم تدر مافعلوا من قتل النصارى وهدم الكنائس ، ونحن نحتمل عنك هذا الذنب ، ونكفره ، ونسأل المسيح أن لايؤاخذك به ، ونجعل لك جمعة كاملة فى بدء الصوم نصومها لك ،

ونترك فيها أكل اللحم مادامت النصرانية، ونكتب به إلى جميع الآفاق ، غفراناً لما سألناك ، فأجابهم ، وقتل اليهود ، لمالا يحصى كثرة ، فصيّروا أول جمعة من الصوم الذى تترك فيه الملكية أكل اللحم يصومونها لهرقل الملك ، غفراناً لنقضه العهد ، وقتل اليهود، وكتبوا بذلك إلى الآفاق ، وكذلك لما أرادوا نقل ذلك الصوم إلى فصل الربيع المعتدل ، وتغيير شريعة المسيح ، زادوا فيه عشرة أيام عوضاً وكفارة لنقلهم له .

ومن ذلك ما أحدثوه من الأعياد الباطلة المخترعة ، فان أعيادهم كلها مختلقة محدثة بآرائهم واستحسانهم ، فمن ذلك عيد ميكائيل ، وسببه أنه كان بالأسكندرية صنم ، وكان جميع من بمصر والأسكندرية يعيدون له عيداً عظيما ، ويذبحون له الذبائح ، فولى بتركة الأسكندرية واحد منهم ، فأراد أن يكسره ، ويبطل الذبائح ، فامتنعوا عليه ، فاحتال عليهم ، فقال : إن هذا الصنم لاينفع ولا يضر ، فلو جعلتم هذا العيد لميكائيل ملك الله ، وجعلتم هذه الذبائح له ، كان يشفع لكم عند الله ، وكان خيراً لكم من هذا الصنم ، فأجابوه إلى ذلك ، فكسر الصنم ، وصيره صلبانا ، وسمى الكنيسة كنيسة ميكائيل ، ثم احترقت الكنيسة وخربت ، وصيروا العيد والذبائح لميكائيل ، فنقلهم من كفر إلى كفر ، ومن شرك إلى شرك ، فكانوا فى ذلك كمجوسيٍّ أسلم ، فصار رافضياً ، فدخل عليه الناس يهنئونه ، ودخل عليه رجل ، وقال : إنك إنما انتقلت من زاوية من النار ، إلى زاوية أخرى ، ومن ذلك عيد الصليب ، وهو مما اختلقوه وابتدعوه ، فان ظهور الصليب إنما كان بعد المسيح بزمن كثير ، وكان الذى أظهروه زوراً وكذباً ، أخبرهم

به بعض اليهود أن هذا هو الصليب الذى صلب عليه إلـٰههم وربهم ، فانظروا إلى هذا السند ، وهذا الخبر ، فاتخذوا ذلك الوقت الذى ظهر فيه عيداً ، وسموه عيد الصليب ، ولو أنهم فعلوا مافعل أشباههم من الرافضة ، حيث اتخذوا وقت مقتل الحسين مأتماً وحزنا ، لكان أقرب إلى العقول .

قال ابن القيم : وكان من حديث الصليب أنه لما صلب المسيح على زعمهم الكاذب ، وقتل ، ودفن ، ورفع من القبر إلى السماء كان التلاميذ كل يوم يصيرون إلى القبر ، وإلى موضع الصليب ويصلون ، فقالت اليهود : إن هذا الموضع لايخفى، وسيكون له نبأ ، وإذا رأى الناس القبر خالياً آمنوا به ، فطرحوا عليه التراب والزبل ، حتى صار مزبلة عظيمة ، فلما كان فى أيام قسطنطين الملك جاءت زوجته إلى بيت المقدس تطلب الصليب ، فجمعت من اليهود الساكنين ببيت المقدس ، والخليل مائة رجل ، واختارت منهم عشرة ، واختارت من العشرة ثلاثة : اسم أحدهم ، يهودا ، فسألتهم أن يدلوها على الموضع ، فامتنعوا ، وقالوا : لاعلم لنا بالموضع ، فطرحتهم فى الحبس فى جب لاماء فيه ، فأقاموا سبعة أيام لايطعمون ولا يسقون ، فقال يهودا لصاحبيه : إن أباه عرفه بالموضع الذى تطلب ، فصاح الاثنان ، فأخرجوهما ، فأخبراها بما قال يهودا ، فأمرت بضربه بالسياط ، فأقرّ ، وخرج إلى الموضع الذى فيه المقبرة ، وكان مزبلة عظيمة ، فصلى ، وقال : اللهم أسألك إن كان فى هذا الموضع أن يتزلزل ، ويخرج منه دخان ، فتزلزل الموضع ، وخرج منه دخان ، فأمرت الملكة بكنس الموضع من التراب ، فخرجت المقبرة ،

وأصابوا ثلاثة صلبان . فقالت الملكة : كيف لنا أن نعلم صليب سيدنا المسيح ؟ وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة ، قد أيس منه ، فوضع الصليب الأول عليه ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، فأفاق عند الثالث ، واستراح من علته ، فعلمت أنه صليب المسيح ، فجعلته فى غلاف من ذهب ، وحملته إلى قسطنطين ، وكان من ميلاد المسيح إلى ظهور هذا الصليب ثلاثمائة وثلاثة وعشرين سنة ؛ هذا كله نقل سعيد بن بطريق النصرانى فى "تاريخه" .

والمقصود : أنهم ابتدعوا هذا العيد بنقل علمائهم بعد المسيح بهذه المدة .

وبعد : فسند هذه الحكاية من بين يهودى ونصرانى مع انقطاعها ، وظهور الكذب فيها لمن له عقل من وجوه كثيرة ، ويكفى فى كذبها ، وبيان اختلافها أن ذلك الصليب الذى شفى العليل كان أولى أن لا يميت الإلـه . الرب المحيي المميت ؛ ومنها أنه إذا بقى تحت التراب خشب ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة ، فانه ينخر ويبلى لدون هذه المدة ، فان قال عباد الصليب : إنه لما مس جسم المسيح حصل له الثبات والقوة والبقاء ، قيل لهم : فما بال الصليبين الباقيين لم يتفتتا واشتبها به ؟ فلعلهم يقولون : لما مست صليبه مسها البقاء والثبات ، وجهل القوم وحمقهم أعظم من ذلك ، والرب سبحانه لما تجلى للجبل تدكدك الجبل ، وساخ فى الأرض ، ولم يثبت لتجليه ، فكيف تثبت الخشبة لركوبه عليها فى تلك الحال ؟ فلقد صدق القائل : إن هذه الأمة عار على بنى آدم أن يكونوا منهم ، فان كانت هذه الحكاية صحيحة فما أقربها من حيل اليهود التى تخلصوا بها من الحبس

والهلاك ، وحيل بنى آدم تصل إلى أكثر من ذلك بكثير ، ولاسيما لما علم اليهود أن ملكة دين النصرانية قاصدة إلى بيت المقدس ، وأنها تعاقبهم حتى يدلوها على موضع القتل والصلب ، وعلموا أنهم إن لم يفعلوا لم يتخلصوا من عقوبتها ؛ ومنها أن عباد الصليب يقولون : إن المسيح لما قتل غار دمه ، ولو وقع منه قطرة على الأرض ليبست ، ولم تنبت ، فيا عجباً كيف يحي الميت ، ويبرىء العليل بالخشبة التى صلب عليها ، وسموا هذا كله من بركتها وفرحها به ، وهو مشدود عليها يبكى ويستغيث ؟!! ولقد كان الأليق أن يتفتت الصليب ، ويضمحل لهيبة من صلب عليه ، وتخسف الأرض بالحاضرين عند صلبه ، والمتماثلين عليه ، بل تفطر السموات والأرض ، وتخر الجبال هداً .

ثم يقال لعباد الصليب : لايخلو أن يكون المصلوب الناسوت وحده أو مع اللاهوت ، فإن كان المصلوب هو الناسوت وحده فقد فارقته الكلمة ، وبطل اتحادها به ، وكان المصلوب جسداً من الأجساد ، ليس بإلـٰه ، ولا فيه شيء من الإلـٰهية والربوبية ألبتة ، وإن قلتم : إن الصلب وقع على اللاهوت والناسوت معاً ، فقد أقررتم بصلب الإلـٰه وقتله وموته ، وقدرة الخلق على أذاه ، وهذا أبطل الباطل وأمحل المحال ، فبطل تعلقكم بالصليب من كل وجه ، عقلا ، وشرعاً .

ومن العجب أنهم يقرأون فى التوراة : ملعون من تعلق بالصليب ، وهم قد جعلوا شعار دينهم مايلعنون عليه ، ولوكان لهم أدنى مسكة من عقل لكان الأولى أن يحرقوا الصليب حيث وجدوه ويكسروه ويلطخوه

بالنجاسة ، فإنه قد صلب عليه إلـٰههم ومعبودهم بزعمهم ، وأُهين عليه وفضح ، فياللعجب بأى وجه بعد هذا يستحق الصليب التعظيم ، لولا أن القوم أضل من الأنعام ، فلو عقلوا لكان ينبغى أن لايحملوا صليباً ، ولا يمسوه بأيديهم ، ولايذكروه بألسنتهم ، وإذا ذكر لهم سددوا مسامعهم من ذكره ، ولقد صدق القائل : عدو عاقل ، خير من صديق أحمق ، لأنهم بحمقهم قصدوا تعظيم المسيح فاجتهدوا فى ذمه ، وتنقّصه والازدراء به ، والطعن عليه ، وكان مقصودهم بذلك التشنيع على اليهود ، وتنفير الناس عنهم ، وإغرائهم بهم ، فنفروا الأمم عن النصرانية ، وعن المسيح ودينه أعظم تنفير .

وقد قال بعض عقلائهم : إن تعظيمنا للصليب جار مجرى تعظيم قبور الأنبياء ، فإنه كان قبر المسيح ، إذ هو عليه . ثم لما دفن صار قبره فى الأرض ، وليس وراء هذا الحمق والجهل حمق ، فإن السجود إلى قبور الأنبياء وعبادتها شرك ، بل من أعظم الشرك ، وقد لعن إمام الحنفاء ، وخاتم الأنبياء اليهود والنصارى ، حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وأصل الشرك ، وعبادة الأصنام من العكوف على القبور ، واتخاذها ، ثم يقال : فأنتم تعظمون كل صليب ، لاتخصون التعظيم بذلك الصليب بعينه ؛ فإن قلتم الصليب من حيث هو ، يذكر بالصليب الذى صلب عليه إلـٰهنا ؛ قيل : وكذلك الحفر ، تذكر بحفرته ، فعظموا كل حفرة ، واسجدوا لها ، لأنها كحفرته أيضاً ، بل أولى ، لأن خشبة الصلب لم يستقر عليها استقراره فى الحفرة ، ثم يقال : اليد التى مسته أولى أن تعظم من

الصليب ، فعظموا أيدى اليهود ، لمسهم إياه ، وإمساكهم له ، ثم انقلوا ذلك التعظيم إلى سائر الأيدى ، فإن قلتم : منع من ذلك مانع العداوة : قلنا : فعندكم : إنه هو الذى رضى بذلك واختاره ، ولو لم يرض به لم يصلبوه إليه ، فعلى هذا ، فينبغى لكم أن تشكروهم ، وتحمدوهم ، إذ فعلوا موجب رضاه واختياره الذى كان سبب خلاص جميع الأنبياء والمؤمنين والقديسين من الجحيم ، ومن سجن إبليس ، فما أعظم منة اليهود عليكم ، وعلى آبائكم ، وعلى سائر النبيين من لدن آدم إلى زمن المسيح .

والمقصود أن هذه الأمة جمعت بين الشرك وعيب الإلٰه وتنقصه ، وتنقص نبيهم وعيبه ، ومفارقة دينه بالكلية ، فلم يتمسكوا بشيء كان عليه المسيح ، لا فى صلاتهم ، ولا صيامهم ، ولا أعيادهم ، بل هم فى ذلك أتباع كل ناعق ، مستجيبون لكل مخرق ، ومبطل ، إذ أدخلوا فى الشريعة ماليس فيها ، وتركوا ماأتت به .

وإذا شئت أن ترى العبر فى دينهم ، فانظر ماأشرنا إليه من صيامهم الذى وضعوه لملوكهم وعظمائهم ، فلهم صيام للحواريين ، وصيام لمار مريم ، وصيام لمار جرجس ، وصيام الميلاد ، وتركهم أكل اللحم فى صيامهم مما أدخلوه فى دين المسيح ، وإلا فهم يعلمون أن المسيح كان يأكل اللحم ، ولم يمنعهم منه فى صوم ، ولا فطر ، وأصل ذلك أن المانوية كانوا لايأكلون ذا روح ، فلما دخلوا فى النصرانية خافوا أن يتركوا أكل اللحم ، فيقتلوا ، فشرعوا لأنفسهم صياما للميلاد والحواريين ومار مريم ، وتركوا فى هذا الصوم أكل اللحم محافظة على مااعتادوه من

مذهب مانى ، فلما طال الزمن تبعهم على ذلك النسطورية واليعقوبية ، فصارت سنة متعارفة بينهم ، ثم تبعهم على ذلك الملكانية .

قال ابن القيم : ثم إنك إذا كشفت عن حالهم وجدت أئمة دينهم قد نصبوا حبائل الحيل ليقتنصوا بها عقول العوالم ، ويتوصلوا بالتمويه والتلبيس إلى استمالتهم وانقيادهم لهم ، واستدرار أموالهم ، وذلك أشهر وأكثر من أن يذكر .

فمن ذلك مايعتمدونه فى العيد الذى يسمونه عيد النور ، ومحله ببيت المقدس ، فيجتمعون من سائر النواحى فى ذلك اليوم ، ويأتون إلى بيت فيه قنديل معلق لانار فيه ، فيتلوا أحبارهم الإنجيل ، ويرفعون أصواتهم ، ويبتهلون فى الدعاء ، فبينما هم كذلك ، وإذا نار قد نزلت من سقف البيت ، فتقع على ذبالة القنديل فيشرق ويضىء ويشعل ، فيصيحون صيحة واحدة ، ويصلبون على وجوههم ، ويأخذون فى البكاء والشهيق .

قال أبو بكر الطرطوشى : كنت ببيت المقدس ، وكان واليها إذ ذاك رجل يقال له : سقمان ، فلما انتهى إليه خبر هذا العيد أنفذ إلى بتاركتهم ، وقال : أنا نازل إليكم فى هذا اليوم لأكشف عن حقيقة ماتقولون ، فان كان حقاً ، ولم يتضح لى وجه الحيلة أقررتكم عليه ، وعظمته معكم ، وإن كان مخرفة على عوامكم أوقعت بكم ماتكرهون ، فصعب ذلك عليهم جداً ، وسألوه ، أن لايفعل ، فأبى ، وألح فى ذلك ، فحملوا له مالا عظيما ، فأعرض عنهم ؛ قال الطرطوشى : ثم اجتمعت بأبى محمد بن الأقدم بالاسكندرية ، فحدثنى أنهم يأخذون خيطاً دقيقاً من نحاس ، وهو الشريط ،

ويجعلونه فى وسط قبة البيت إلى رأس الفتيلة التى فى القنديل ، ويدهنونه بدهن البلسان ، والبيت مظلم ، بحيث لايدرك الناظرون الخيط النحاس ، وقد عظموا ذلك البيت ، فلا يمكنون أحداً من دخوله ، وفى رأس القبة رجل ، فاذا قسسوا ، ودعوا ، ألقى على ذلك الخيط النحاس شيئاً من نار النفط فتجرى النار مع دهن البلسان إلى آخر الخيط النحاس ، فيلقى الفتيلة فيتعلق بها ، فلو نضح أحد منهم نفسه ، وفتش على نجاته لتتبع ذلك ، وطلب الخيط النحاس ، وفتش رأس القبة ليرى الرجل والنفط ، ويرى أن منبع ذلك النور من ذلك المخرق الملبس ، وأنه لو نزل من السماء لظهر من فوق ، ولم يكن ظهوره من الفتيلة .

ومن حيلهم أيضاً أنه كان بأرض الروم فى زمن المتوكل كنيسة إذا كان يوم عيدها يحج الناس إليها ، ويجتمعون عند صنم فيها ، فيشاهدون ثدى ذلك الصنم ، فى ذلك اليوم ، يخرج منه اللبن ، فكان يجتمع للسادن فى ذلك اليوم مال عظيم ، فبحث الملك عنها فانكشف له أمرها ، فوجد القيم قد ثقب من وراء الحائط ثقباً إلى ثدى الصنم ، وجعل فيه أنبوبة من نحاس ، وأصلحها باللجين ليخفى أمرها ، فاذا كان يوم العيد فتحها ، وصب فيها اللبن ، فيجرى إلى الثدى ، فيقطر منه ، فيعتقد الجهال أن هذا سر فى الصنم ، وأنه علامة من الله لقبول قربانهم ، وتعظيمهم له ، فلما انكشف له ذلك أمر بضرب عنق السادن ، ومحو الصور من الكنائس ، وقال : إن هذه الصور مقام الأصنام ، فمن سجد للصور فهو كمن سجد للأصنام ، ولقد كان من الواجب على ملوك الإسلام أن يمنعوا هؤلاء من هذا

وأمثاله ، لما فيه من الإعانة على الكفر ، وتعظيم شعائره ، فالمساعد على ذلك ، والمعين عليه شريك للفاعل ، ولكن لما هان عليهم دين الإسلام ، وكان السحت الذى يأخذونه أحب إليهم من الله ورسوله ، أقروهم على ذلك ، ومكنوهم منه .

والمقصود أن رهبان النصارى وأساقفتهم لما علموا أن دينهم مما تنفر منه العقول أعظم نفرة ، وضعوا لهم من الحيل والمخارق ماروجوا به على السفهاء وضعفاء البصائر ، واستمالوا به الجهلة إلى التمسك بالنصرانية ، وساعدهم ماعليه اليهود من القسوة والغلظة والمكر والكذب والبهت ، وما عليه كثير من المسلمين من الظلم والفواحش والفجور والبدع والغلو فى المخلوق حتى يتخذه إلـٰهاً من دون الله ، واعتقاد كثير من الجهال أن هؤلاء من خواص المسلمين وصالحيهم ، فتركب من هذا ، وأمثاله تمسك القوم بما هم عليه من رؤيتهم أنه خير من كثير مما عليه المنتسبون إلى الإسلام من البدع والفجور ، والشرك والفواحش ، ولو أنهم تمسكوا بسنة محمد صلى الله عليه وسلم واقتفوا آثاره ، وتركوا البدع والمحدثات ، واقتدوا بالسلف الصالح من هذه الأمة ، لكان ذلك من أعظم الدواعى إلى الدخول فى الإسلام ، ولهذا لما رأى النصارى الصحابة وما هم عليه آمن أكثرهم اختياراً وطوعا ، وقالوا : ماالذى صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

قال ابن القيم : ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيراً من أهل الكتاب إلى الإسلام ، فأخبروا أن المانع لهم مايرون عليه المنتسبين إلى الإسلام من

البدع والظلم والفجور، والمكر والاحتيال، ونسبة ذلك إلى الشرع، فساء ظنهم بالشرع، وبما جاء به، فالله طليب قطاع الطريق، وحسيبهم.

فهذه إشارة يسيرة جداً إلى تلاعب الشيطان بالأمة الصليبية. تدل على مابعدها، ويعتبر بها العاقل من وجوه: منها ظهور شرف دين الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فيعلم ذو العقل السليم أنه الحق من ربنا، لاما ابتدعه الضُّلال، واخترعوه من الباطل والمحال، إذ من عرف الباطل، وما اشتمل عليه من القبائح ظهرت له فضيلة الحق، وما فيه من المحاسن، فبضدها تتبين الأشياء؛ ومنها أن يعلم الموقن بالله وربوبيته لهذا العالم أنه لايدع الخلق فى هذه الضلالات، وارتكابهم لأقبح الجهالات، من غير إقامة الحجة ببعثة الرسول وبلوغ الإنذار، فكان هذا من أعظم الأدلة على صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث جاء بالدين القويم، والصراط المستقيم، كما قال الله تعالى: ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وإذا عرف ماقدمناه، فنذكر الجواب على إفراد المسائل التى ذكرها النصرانى.

فصـــل

قال النصرانى: إنما المسيحيون قد أمروا بالصبر والإحسان حتى للمبغضين لهم، وأما المسلمون أمروا بالقصاص وأخذ الثأر.

الجواب، وبالله التوفيق: إن الذى شرعه الله للمسلمين فى هذا الباب أكمل وأجلّ مما عند غيرهم، فانه تعالى أذن لهم فى القصاص من المعتدى،

وجعله حقاً واجباً للمظلوم ، وشرع التمكين له من أخذ حقه ، ولم يوجب ذلك عليه ، بل ندبه إلى الفضل والصبر ، فقال تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ وقال تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح ، فأجره على الله ، إنه لايحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق ، فأولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ فشرع تعالى العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل ، وهو العفو وعد عليه الأجر ، ولهذا قال : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أى لايضيع ذلك عنده ، وقال تعالى : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم ﴾ ، وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مازاد الله عبداً يعفو إلا عزاً » فى أحاديث كثيرة فى الترغيب فى العفو ، والحث عليه ، وكان صلى الله عليه وسلم أول متصف بهذا الوصف الجميل ، ولا خفاء عند نقلة أخباره بما يؤثر من حلمه واحتماله ، وعفوه ، كما عفا صلى الله عليه وسلم عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل ليقتلوه ، فلما قدر عليهم عفا عنهم مع قدرته على الانتقام ، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث الذى أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم ، فاستيقظ صلى الله عليه وسلم وهو فى يده صلتاً ، فقال : من يمنعك منى ، قال : الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذه النبي

صلى الله عليه وسلم ، فقال : من يمنعك منى ، فقال : كن خير آخذ فتركه ، وعفا عنه ، فأتى قومه ، وقال : جئتكم من عند خير الناس ، وعفا أيضاً عن لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحره ، ولم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه عن المرأة اليهودية ، وهى زينب أخت مرحب اليهودى التى سمت الذراع يوم خيبر ، فأخبره الذراع بذلك ، فدعاها ، فاعترفت ، فقال : « ماحملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك ، ولكن لما مات بشر بن البراء من أكله من تلك الشاة المسمومة قتلها به ، والأخبار بحلمه واحتماله وعفوه كثيرة جداً ؟ .

فصـــل

قال النصرانى : وأمر المسيحيون بإثبات عقدة التزويج ، واحتمال الزوجين أخلاق بعضهما بعضاً ، أما المسلمون أجيز لهم نقضها بالطلاق .

ونقول : لاريب أن الذى شرع الله للمسلمين من ذلك أكمل وأليق بالحكمة ، فان تحريم الطلاق يفضى كثيراً إلى ضرر الزوجين ، فإنه قد لايلائم خلقها خلقه ، فتقع النفرة بينهما ، والبغض من كل منهما للآخر ، ويحصل الشقاق فيبقيان عمرهما فى نكد العيش ، ففى إباحة الطلاق الخلاص من هذا الضرر ، وأيضاً فإنه وإن لم يحصل شقاق ، فقد يحتاج إلى فراقها لمصلحة الاستبدال بأوفق منها ، أو لكونها عاقراً لاتلد ، فيستبدل بها ولوداً ، ويعرض لها مايمنع مقصود الاستمتاع ، بحيث لو منع الاستبدال بغيرها فات مقصود النكاح ، ومصالحه ، إلى غير ذلك من

الأسباب المقتضية لفراق الزوجة ، فأباح الله تعالى للزوج طلاقها تحصيلا للمصلحة الراجحة له ، وتبقى هى مباحة للأزواج ، فتتم المصلحة لكل منهما ، وهذا هو اللائق برحمة الله بخلقه ، وحكمته فى شرعه وأمره ، وقد قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيما ﴾ فإن لم يكن حاجة إلى الطلاق ، فهو مكروه ، لما فيه من تفويت المصالح المترتبة على النكاح من غير سبب يدعو إليه ، وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، رواه الدارقطنى .

فصل

قال النصرانى : والمسيحيون ، فعندهم يجب على الرجل أن يفعل لامرأته مايريد أن تفعل له ، ويصير لها أسوة فى الاقتصار على حبه وحده ؛ وأما المسلمون أحل لهم تكثير النساء الذى يزداد فيه الشره فى النكاح .

الجواب ، وبالله التوفيق : أن نقول : ماشرعه الله تعالى للمسلمين فى عدد الزوجات مطابق للحكمة ، فإنه جاء وسطاً بين الإكثار منهن المفضى إلى تفويت الحقوق الواجبة لهن ، وتحمل الرجل مالا طاقة له به من أعباء حقوق الزوجية ، وبين الإقلال الذى قد تفوت معه مصلحة كمال الاستمتاع ، وكثرة الأولاد ، والتمتع بنعمة الله ، التى امتنّ بها على عباده ، فأباح تعالى للرجل أن ينكح أربعاً إن قدر على القيام بحقوقهن ، والعدل فيهن ، وأمره بالاقتصار على واحدة إن خاف أن لايعدل ،

فقال تعالى : ﴿ فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ، ذلك أدنى أن لاتعولوا ﴾ .

والمقصود أن فى إباحة العدد من الزوجات حِكماً عظيمة ، ومصالح جمة ، فمنها : أن الرجل قد لاتكفيه الواحدة لفضل ماأعطى من القوة على النكاح ، أو لما يترتب له على التعدد من المصالح المطلوبة ، فأبيح له العدد المذكور من الزوجات ، وما شاء من السرارى ، إتماماً لنعمة الله عليه ، وتحصيناً لفرجه ؛ ومنها أنه قد يعرض للمرأة مايمنع استمتاعه بها من حيض ، أو نفاس ، أو مرض ، أو غيبتها عنه لعذر ، أو سفره عنها ، فأبيح له التعدد لتحصيل المصلحة ، وإتمام الإحصان ؛ ومنها أن المرأة قد تكون عاقراً لاتحبل ، أو يعرض لها مايقطع الحبل من كبر أو مرض ، وهو يؤثر إمساكها ، وأن لايفارقها ، فلو اقتصر عليها فاته الولد ، وهم من النعم العظيمة ، وفيه تكثير الأمة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم » ؛ ومنها أن فى إباحة العدد مصلحة تعود على جنس النساء ، فإنهن غالباً أكثر من الرجال ، ففى إباحة التعدد من مصلحة إحصانهن ، والقيام عليهن ، مايفوت كثير منه لوضع التعدد ، وأما مايحصل للمرأة من مشقة الغيرة بتزويج غيرها ، فذلك لايوازى تلك المصالح ، ولا يقارب

وأيضاً فإن للرجال مزيد فضل على النساء بتفضيل الله لهم ، وبما أوجب عليهم فى أموالهم من الإنفاق على النساء ، والقيام بهن ، فناسب

ذلك ، وإن قصرت عليه أن يوسع له فى قضاء وطره بغيرها إذا أحب ذلك، ولم يقصر عليها .

وأما كون كثرة النساء يزداد فيه الشره فى النكاح ، فقد قدمنا الكلام على فضيلة النكاح بما أغنى عن إعادته ، وما ترتب عليه الزيادة فى الفضيلة ، فهو فضيلة ، ولهذا استكثر النبى صلى الله عليه وسلم منهن ، وأبيح له من العدد مالم يبح للأمة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير هذه الأمة أكثرها نساءاً .

وبالجملة إذا اعتبرت ماشرعه الله تعالى لهذه الأمة فى هذا الباب وجدته على أحسن وجوه الحكمة ، وأكمل طرائق المصلحة ، كما هو كذلك فى كل باب فلله الحمد .

فصل

قال النصرانى : وعند المسيحيين أصل للدين موضوع فى القلب أن يصلح ، ويثمر بما ينتفع به أبناء الجنس كلهم ، وأما عند المسلمين فمعظمه فى الختانه ، والوضوء ، وغيرهما من الأشياء التى من ذواتها لاتنفع ولا تضر ، هذا كلامه .

ونقول : لعمر الله إنه كلام فى غاية السخافة والجهالة والكذب ، فان مبنى دين الإسلام على مافيه غاية صلاح القلب وفلاحه وحياته ، وهو إخلاص العبودية لله ، وصدق المحبة له ، وتحقيق التوكل عليه ، والخوف منه ، والرجاء له ، والاستعانة به . والرضا عنه ، والصبر

والتفويض ، وغير ذلك من منازل العبودية ، وكذلك الإيمان بالأصول التى جاءت بها الرسل ، واتفقت عليها ملل الأنبياء من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وغير ذلك من أصول الإيمان الثابتة فى القلب ، والأعمال الباطنة التى لاتنفع الأعمال الظاهرة بدونها ، قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ، ومغفرة ، ورزق كريم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ، وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ وقال تعالى : ﴿ الم ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، الذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وماأنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ، ويتقه ، فأولئك هم الفائزون ﴾ إلى غير ذلك من نصوص القرآن فى الوصية بهذه الأصول ، والحث عليها ، ومدح من اتصف بها ، إلى مايتبع أعمال القلب من الأعمال الظاهرة

التى مقصودها صلاح القلب ، ورعاية حياته ، وإيقاعها على وجهها من ثمرات صلاحه ، فافترض تعالى الصلوات الخمس المشتملة على توحيد الله تعالى والتأله إليه ، والخضوع له ، رهبة منه ، والابتهال إليه ، رغبة فيه ، ولهذا جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قام أحدكم إلى صلاته ، فانما يناجى ربه ، فلينظر أحدكم بم يناجيه » ، وجعل من شروطها رفع الحدث ، وإزالة النجاسة لتتم النظافة للقاء ربه ، والطهارة لأداء فرضه ، ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ، ليتدبر مافيه من أوامره ونواهيه ، ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه ، ثم علقها بأوقات راتبة ؛ وأزمان مترادفة ، ليكون ترادف زمانها ، وتتابع أوقاتها سبباً لاستدامة الخضوع ، والابتهال إليه ، وأن لاتنقطع الرهبة منه ، ولا الرغبة فيه ، وبهذا تنفتح أبواب المعارف فى القلب ، ويحصل له غاية الصلاح ، ونهاية الفلاح ، وكذلك فريضة الزكاة ، والنفقات من الأموال ، ففيه من تمرين النفس على السماحة المحمودة ، ومجانبة الشح المذموم ، ومواساة الفقراء ، ومعونة ذوى الحاجات ، وظهور إيثار المنفق رضا مولاه ببذل مايحبه من المال ، وكذلك الصيام الذى فيه رياضة النفس ، وصفاء القلب ، وهو سر بين العبد وبين ربه ، وفيه حث على رحمة الفقراء ، وإطعامهم ، وسد جوعتهم ، لما قد عاناه الصائم من شدة المجاعة فى صومه ، وفيه من قهر النفس وإذلالها ، وكسر الشهوة المستولية عليها ، وإشعار النفس ماهى عليه من الحاجة إلى الطعام والشراب ، ماهو من أعظم صلاح القلب ، ومعرفته بربه ، وفاطره ، الغنى بذاته عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه ، ولهذا احتج الله تعالى على

من اتخذ عيسى وأمه إلـٰهين من دونه، بقوله تعالى: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة،كانا يأكلان الطعام ﴾ فجعل حاجتهما إلى الطعام نقصاً فيهما عن أن يكونا إلـٰهين، وكذلك الحج، وما فيه من تحمل المشاق امتثالا للأمر فى قضاء المناسك فى تلك المواطن الفاضلة، وفيه تذكير بيوم المحشر فى مفارقة المال والأهل، وخضوع العزيز والذليل بين يدى الله، واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة منه، والرغبة إليه، وإقلاع أهل المعاصى عما اجترحوه، وندم المذنبين على ماأسلفوه، كما قال بعض العلماء: قلّ من حج إلا أحدث توبة من ذنب، وإقلاعاً عن معصية، ولذلك قيل: من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيراً منه قبلها، ثم نبه بما يعانيه من مشاق السفر المؤدى إليه على مواضع النعمة برفاهة الإقامة، ونسية الأوطان. ليحنوا بما سلف من هذه النعمة على أبناء السبيل، ثم علم بمشاهدة حرم الله الذى أنشأ منه دينه، وبعث منه رسوله، ثم بمشاهدة دار الهجرة التى أعز الله بها أهل طاعته، وأذل بنصرة نبيه بها أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتكبرين، وتذلل له زعماء المتجبرين، أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع، ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الأرض شرقا وغرباً، إلا بمعجزة ظاهرة، ونصر عزيز، يدل على عناية الله بهذه الشريعة، وأنها من عنده، وكذلك الجهاد، ومافيه من بذل النفس، وإنفاق النفيس، طاعة لله وامتثالا لأمره؛ وكذلك أنواع العدل والإحسان، والبر والصلة، وكذلك الأقوال الطيبة من تلاوة كتاب الله، وإكثار ذكره واستغفاره، وتحصيل

التوبة التي هي أحب شيء إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الأعمال الباطنة والظاهرة، التي مقصودها صلاح القلب، وصفاؤه. ونماء الإيمان، والمعرفة فيه، فان أصل الدين في الحقيقة هي الأمور الباطنة من العلوم، والأعمال، فلا تنفع الأعمال الظاهرة بدونها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد في "مسنده": «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»؛ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فاذا خبث الملك خبثت جنوده، وإذا كان الأمر ماذكرنا بعض وصفه، فكيف يقال: إن معظم دين الإسلام في الختانة، والوضوء، ونحوهما؟! وما هذه الوقاحة والجرأة بالكذب البحت، والجهل الصرف؟! وليس هذا بكثير على من فسد عقله، وانتكست فطرته حتى سب خالقه، وفاطره، أعظم مسبة، وتنقصه أسوأ تنقص بالشرك به، ودعوى الولد له، وكفر برسله، وأنبيائه، ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله، وكذب بالصدق إذ جاءه، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾، وأما الختان والوضوء، وتطهير النجاسات، ورفع

الأحداث ، فهو من محاسن الشريعة ، فان بالتوحيد وتوابعه طهارة الباطن ، وبالوضوء ونحوه طهارة الظاهر ، فيجمع العبد فى عبادة ربه بين الطهارتين ، ويقوم بين يديه على أحسن الهيئات ، وأكمل الأحوال ، وكان ماجاءت به الشريعة المحمدية من ذلك وسطاً بين جفاء النصارى ، وغلو اليهود ، كما تقدمت الإشارة إليه ؛ وقد أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامنكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، فيقول : أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » فهذا فيه الإتيان بالشهادتين المتضمنتين طهارة القلب بعد الوضوء الذى هو طهارة الظاهر ، لتتم له الطهارتان : الظاهرة ، والباطنة ، وهذا غاية الكمال ، وفى الختان من الطهارة والنظافة ماهو اللائق بحكمة الله فى شرعه ، فان الأقلف يحمل النجاسة ، ولا يمكنه الاستبراء من البول ، فشرع الختان تحصيلا للطهارة ، وتكميلا للعبادة ، وتعظيما للمعبود ، وهو من الحنيفية ملة إبراهيم ، وجاءت التوراة بتقريره ، والأمر به ، ولم تنسخه شريعة الإنجيل ، وإنما إبطاله من تغيير الأمة الضالة لدين المسيح فى زمن قسطنطين ، كما قدمنا ذكره .

وقد اعترف هذا النصرانى أن المسيح عليه السلام اختتن على سنة التوراة ، وليس معهم فى إبطال الختان حجة ألبتة ، بل قد ذكر هو نص التوراة من الفصل السابع عشر من السفر الأول ، منها أن الله قد قال لإبراهيم : أعطى لك ولنسلك بعدك بلده سكناك ، وهى جميع أرض

كنعان حوزاً مؤبداً ، وأكون لكم إلـٰهاً وأنت عهدى تحفظ أنت ونسلك بعدك لأجيالهم ، هذا عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم ، وبين نسلك من بعدك : أن يختتن كل ذكر منكم " ، فما معنى هذا النص ؟ أليس صريحاً فى أن شرع الختان ثابت على ذرية إبراهيم ، وأتباعه ، فكيف يجعلون من شريعة المسيح إبطال الختان ، وقد حتم عليهم ، وأبّد حكمه ، وإنما حملهم على ذلك متابعة دين قسطنطين ، وأضرابه من المبدلين ، ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ .

فصـــل

قال النصرانى : والمسيحيون أحل لهم استعمال المآكل ، وشرب الخمر على وجه الاعتدال ، أما المسلمون قد حرم عليهم أكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، مع أنه نعمة عظيمة من الله تنفع بها النفس والجسم ممن يستعمله بالاعتدال .

الجواب ، وبالله التوفيق : قد تقدم أن ماحرم الله على المسلمين ، فمصدره من رحمة الله بهم ، وحميته لهم ، فانه تعالى أحل لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، كما قال تعالى فى صفة رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ﴾ والطيب والخبث وصف قائم بالأعيان ، ليس المراد به مجرد التذاذ الأكل وعدمه ، أو التذاذ طائفة من الأمم لامن العرب ، ولا غيرهم ، على القول الصحيح ، فالخبث القائم بالعين هو علة التحريم ، فحرم الله تعالى أكل الخبائث صيانة لعباده عن ملابسة الخبيث ، والاغتذاء به ، قال أهل العلم : لأن الغذاء يصير جزءاً من جوهر المغتذى ، ولا بد وأن يحصل للمغتذى أخلاق وصفات من جنس

ما كان حاصلا فى الغذاء ، كما حرم الله تعالى الدم المسفوح ، لأنه بجمع قوى النفس الشهوانية الغضبية ، فيكتسب به المغتذى به كيفية توجب طغيان هذه القوى ، وهو مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » وكما حرم النبى صلى الله عليه وسلم كل ذى ناب من السباع ، ومخلب من الطير ، لأنها عادية باغية ، فإذا أكلها الناس صار فى أخلاقهم شوب من أخلاق هذه البهائم ، وهو البغى والعدوان ، وهكذا سائر المحرمات ، ومن ذلك الخنزير ، فإنه مطبوع على أخلاق ذميمة ، وصفات قبيحة ، فحرم أكله على الإنسان صيانة وحمية له عن أن يتكيف بتلك الكيفية ، واستحلال النصارى لها من أحداثهم فى دين المسيح ، وتبديلهم له ؛ وقد قال الإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين حدثنا نعيم بن حماد ثنا ابن الفضيل عن الوليد بن جميع عن أبى الطفيل ، قال : نزل آدم بتحريم أربع : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وأن هذه الأربعة الأشياء لم تحل قط ، ولم تزل حراما منذ خلق الله السموات والأرض ، فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم ، فلما بعث الله عيسى ابن مريم ، جاء بالأمر الذى نزل به آدم عليه السلام ، وأحل لهم ماسوى ذلك ، فكذبوه وعصوه ، قال الحافظ ابن كثير : وهذا أثر غريب .

وأما الخمر فهى أم الخبائث ، ومنبع الرذائل ، مفسدة للدين

والعقل ، فتحريمها من محاسن الشريعة ، وليس يؤازى مافيها من المنافع مااشتملت عليه من المفاسد ، لأن المنافع التى فيها تعود إلى البدن ، والمفاسد تعود إلى الدين والعقل ، وهما أعظم نعم الله على عباده ، فلهذا قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ فهذه الشريعة الزاكية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فإذا تعارضت المصلحة والمفسدة روعى أكبرهما ، فعطلت المفسدة الكبرى ، ولو بإهمال مصلحة لاتؤازى تلك المفسدة ، وهذا من حكمة الله فى شرعه وأمره ، وهو الحكيم العليم ، وقد قال تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ﴾ فذكر تعالى نوعين من المفسدة فى الخمر :

الأول : يتعلق بالدنيا ، وضرره أيضاً عائد على الدين ، وهو العداوة والبغضاء ، وذلك أن الغالب على من يشرب الخمر أن يشربها مع جماعة ، ويكون من غرضه فى ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ، ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم ، فكان من غرضه فى ذلك الاجتماع تأكيد المحبة والألفة ، ولكنه ينقلب فى الأغلب إلى الضد ، لأن الخمر تزيل العقل ، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل ، وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين أولئك الأصحاب ، وربما آلت إلى الضرب والقتل ، والمشافهة بالفحش ، وذلك يورث العداوة والبغضاء ، والشيطان سوّل لهم أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد المحبة والألفة ، فينقلب الأمر

إلى نهاية العداوة والبغضاء المفضيين غالباً إلى الهرج والمرج والفتنة ، وكل ذلك مضاد لصلاح العالم .

النوع الثانى : المفاسد المتعلقة بالدين ، وذلك فى قوله : ﴿ ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ﴾ وكون الخمر مانعة عن ذكر الله ، وعن الصلاة ظاهر ، لأن شرب الخمر يورث السكر واللذة والطرب فى الجسم ، فيمنعه ذلك عن أداء العبادة . ويحول بينه وبين أسباب السعادة ، وأيضاً فالنفس إذا استغرقت فى اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله ، ومالت إلى العاجلة ؛ ومن الدليل على قبح الخمر وخساستها أن عقل الإنسان أشرف صفاته ، والخمر عدو للعقل ، ومفسد له ، وذلك أن الإنسان إذا دعاه طبعه إلى فعل القبيح ، كان عقله مانعاً له من الإقدام عليه ، فإذا شرب الخمر بقى الطبع الداعى إلى فعل القبائح خالياً عن العقل المانع منها ، ولهذا امتنع من شربها جماعة فى الجاهلية صيانة لعقولهم ، وقيل للعباس بن مرداس فى الجاهلية : لم لاتشرب الخمر ، فإنها تزيد فى جراءتك ؟ فقال : ما كنت لآخذ الجهل بيدى ، فأدخله جوفى ، ولا أرضى أن أصبح سيد قومى فأمسى سفيههم ، وأيضاً فإن من خواص الخمر ، كما قال بعض العلماء : إن الإنسان كلما كان اشتغاله بها أكثر ، ومواظبته عليها أتم ، كان الميل إليها أكثر ؟ وقوة الإقدام عليها أوفر . بخلاف سائر المعاصى ، كالزنا مثلا ، فإنه إذا واقعه مرة واحدة ، قلتْ رغبته فيه ، وكلما كثر فعله لذلك العمل كان فتوره عنه أكثر ، بخلاف الشرب ، فإنه كلما كان إقدامه عليه أكثر كان نشاطه إليه أكثر ، ورغبته فيه أتم ، فإذا واظب الإنسان عليه

صار غريقاً فى اللذات البدنية معرضاً عن تذكر الآخرة والمعاد ، حتى يكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

وبالجملة : فالخمر يزيل العقل ، فاذا زال العقل حصلت الخبائث بأسرها ، فظهر بما قررناه أن تحريم الخمر والخنزير من محاسن الشريعة ، ومن أدلة أنها من عند الله ، وأنها أكمل الشرائع ، وأزكاها ، فلله الحمد والمنة .

فصـــل

قال النصرانى : وأما قبل أن وضعت الشريعة التى هى فى غاية الكمال ، كما هى حال شريعة المسيح ، فلا عجب أن تقدم مايشبه الأصول التى تصلح لتعليم الصبيان ، بل بعد إظهار الشريعة التى هى على تلك الحال ، فالرجوع بعد إلى الرموز والإشارات ، فهو أمر غير مستقيم ، ولا يمكن أن يؤتى بمعنى يدل على أنه يليق ، بعد إظهار شريعة المسيح التى هى فى غاية الصلاح أن يؤتى بغيرها ، هذا كلامه ، وهو يتضمن أمرين : الأول : دعواه أن شريعة المسيح أكمل من شريعة محمد عليهما الصلاة والسلام ، الثانى : مااقتضاه كلامه من أن المسيح خاتم الرسل ، كما صرح به هو ـ أعنى هذا النصرانى ـ فى أول كتابه .

والجواب عن الأول من وجوه : الأول : أن نقول : لاريب إن إثبات الكمال كغيره من المعلومات ، ليس بمجرد الدعوى ، وإنما يعرف بالدلائل والبينات .

فالدعاوى مالم يقيموا عليها * بينات أبناؤها أدعياء

وقد دللنا فيما تقدم على أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فى نهاية الكمال ، وتمام المصلحة ، ومقتضى الحكمة بما فيه مقنع لذوى الإنصاف ، وإن كانت الأدلة على ذلك تفوت الإحصاء ، ولا يبلغها الحصر ، فان الحكم والمصالح فى شرع الله وأمره لايحيط بها إلا هو ، فما ظهر لنا من ذلك قلنا به ، وما لم يظهر لنا وكلناه إلى عالمه .

الوجه الثانى : أن الله سبحانه شرع لعباده الشرائع على وفق الحكمة والمصلحة ، وخص كل أمة بشريعة اقتضتها حكمته ، ولكنه سبحانه فضل الشرائع بعضها على بعض ، كما فضل الرسل بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، فالكمال حاصل فى كل شرع شرعه الله ، ولكن حصول الكامل لايمنع وجود ماهو أكمل منه ، فكمال شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ليس مانعاً من ظهور شرع أكمل منهما ، كما أن فضل السابق فى الزمان من الأنبياء والرسل لايمنع وجود أفضل منه ، إذ الكمال فى أمر الله وشرعه غير متناه ، وإذا اعتبر ذو البصيرة ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق ، علم أنه جاء بالكمال الذى لم يتقدم نظيره فى الشرائع السالفة ، ولا عجب ، فان الذى جاء به أفضل الخلق ، وسيد المرسلين ، وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين (١)

الوجه الثالث : إن دعواه أن شريعة المسيح لا يمكن نسخها ، دعوى مجردة عن الدليل ، وكذب محض على شريعة من جاء بالإنجيل شبيهة بدعوى اليهود عدم جواز النسخ فى الشرائع ، وهذا النصرانى قد رد على

(١) لعل الخبر ،، أفضل وأكمل ،، ، وإلا فأين خبر ـ إن ـ ؟ تأمل .

اليهود فى إنكارهم النسخ ، فما باله رجع يدعى كدعواهم بغير برهان عقلى ، ولا دليل شرعى ؟! فقد حجر على الله فى شرعه بمجرد هوى النفس ﴿ أفرأيت من اتخذ إلـٰهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون ﴾ ثم يقال : أى فرق بين طروّ النسخ على شريعة موسى ، وما قبلها من الشرائع ، وبين طروّه على شريعة المسيح ؟ فانه لا يمكن أن يؤتى بفرق صحيح عقلى ، فقد خالفوا العقل والشرع فى هذه الدعوى الباطلة ، فلا حجر على الله فى شرعه وأمره ، كما لااعتراض عليه فى خلقه ﴿ ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾

واعلم أن الشرائع نوعان : منها ما يعرف بضرورة العقل والفطرة نفعه معاشاً ومعاداً ، فهذا يمتنع طروّ النسخ عليه لعبادة الله وحده لاشريك له ، وطاعته أبداً ، ومجامع هذه الشرائع أمران : التعظيم لله ، والشفقة على خلق الله ، وهذه لاتختلف فيها شرائع الأنبياء ، ومنها مالا يعرف إلا بالسمع مما يكون تابعاً للمصلحة ، وذلك يختلف باختلاف الزمان والمكان والحال ، فهذا يمكن طروّ النسخ عليه وتبديله ، فيكون الشيء الواحد حراما فى ملة دون ملة ، وفى وقت دون وقت ، وفى مكان دون مكان ، وفى حال دون حال ، وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع ، ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك ، ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه ، لكان على إبراهيم ، ونوح ، وسائر النبيين ، وكذلك ماحرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها ، لو كان حراما لعينه وذاته ، لكان

حراما على كل نبي ، وفى كل شريعة ، والأدلة على هذا كثيرة جداً ، وهى تبطل شبهة أمة الغضب فى دعوى عدم النسخ ، ليس هذا موضع بسطها ، لأن ذلك ليس من غرضنا فى هذا الكتاب ، إذ الكلام فيه مع الأمة الضالة ، وهم يوافقوننا على جواز وقوع النسخ فى الشرائع ، فاذا كان الرب تعالى لاحجر عليه ، بل يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، ويبتلى عباده بما شاء ، ويحكم ولا يحكم عليه ، وينسخ من أمره مايشاء ، ويثبت ، لامعقب لحكمه ، فما الذى يحيل عليه أن ينزل شريعة بعد شريعة المسيح تكون أكمل منها وأفضل ، وهل هذا إلا مادعته اليهود ، فان كان ذلك صحيحاً ، وأنه يمتنع أن يؤتى بشريعة بعد شريعة المسيح ، لزم منه صحة دعوى اليهود ، إذ لافرق ، فعاد الطعن فى نبوة المسيح ، وإذا كانت دعوى اليهود واضحة البطلان ، فدعوى هذا الضال أبطل وأبطل ، قال بعض العلماء : وحكمة النسخ فيما يجوز نسخه وتبديله أن الأجمال البدنية (١) إذا واظب عليها الخلف عن السلف صارت كالعادة ، وظن أنها مطلوبة لذاتها ، فيمتنع الوصول بها إلى ماهو المقصود من معرفة الله وتمجيده ، بخلاف ماإذا تغيرت تلك الطرائق ؛ وقال غيره : حكمته أن الخلق طبعوا على الملالة من الشيء ، فوضع لهم فى عصر كل رسول شريعة جديدة ، لينشطوا فى أدائها ، ومن الحكمة إظهار شرف نبينا صلى الله عليه وسلم ، فانه نسخ بشريعته شرائعهم ، وشريعته لاناسخ لها ، ومن حكم النسخ أيضاً مافيه من

(١) لعله " البدنية الأعمال "

حفظ مصالح العباد، كطبيب يأمر بدواء فى يوم ، وبآخر فى يوم ثان ، وهكذا بحسب المصلحة، وإن كان الثانى أفضل، انتهى .

والجواب عن الأمر الثانى ، وهو دعواه أن المسيح خاتم الرسل من وجوه تعلم مما تقدم :

الأول : أنها دعوى مجردة عن البرهان، وعارية عن الدليل ، والدعاوى التى لادليل عليها مطرحة ، وهم لايستندون فى ذلك إلى دليل ألبتة ، وليس فى الأناجيل التى بأيديهم مايدل على مازعمه ، بل قد تقدم فيما أوردناه من نصوص الإنجيل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مايبطل هذا الزعم .

الوجه الثانى : أن أدلة الرسالة المحمدية ومعجزاتها وبراهينها التى هى أظهر من شمس الظهيرة لايحتاج بعدها إلى تنويع الرد فى إبطال هذه الدعوى الكاذبة الخاطئة .

الوجه الثالث : أن هذا القول من مخترعاتهم المحدثة من بعض متأخريهم، إما من هذا المصنف ، أو أمثاله من الضالين ، وهذا كما رام بعض إخوانهم فى الكفر من أنصار اليهودية أن يدعى أن موسى خاتم الرسل، وأنه عهد إليهم أن لانبى بعده ، فدعوى هذا الضال أن المسيح خاتم الرسل، وأن شريعته خاتمة الشرائع، لانعلم به قائلا قبله من النصارى ، بل قد قال الإمام العلامة أبو عبد الله بن القيم، وهو الإمام المحيط بأقاويل الناس : أهل الكتاب مجمعون على أن نبياً يخرج فى آخر الزمان، ولايشك

علماؤهم أنه محمد بن الله ، وإنما يمنعهم من الدخول فى الإسلام رياستهم على قومهم ، وخضوعهم لهم ، وما ينالون منهم من المال والجاه ، انتهى .

وقول النصرانى : ولا يمكن أن يؤتى بمعنى يدل على أنه يليق بعد إظهار شريعة المسيح التى هى فى غاية الصلاح أن يؤتى بغيرها ، يعلم جوابه مما تقدم من بيان أفضلية شريعة محمد صلى الله عليه وسلم التى اقتضت حكمة الرب تعالى أن جعلها خاتمة الشرائع ، ففضلها على غيرها ، كما فضل من جاء بها على سائر الأنبياء ، وفضل أمته على جميع الأمم ، وأيضاً فالأصل الذى اتفقت عليه شرائع الأنبياء ، ودعا إليه جميع الرسل ، هو إخلاص العبودية لله تعالى ، وخلع الأنداد التى تعبد من دونه ، ولا ريب أن الذى جاءت به شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فى تشييد هذا المقام ، وحماية هذا الباب أعظم مما جاء به غيره ، فانه قد جاء من تحقيق التوحيد ، وسد طرق الشرك ، والتحذير من دقيقه وجليله ، وظاهره وخفيه ، مافضلت به شريعته على سائر الشرائع ، كما جاء فى الخبر عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وتقرير نبوة الأنبياء ، وتصديق ماتضمنته التوراة والإنجيل مع زيادة البيان والتفصيل مما تضمنه القرآن ، وحكمة ماحصل به للمؤمنين من العلوم النافعة ، مافاقوا به على جميع الأمم ، فأى معنى يليق ببعثة الرسول أعظم من هذا .

وأيضاً فقد قدمنا فى المقام الأول بيان اعتراف النصرانى بخفاء الحق ، وظهور الضلال قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بما يكفى فى إبطال كلامه هٰهنا ، ويعلم به أن الخلق محتاجون إلى بعثته صلى الله عليه وسلم أعظم

من كل حاجة ، ومضطرون إليه غاية الضرورة ، كما قال الله تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ، أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير ﴾ وفى الحديث الذى رواه مسلم فى " صحيحه " عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله اطلع على أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » .

وأيضاً فان النصارى عليهم لعائن الله قد أشركوا بالله أعظم الشرك ، وافتروا عليه أعظم الفرية ، فقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وادعوا له ولداً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، فلو لم يكن فى بعثة الرسول من الحكمة سوى النهى عن هذا الكفر الشنيع ، والشرك الفظيع ، من أمة يدّعون اتباع رسول الله ، والإيمان بكتابه ، وهم إذ ذاك أقرب الناس عهداً بالكتب والرسل ، لكان ذلك كافياً فى الحكمة ، ولائقاً بالمعنى الذى مضت به سنة الله فى خلقه من بعثة الرسول عند الحاجة إليه ، ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ﴾ .

هذا مايسر الله تعالى من كتاب " منحة القريب المجيب ـ فى الرد على عباد الصليب " . ؛ وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، وسلم.

فهـــرس كتـــاب

منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب

تأليف الشيخ الفاضل

عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر آل معمر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة